

يوسف السباعي

انتقامه على شقيقه



يوسف السباعي

ابتسامه على شفتيه

للمؤلف

(قصص قصيرة ١٩٤٧)	أطيان
(رواية ١٩٤٧)	نائب عزرائيل
(قصص قصيرة ١٩٤٨)	اثنتا عشرة امرأة
(.....)	خبايا الصدور
(.....)	يا أمة ضحككت
(.....)	اثنا عشر رجلا
(رواية ١٩٤٩)	أرض النفاق
(قصص قصيرة ١٩٤٩)	في موكب الهوى
(.....)	من العالم المجهول
(.....)	هذه النفوس
(رواية ١٩٥٠)	إلى راحلة
(قصص قصيرة ١٩٥٠)	مبكي العشاق
(.....)	بين أبو الريش وجنيبة ناميش
(.....)	أغنيات
(مسرحية ١٩٥١)	أم رتيبة
(قصص قصيرة ١٩٥١)	هذا هو الحب
(.....)	صور طبق الأصل
(رواية ١٩٥٢)	بين الأطلال
(.....)	السقامات
(قصص قصيرة ١٩٥٢)	سماز الليالي
(.....)	الشيخ زعرب
(.....)	نفحة من الإيمان
(مسرحية ١٩٥٢)	وراء الستار
(قصص قصيرة ١٩٥٣)	ست نساء وستة رجال
(.....)	هذه الحياة

(رواية ١٩٥٣)	البحث عن جسد
(مسرحية ١٩٥٣)	جمعية قتل الزوجات
(رواية ١٩٥٣)	فديتك باليلي
(قصص قصيرة ١٩٥٣)	ليلة خمر
(« » ١٩٥٣)	همسة عابرة
(رواية في جزأين ١٩٥٤)	رد قلبي
(قصص قصيرة ١٩٥٥)	ليالٍ ودموع
(رواية ١٩٥٦)	طريق العودة
(مقالات ١٩٥٧)	أيام تمر
(« » ١٩٥٨)	من حياتي
(« » ١٩٥٩)	لطمات وثلاث
(رواية في جزأين ١٩٦٠)	نادية
(« » ١٩٦١)	جفت الدموع
(مقالات ١٩٦١)	أيام مشرقة
(« » ١٩٦١)	أيام وذكريات
(« » ١٩٦٢)	أيام من عمري
(رواية في جزأين ١٩٦٤)	ليل له آخر
(مسرحية ١٩٦٦)	أقوى من الزمن
(رواية في جزأين ١٩٦٩)	نحن لا نزرع الشوك
(رواية ١٩٧٠)	لست وحدك
(مقالات ١٩٧٠)	من وراء الغيم
(« » ١٩٧١)	أيام عبد الناصر
(رواية ١٩٧١)	ابتسامه على شفتيه
(رحلات ١٩٧١)	طائر بين المحيطين
(قصة ١٩٧٣)	العمر لحظة

الإهداء

إلى الشهيد الذى بذل روحه من
أجل بعث الروح الفلسطينية .
والذى جعل من جسده الطاهر
معبرا للعودة .

(يوسف السباعي)

مقدمة

كنا أصل الحضارة . وشعوب العالم تعيش في ظلمات الجهل . ونهب الاستعمار مواردنا واستعبد شعوبنا .. وحططنا القيد .. وبدأنا نحقق حريتنا .. ونخطو نحو التقدم الاجتماعي والبناء الاقتصادي .. تلك هي مسيرتنا الطبيعية ولكنكم أوقفتموها — ونزعتم الأرض من تحت أقدامنا .. ثم تسألوننا الآن .. لماذا لم نخضروا الأرض .. أى أرض ؟ التى سرقتموها ؟ لقد كانت لنا مزارع وبيارات وكنا نعمل بكل ما نملك من وسائل .. كنا نستطيع أن نعمل وإياكم من أجل الرخاء والعدالة ولكي نجعل من وطننا الفلسطيني وطناً أفضل .. يعمه الحب والخير .. وتسوده العدالة والمساواة .. ولكنكم غلبتم العنصرية والظلم .. والبغى والعدوان .. لتسحقونا في أرضنا ولتذرونا من عليها كبقايا رماد .. لقد سلبتم أرضنا بالقوة .. ولن تعيدها إلينا إلا القوة . إن الحرب عملية سخيفة ، ولكن عندما يواجهك إنسان بسخافة محاولاً إبادةك .. فستكون أكثر منه سخافة إذا لم تحاول درء الضربة وردعه .. وتحرير أرضك واسترداد حقلك .

« يوسف السباعي »

صورة لاتبهت

سوق القدس القديمة فى يوم من أيام أغسطس ونسمة المغرب تهب لتطرد قىظ
الظهيرة الذى حول الحوانيت إلى أفران لم تفلح المياه التى أخذ أصحابها يرشونها
حولها فى إطفاء حرقها وإخماد لهيبها ..

ووقفت سيدة أمام حانوت الشيخ عبد السلام تسأله :

— هل أجد عندك باتسته ؟

وقبل أن يجيب الرجل هتف ابنه عمار قائلا فى لهجة متبرمة :

— لا .. لقد نفذت .

وأسرع الشيخ عبد السلام يمسك بالسيدة التى همت بالانصراف قائلا :

— اصبرى لحظة .. لدى شىء أفضل من الباتسته .

وردت السيدة ببساطة :

— ولكننى أريد باتسته .

— لدى بوبلين ممتاز .. وأرخص من الباتسته .

وترددت السيدة برهة ثم استدارت قائلة :

— أتفرج .

— سأريك أشياء وردت لنا أخيرا .. عندى حرير يابانى .. وتيل وكريشة

على جميع الألوان ..

— لقد كنت أريد قطعتين من الباتسته .. واحدة على أزرق .. والأخرى على

برتقالى .

— تفضلى .. سأريك كل شىء .. أتشرين قهوة .. أم ليمونا باردا ؟ ..

— متشكرة .. ليس لدى وقت .

— ١٠ —

— حالا .

ثم أشار إلى أحد الرفوف قائلا لعمار :

— هات هذين الثوبين الأزرق والأحمر .

وتعم عمار في ضيق وهمس قائلا :

— إنها تريد باتسته .

ونظر الشيخ عبد السلام إلى ابنه نظرة زاجرة وقال موجهًا الحديث إلى

السيدة :

— أنا واثق .. أن هذا البوبلين سيعجبك .. إنه مصنوع من القطن

المصري ..

وجذب عمار الثوبين وألقى بهما أمام أبيه .

وأخذ عبد السلام يفرد أحدهما وهو يستعرضه أمام السيدة . ثم بدأ يجذب

لفافات الأقمشة واحدا بعد واحد من فوق الأرفف وهو مسترسل في الحديث :

— هذا صنف ممتاز .. لقد نفد كل ما لدينا في يومين ولم يبق سوى هذا

الثوب .

وتكومت لفافات الأقمشة على الطاولة أمام السيدة .. دون أن يبدو عليها أن

شيئا منها قد أعجبها .

وأخيرا أمسكت بأحد الأثواب قائلة :

— هذا معقول .. اقطع لي منه فستانا ..

وأمسك الشيخ عبد السلام بالمسطرة الخشبية ليقيس من اللفافة أربعة أمتار .

ودفع بالمقص في القماش فشقه ليفصل القطعة المطلوبة عن الثوب . وأخذ

يطبقها ثم وضعها جانبا . وأسرع بمسك بثوب آخر قائلا في إعجاب :

— وما رأيك في هذا ؟ ..

ثم قرّبه منها ونظر إليها في إعجاب قائلا :

— إنه يكاد ينطق عليك .

— ١١ —

وقالت السيدة ببساطة :

— هات منه فستانا .

ثم أشارت إلى ثوب آخر قائلة :

— ومن هذا أيضا ..

وقبل أن يقص لها الفستان أقبلت سيدة أخرى تسأل عمارا قائلة :

— أأجد عندكم حرير هندي ؟

ورد عمار بلهجته الجافة :

— لا .

وأسرع الشيخ عبد السلام وهو يطبق الفستان الذي في يده هاتفًا :

— بل عندنا .

ورد عمار في إصرار :

— لا يوجد عندنا حرير هندي .

وصرخ فيه الشيخ عبد السلام :

— كفأك غباوة .. أنت لا تعرف شيئا .. تفضلي يا سيدة .. دقيقة

واحدة .. حتى أنتهي مما في يدي .

وانصرفت السيدة الأولى وهي تحمل أربعة فساتين . وبدأ الشيخ عبد السلام

يكوم الأتواب أمام السيدة الثانية ويستعرضها في صبر وأناة ولم تغادر السيدة

الحانوت إلا وقد اشترت خمس قطع من أقمشة مختلفة .

ونظر الشيخ عبد السلام إلى ابنه في غيظ وصاح به بعد أن انصرفت السيدة

قائلا :

— أتريد أن تطفش الزبائن ؟

— لماذا ؟

— لماذا ؟.. ألا تدري ماذا فعلت ؟

— سألوا عن بضاعة غير موجودة .. فقلت لهم إنها غير موجودة ، ماذا في

ذلك ؟ ..

— إذا لم يكن لديك ما تريد .. فأره ما لديك .

— ولكنه يريد شيئا محمدا .. لا يوجد عندنا .

— وماذا ستخسر إذا ما عرضت عليه ما عندك .. إن هذا هو عملك .. وهو

لا بد واجد عندك شيئا يعجبه .. ولقد رأيت مثلاً أمامك .. لقد اشترت كل من

السيدتين ضعف ما تريد .. ولو تركتهما لك لانصرفتا دون أن تبتاعا شيئا .

وزفر عمار في ضيق وملل وقال :

— الذى أعرفه هو أن الإنسان يعرف ما يريد .. فإذا لم يجده فليبحث عنه

حتى يجده .

— أنت تاجر فاشل .. ولن تنفع أبدا .. لقد قلت لك مائة مرة .. سحبي

الزبون ورحب به .. وعامله كصديق .. أو قريب .

وأطرق عمار برأسه وقد زادت قسما وجهه تجهما .

وصاح أبوه في غيظ :

— ثم .. لماذا تتجههم هكذا .. لقد قلت لك ابتسم .. الناس ليسوا خدام

أييك .. حتى تلقاهم بمثل هذا التجهم .. إنك لا تطاق .

وفى المساء أغلق الشيخ عبد السلام الخانوت .. وضع العباءة على كتفه

وعدل العمامة على رأسه . وسار يتبعه عمار بعد أن أغلق باب الخانوت متجهين

إلى البيت ..

سار عبد السلام بقامته المهيبة ووجهه الأبيض البشوش ولحيته المسترسلة التي

اختلط فيها السواد بالبياض وهو يحى أهل السوق ببشاشة ويتلقى تحياتهم في

ترحاب .

وسار عمار بجسده النحيل يرتدى القميص والبنطلون .. بملاحه الدقيقة

وشعره المشوش فوق رأسه الصغير وقد بدا في نظراته شروء وكأنه لا يبصر شيئا

مما حوله .

— ١٣ —

وصل الاثنان إلى البيت .. ووقف الشيخ أمام الباب الحديدي للحديقة ومد يده يجذب المزلاج من الداخل .

ونبح كلب وأقبل يتوالت في مرح ومن ورائه صبي يتسائل « من » ثم يعلن أهل الدار عن وصول أبيه وأخيه .

ورفع الشيخ عبد السلام ابنه خالد بين يديه ثم قبله متسائلا :

— كيف حالكم ؟

وأجاب خالد :

— أختي عايدة أتت هي وعمى عبد الكريم وليلي .

وبدت الفرحة على وجه الشيخ وصعد درجات السلم الحجري المؤدى إلى باب الشقة والذي اندفعت منه حفيدته الصغيرة ليلي هاتفة بالشيخ بلثغتها المحبة .

ورفع الشيخ عبد السلام ابنه خالد بين يديه ثم قبله متسائلا :

— أهلا وسهلا .. أهلا ..

وتعلق خالد بذراع عمار وهما يسيران وراء الشيخ وقال خالد متسائلا :

— أأحضرت لى الكرة ؟

ورد عليه عمار باقتضاب :

— قل لى تحضرها لك .

— قلت لها بعد أن عادت من المدرسة . فقالت لى عمار سيحضرها لك .

— لقد نسيت .

واستقرت الأسرة حول المائدة بعد أن رصت الأم صحاف الطعام وقال الأب

مرحبا بزواج ابنته :

— لقد انتظرناكم فى الأسبوع الماضى .. ولكنكم خيتم أمطنا .

ورد عبد الكريم :

— حاولت أن أحصل على إجازة . ولكننى لم أستطع .. فقد كانت كتيبتى

مشتركة فى المناورة . وقلت لعائدة تأخذ ليلى وتحضر إليكم على أن ألحق بهما ..

ولكنها فضلت انتظاري .

وتساءلت الأم :

— لعلكما إذن تقضيان عندنا هذا الأسبوع .

وردت عائدة :

— لن نستطيع أن نملك أكثر من يومين .

وسأل الشيخ عبد السلام :

— لماذا ؟

وأجاب عبد الكريم :

— لقد أعلنت حالة الطوارئ .. وكان المفروض ألا أحضر ولكنى استطعت

أن أستأذن في الغياب يومين بصفة خاصة .

وتمم عمار كأنه يحدث نفسه :

— طوارئ .. ومناورات .. كأنكم تفعلون شيئا .

وضحك عبد الكريم قائلا :

— إننا نحاول أن نفعل .

وزفر عمار في يأس وأجاب :

— لا فائدة .

وردت عائدة في حماس :

— لا فائدة من ماذا ؟ .. إن عبد الكريم سيترقى إلى رتبة نقيب في الشهر

القادم .

ورد عمار في سخرية :

— وعلام يترقى ؟

وقال له أبوه ناهرا :

— يترقى على جهده وإخلاصه في العمل ..

وتمم عمار :

— لعله طرد اليهود !

وأجاب الأب ساخرا :

— تشطر واطردهم أنت .

وزفر عمار دون أن يجيب .

وعاود الأب حديثه بقوله في سخرية زاجرة :

— أنت لا تفلح إلا في هذا .. لست أدري ماذا يعجبك .. أدخلتك المدرسة

فلم تفلح .. دخلتها ساخطا .. وخرجت منها ساخطا .. لم يكن يعجبك فيها

شيء .. لا الدروس ولا المدرسون .. وقلت لنفسى .. أعفك من هم

الدراسة .. وألحقتك بالعمل معى فى المحل .. لعلك تساعدنى .. وتحمل عنى

العبء مستقبلا .. ولكننى وجدتك كعبد المعين .. أتيت به يعيننى .. فوجدته

يعان .. تقف فى المحل .. وكأنك العقلة فى الزور .. لا يعجبك العجب

ولا الصيام فى رجب .. ولو اعتمدت عليك لطفشيت جميع الزبائن .. ولم نبع

بليرة واحدة ..

وحاولت الأم أن تنهى حديث الرجل الغاضب فقالت ضاحكة :

— ربما لم يكن له كيف أو كان متعبا يا عبد السلام .

ورد عبد السلام فى ضيق :

— دائما .. ليس له كيف .. ودائما متعب .. ودائما وجهه متجههم

لا تعرف الابتسامة طريقها إلى شفتيه ..

وقالت عابدة تخفف وقع حديث الأب :

— طول عمره هكذا يا أبى .. منذ صغره .. لقد تعودت على وجهه بغير

ابتسامة .. ولكنه طيب وأمير .. وقلبه كالحليب الأبيض .

وتتم الأب فى يأس :

— وكيف يصل الزبائن إلى حليب قلبه .. ليس لدى الزبائن وقت لاكتشاف

ما فى قلوبنا .. لأنهم لا يرون منا غير وجوهنا .. فإذا لم نلقهم بابتسامة على

شفاهنا .. ولوا منا فرارا ..

وقالت مى مدافعة وهى تنظر إلى عمار فى إعجاب :
— عمار لا يخطئ يا عمى .. والذين يكرهونه لا بد أن يكونوا أشرارا .
وأجابها الشيخ فى هدوء :

— ليس بيننا وبين الزبائن حب ولا كراهية .. نحن تجار يا مى والمفروض أن
نلقى الجميع ببشاشة .. وأن يكون لدينا الصبر على التعامل معهم .. وأن نعرض
كل ما لدينا برقة ولباقة بحيث لا تتركهم يغادرون المحل وأيديهم فارغة .. هذه هى
التجارة .. تحتاج إلى كياسة ولباقة وابتسامة على الشفتين .. أما الوجه
المتجهم .. والحدة .. اللذان يلقاهم بهما عمار .. فستؤدى بنا إلى الإفلاس .

وقالت الأم متممة فى اعتذار عن ابنها :
— أنت تعرف طبيعته يا عبد السلام .. هل هذا شيء جديد عليه ؟
ورد الأب قائلا :

— ليس جديدا .. ولكنه أصبح الآن يهدد رزقنا .. فالمفروض أن يتولى
العمل معى فى المحل .. وأنا إذا عشت اليوم .. فلن أعيش غدا .. وهو لم يتم
الدراسة .. ولم يتعلم حرفة ..
وقالت الأم مقاطعة :
— ربنا يعطيك طيلة العمر ..

وكان عمار ينصت إلى هذا الحديث حوله وقد بدا كعادته شارد الذهن وكان
الأمر لا يعنيه .. وتناول ملعقة من طبق الحلو .. ثم أزاح كرسيه للخلف ونهض
متجها إلى غرفته قائلا فى صوت خفيض :
— عن إذنكم .

وبدا التأثير على وجه مى وهى تحس أن الحديث قد آلمه ووجهت القول إلى
عمها فى لهجة رقيقة ملؤها الحب :
. إن عمار إنسان لا مثيل له .. إنه طيب وخير .. وهو يحتاج إلى صبر لترويضه
على مهنته الجديدة .. وعلى الابتسام .

— ١٧ —

وأجاب الأب في يأس :

— لقد نفذ صبري معه .

وردت مى :

— إذن سأحاول أنا ..

وقال عبد الكريم ضاحكا :

— ستحاولين تعليمه الابتسام ؟ .. ولا شارلى شابلن يستطيع هذا !!

وردت مى ضاحكة :

— سأجلسه أمامى كل يوم ساعتين لأرسم له صورة زيتية .. وأطلب منه أن

يبتسم طوال الساعتين .. حتى تتعود شفتاه الابتسام .

وردت عايذة قائلة وهى تضحك :

— أولا لن يقبل الجلوس للرسم ..

وأردف عبد الكريم :

— وإذا جلس فلن يبتسم .

وقالت مى :

— إذن فسأرسم له صورة من الذاكرة وهو يبتسم ، وأريه كيف يبدو شكله

جميلا عندما يبتسم ..

وقال الشيخ عبد السلام وهو يهم بترك المائدة :

— أنتم تضحكون .. والمسألة تبعث على الأسى .. هذا الولد .. قد

حيرنى ..

وصاح خالد معترضا :

— مى لا تضحك يا أبى .. لقد رسمت اليوم فى المدرسة صورة لأخى عمار

وهو يرتدى ثياب جندى وممسك بندقية .

وقالت مى معقبة :

— لم تكن صورة عمار .. لقد كنت أحاول أن أرسم صورة لمقاتل فلسطيني

كنموذج يرسمه الأولاد فى الفصل .. وفجأة سمعت خالدا يهتف من وسطهم بأعلى صوته ويقول لى « هذا أخى عمار يا أبلة مى » .. ولم أكن أدرك أن ملاح المقاتل تشبه عمارا حتى صاح بى خالد .. وعندما عدت أتأملها وجدت بها بعض الشبه فعلا من عمار ..

وتساءلت الأم فرحة :

— هل هو جميل كعمار ؟

وردت أخته عائدة صائحة :

— وهل تظنين ابنك جميلا ؟

وردت الأم متفاخرة :

— ليس هناك أجمل من عمار .

وقالت عائدة ضاحكة :

— القرد فى عين أمه ..

ونهرتها الأم قائلة :

— قرد فى عينك وعين أبيك .

وأقبلت عليها لى الصغيرة تتساءل فى لثغتها :

— أنا جميلة يا نينة ؟

وصاح بها خالد :

— أنت قرودة .

وهتفت الصغيرة وهى تتجه إلى أمها شاكية :

— أنا قرودة يا ماما ؟

وضمتها عائدة إلى صدرها وهى تقول :

— أنت روحى ..

والتفت عبد الكريم إلى مى وهو يمسح يديه فى المنشفة :

— إذن ستعلمين عمارا الابتسام ؟

— ١٩ —

— أجل .
— وتجلسينه أمامك ساعتين ؟
— سأحاول .
— وتطلبين منه أن يتسم ؟
— أجل .
— وهل سيسمع كلامك ؟
— ربنا يهديه .
— وإذا لم يفعل ؟
— لن يستعصى على رسمه .. لقد قال لكم خالد كيف رسمت صورته
بلاوعى .

واعترض خالد صائحا :
— ولكنه لم يكن يتسم يا أبله مى .
— سأجعله يتسم فى الصورة .
وقال عبد الكريم ضاحكا :
— والله لو رسمت الابتسامة على شفتيه .. لطارت فى اليوم التالى ..
وقالت عايدة :
— أنا أعرفه من يومه .. وجهه يقطع الخميرة من البيت .
وقالت الأم وهى تهز رأسها فى أسى :
— يا ناس اعذروه .
وأقبلت عليها مى وهى تحيطها بذراعيها :
— عمار لا يوجد مثله يا خالتى .
وضمتها الأم إليها فى حنان وهى تتمتم :
— أنت حبيبتى يا مى .. أنت أعز من أولادى .
وقالت عايدة ضاحكة :

— ٢٠ —

— خلاص .. راحت علينا .. حلال عليكى يا مى .
واتجهت مى إلى غرفة عمار بجسدها الرقيق وشعرها الأسود الطويل
المعكوف على رأسها وعينيها السوداوين الواسعتين وأنفها الدقيق وشفثها
الرققتين .

وكان عمار قد استلقى على مقعد من القش فى الشرفة الخلفية المطلّة على
الحديقة ومد ساقيه على سور الشرفة وأسند رأسه على حافة المقعد وأغمض
عينيه .

ووضعت مى يدها على كتفه . ولم يتحرك عمار .. ولم يبد عليه أنه شعر بمسة
يدها .

وسأله مى فى همسة رقيقة :

— ما بك يا عمار ؟

ورد وهو مغمض العينين :

— لا شىء .

— أرجو ألا يكون حديث عمى قد أغضبك .

— أبدا .

— ولكنك يجب أن تفكر فيما قال .

وفتح عمار عينيه ونظر إليها نظرة غير مبالية وقال فى غير اكتراث :

— كيف ؟

— إن مستقبلك معه فى العمل معه فى الحانوت .. فيجب أن تسمع نصحه .

— وماذا يريد ؟

— يريدك أن تهش للزبائن .. وأن تصبر عليهم .

— وأن أبيعهم ما لا يريدون .. وماذا أيضا ؟

— أن تضع ابتسامة على شفثيك .

— سأحاول .

— ٢١ —

ونظرت مى إلى وجهه متأمله ثم سألته :

— ما رأيك فى أن أرسـم لك صورة ؟

— صورة !!؟

— أجل .

— لى أنا ؟

— أجل .

— افعلـى شـيئا أفيد من هذا .

— سأرسـمك صورة بالزيت .

— لماذا ؟ .. من أكون أنا حتى ترسمينى ؟

— أنت .. أنت ابن عمى ؟

— أهذا شـيء يجعلنى أستحق الرسم ؟

— وأنت إنسان طيب .. وخير ..

— هل هذا مبرر للرسم ؟

— سأرسـم صورة وأنت تبتسم .

— ولماذا أبتسم ؟ ..

— لأن شكلـك سيصبح أفضل وأنت تبتسم .

— وماذا يـهم شكلـى ؟ ..

— حتى تستطيع أن تلقى الزبائن .. وتتعامل معهم .

— هل تظننـى الزبائن .. يهتمون بشكلـى .. إذا كنت أبتسم أو لا أبتسم ؟

— إنهم يهتمون بأن يلقاهم إنسان ببشاشة .

— قلت لك سأحاول .

— وهل لديك مانع من أن تجلس أمامى حتى أرسـمك ؟

— أجل .

— لماذا ؟

— ٢٢ —

- لأنى أكره هذه الأشياء .. أكره أن أجلس لأبتسم .. بلا مبرر .
— سأحاول أنا أن أجعلك تبتسم .
وبدا صبره ينفد وقال لها فى ضيق :
— اذهبي يا مـى .. لا داعى لإضاعة الوقت فى هذه السخافات ..
— ولكن هذه السخافات هى عملى .. إننى مدرسة رسم يا عمار .
— إذن اذهبي وعلمي الأولاد الرسم .. علمهم أن يرسموا شيئا مفيدا ..
— إلى أفعل ..
— يكفيك هذا .. ودعيني فى حالى ..
وهزت مـى رأسها فى أسف وهى تقول :
— إذن سأرسمك من الذاكرة .
— افعلى ما تشائين .
— سأرسمك وأنت تبتسم .. لأريك كيف يمكن أن تكون إنسانا آخر
بالابتسامة على شفئك .
وغادرت مـى الشرفة .
وعاد عمار يغمض عينيه ويسند رأسه إلى حافة المقعد ..
وعاد صوت مـى يتردد فى مسامعه :
كيف يمكن أن تكون إنسانا آخر بالابتسامة على شفئك .
ابتسامة على شفئك !!؟
كيف ..؟
وفجأة وثبت إلى ذاكرته صورة .. لا تريد أن تمحى منها .
صورة تألى أن تهت أو تضمحل منذ زمن بعيد .. بعيد ..
وهو لم يزل بعد طفلا . وهم يعيشون فى بيتهم خارج مدينة القدس .. فى دير
ياسين .
استيقظ على انفجار مروع .. هز جدران البيت .

— ٢٣ —

وأقبلت عليه أمه جزرعة وضمته إليها .
ومن الغرفة المجاورة أقبلت خالته زاهرة وهى تجر ابنتها مى فى يدها وهى تصرخ باكية .

وكانت خالته حاملا .
ومن الحديقة أقبل أخوه الأكبر محمود يصرخ فرعا وهو يصيح :
— اليهود يهاجمون البلدة .
— من قال لك ؟

— عم إبراهيم البقال .. وقال لى اختبئ لأنهم يقتلون كل من يقابلهم .
وكان أبوه وزوج خالته قد غادرا البيت كل إلى عمله .
وازداد صوت الانفجارات .. وأخذت تقترب من البيت .
انفجار .. يتلوه انفجار .. والطلقات تتوالى .
وفى ارتياح جمعهم أمه فى إحدى الحجرات .
وسمع أصوات صرخات .. ثم ضجيجا وصوت أقدام كثيرة تقترب من البيت .. وباب الحديقة بدفع .. وأصوات أقدام تتزاحم فى الحديقة .. وباب البيت يفتحهم .. ثم أقداما تصعد الدرج .
وأسرعت أمه تجمعهم وراء ستار باب الشرفة العريضة .. وطلبت منهم أن يكتموا أنفاسهم حتى يغادر اليهود المنزل .
وسمعت أصوات الأقدام تجول داخل الحجرات وأشياء تنحطم .. وازداد اقتراب الأقدام .. ودخل أحدهم الحجرة .. ثم صاح :
— لا أحد هنا ..

وهم بالخروج .
وفجأة صرخت الصغيرة مى وهى تمسك بيد أمها . وتوقفت أقدام الرجل .. ثم اقترب من الستارة وبطرف السنكى فى يده أزاحها ونظر إليهم وهو يهز رأسه ويهتف ساخرا :
— إذن فأنتم هنا .

٢

كيف...؟ كيف..؟

كتم الجميع أنفاسهم وقد أصابهم الرعب .. وعادت مى الصراخ ..
وأشار لهم رجل العصابات الصهيونى بطرف السونكى المعلق فى البندقية
قائلا :

— اخرجوا ..

وجمد كل منهم فى مكانه فلم يستطيع حراكا .. وأخذ الرجال المسلحون فى
التدفق فى الحجرة ووقفوا يرقبون المرأتين والطفلين وكأنهم حصلوا على كنز
ثمين .

وصاح الرجل الذى عثر عليهم :

— أين الرجال .

والتقطت أم عمار أنفاسها ثم ردت :

— خرجوا .

— إلى أين ؟

— إلى أعمالهم .

وصاح الرجل بزميل له :

— ارفع الستار فقد يكونون مختبئين وراءه .. ونخذ حذرك .

وعادت مى الصغيرة صراخها وهى على كتف أم عمار .. وأحست الأم
الحامل بالغثيان وأمسكت بطرف الستار حتى لا تقع .
وأحس عمار بالفيظ من مى وهى تمعن فى صراخها .
لماذا تصرخ هذه الحمقاء الصغيرة .. لقد كانت هى السبب فى اكتشاف
الرجال لمخبئتهم .. وهى ما تزال تعاود هذا الصراخ الغبى .

ورفع عمار بصره إليها وصاح بها :

— اصمتى .. لماذا تصرخين ؟

وازدادت مى صراخا .

واقترب أحد الرجال من عمار وضربه بطرف السونكى فى كتفه وقال له

ساخرا :

— ومالك أنت بها ..

واندفع أخوه محمود نحو الرجل يضربه بقبضته الصغيرة .

واندفعت أم عمار تبعد طرف السونكى عن كتفه وصاحت بالرجل :

— ابعد عنه .

وبركلة عنيفة أزاح الرجل محمودا بقدمه ثم اقترب من أم عمار قائلا فى

سخرية :

— إذن أقترب منك أنت .

ثم دفع السونكى إلى صدرها وشق ثوبها .

واندفع عمار صارخا وأمسك بساق الرجل وحاول أن يعضه ولكن الرجل

ركله بقدمه ركلة أسقطته على الأرض .

وجذب الرجل مى من كتف أم عمار وقذف بها على الأرض .

وصرخت أم مى واندفعت إلى الرجل غاضبة تحاول أن تمسك بخناقه ..

وببساطة تلقاها الرجل بطرف السونكى مصوبا إلى بطنها المنتفخ وبكل

ما يملك من قوة دفعه إلى داخل بطنها وهو يقول فى استخفاف :

— لا داعى للمزيد من نسلكم .. لست أدرى لماذا تتكاثرون بمثل هذه

السرعة .

وبقر السونكى بطن المرأة الحامل وسقطت المرأة تتلوى وقد خرج كل ما فى

باطنها .

وقفز محمود نحو الرجل وقبل أن يصل إليه انطلقت رصاصة من فوهة إحدى

البنادق فاستقرت في رأسه .. وعلت من شفتيه صرخة ثم هوى إلى الأرض والدماء تغرق وجهه .

وصرخت أم عمار وسقطت مغشيا عليها .

وعاودت الصغيرة مى صراخها وهى تزحف على الأرض .

وجمد عمار في مكانه مشدوها .. منظر عجيب .. لا تستطيع السنون أن تمحوه من ذاكرته .. لم يطف بذهنه أن بطن الإنسان يمكن أن يحوى كل هذه الأشياء حتى رأى خالته تتلوى على الأرض وكل شيء قد تدلى منها .. الأمعاء والجنين .

ولا خطر بباله أن هذه الرصاصة الصغيرة التى تنطلق من فوهة البندقية يمكن أن تستقر في رأس إنسان فتريه قتيلا حتى أبصر أخاه يتلوى على الأرض ثم يستقر جثة هامدة .

فظيع .. فظيع .

والرجال يضحكون .. يقهقهون .. كأنما يرقبون منظرا مضحكا على خشبة مسرح .

والدماء تتدفق على الأرض وتسيل ببطء حتى تصل إلى موضعه فيحس بها لزجة ساخنة تحت كفه .

ومن الخارج تتعالى الانفجارات .. والصرخات .

وتلفت الرجل إليه ثم ركله بقدمه ركلة عنيفة حملها بقية ما يطويه من حقد صائحا :

— كلاب .

وبصق .. ثم قهقهه .

وغادر الغرفة تسبقه خطوات زملائه على الدرج .

ونهب عمار ينقل أقدامه الصغيرة العارية وسط الدماء .. وأشياء كثيرة حمراء تتدلى من بطن خالته .. وأخوه قد تقوس جسده وغطت الدماء وجهه .. وأمه

راقدة .. وقد فغرت فاها وأسبلت عينها .. والصغيرة تجبو وسط الدماء .. وقد
تلوثت ثيابها وكفاهها ووجهها .. تسعى فزعة إلى أمها التي أفرغ الدمج جوفها .
لو استطاع أن يقضم رقبتهم أو يقر بطونهم .. لقد حاول أن يعض أحدهم
ولكن ركلته كانت أقوى من أسنانه .

لو أن أباه هنا .. لعرف كيف يريهم .

أو زوج خالته !!

لماذا خرج كلاهما ..

وفجأة سمع صوت أنى مى .. كان يصيح مهددا .. شاتما .. صارخا .
إنه لا بد سيقتلهم .

سيشق بطن أحدهم كما فعلوا بخالته .

وسمع عمار طلقة .. ثم أعقبتها صرخة .. وصوت شيء ثقيل يرتطم
بالأرض .

ولم يعد يسمع صوت أنى مى ..

ربما كان منهمكا في قتل الباقي .. وشق بطونهم .

ولكنه عاد يسمع صوت القهقهة .. قهقهة الجمع .. الذين يشاهدون
المسرحية الهازلة .

وتعاقبت أصوات الأقدام على الدرج .. وفي الحديقة .. ورويدا ..
رويدا .. ساد السكون الدار .

إلا من صراخ الصغيرة في الداخل .. والانفجارات في الخارج وتتوالى
الصورة في ذهنه .

ويذكر بعد ذلك أباه وهو يحمله على كتفه .. وأمه تحمل مى الصغيرة ..
وما زال صراخها يتعالى .. ويسرون في درب ضيق فوق سفح الجبل .. تاركين
وراءهم .. جثتا ملقاة على الطريق .. شيوخا وأطفالا ونساء .. ولم يعد منظر
أخيه وخالته غريبا على عينيه فقد امتلأت الطرقات بأمثاله .. وفي الميدان جردت

النساء من ثيابهن .. وحولهن فوهات البنادق .. والقهقهات الساخرة ..
ورجالهن جثث .. تطؤوها النعال .
أشياء مروعة .. خلفها وراءه .
سماها الناس بعد ذلك .. مذبحه دير ياسين .. قريتهم الهادئة الطيبة ..
ووصفوا فظائنها .

ولكن أحدا .. لم يرها .. كما رآها هو .
لم ير .. طرف السونكى يغرس فى بطن خالته .. كما تغرس السكين فى
البطيخ .. ويخرج منها الجنين كقلب البطيخة .
لقد قرأ أشياء كثيرة عنها .

ولكن الكلمات على الورق .. باردة .. تتألق فى أناقة .. سواد الحروف على
بياض الورق .. وعبثا تستطيع أن ترسم الصورة .. عبثا تستطيع أن تكون
مخالب ممزقة .. عبثا تستطيع أن تتحول الحروف إلى بقع قانية لزجة ساخنة ..
عبثا تستطيع السطور أن تتحول إلى أحشاء تتدلى .. وأشياء أخرى تختلط بالدماء
والأحشاء .

كلام .. كلام .
والحقيقة المروعة .. ابتلعها الأيام .. ولم تترك منها إلا ذكرى .. تروى
كالخواديت .

وبدت أمه مشدوهة وهى تحتضن الطفلة الباكية .. وأخذت تتعثر فى حصى
الطريق وتهتف بأبيه وفى صوتها أنين مومج :
— إنها جوعى .

ومد الرجل يده فقطف برتقالة من شجرة مطلة على الطريق وأجاب لاهثا :
— حاولى أن تسليها بالبرتقالة .. أسكتها بأية طريفة .. حتى لا تنم
صراخاتها عنا .

وأحس عمار برجفة .

مرة أخرى يمكن أن تشي بهم مى .
 ألم تفعلها فى المرة الأولى .
 ولكن هذه المرة .. معهم أبوه .
 لن يترك أحدا يفتك بهم .. ويقر بطونهم .
 ولكن ماذا يملك أبوه إزاء بنادقهم ؟
 ماذا استطاع أن يفعل زوج خالته .. وهو مقبل عليهم لنجدتهم .. إنه
 لم يستطع حتى الوصول إليهم .
 لقد أرداه الكلاب بطلقة .. ثم بصقوا عليه ..
 لم يُجدهم وجوده نفعاً .. ولا استطاع هو أن يحمى نفسه .
 ولو كان أبوه موجوداً .. لضاع هو الآخر .. ولكن الله أرسله متأخراً
 وإلا لكانت أمه تقف فى الميدان مع بقية النساء وكانت جثته يطؤها البغاة .
 وضاع أخوه محمود .. لن يراه بعد ذلك .. الجسد المقوس .. والوجه
 المضرج بالدماء .. ولو كانت عايدة أخته فى البيت لضاعت هى الأخرى ولكنها
 ذهبت إلى زيارة جدتها فى المدينة .
 وواصل الأربعة السير .. وسقط الظلام .
 وهمست الأم وهى تربت ظهر الصغيرة التى غلبها النوم .
 — أخشى أن نضل يا عبد السلام .
 — لا تخافى .. إننى أعرف الطريق جيداً .. طالما قطعت سائراً على الأقدام
 عندما كان يمرض الحصان وتعطل العربى .. ويرسلنى أبى إلى بيت جدى فى
 المدينة .
 وتهتدت أم عمار .. وعادت الدموع تنهمر من عينيها وهى تضم الصغيرة إليها
 وهمست فى أنات أليمة :
 — ابنى .. حبيبى .. كان يجب ألا أتركه .. كان يجب أن أبقى معه .
 وحاول عبد السلام أن يشد أزرها فقال وهو يطوى مواجعه :

— امشى يا فاطمة .. لا فائدة من هذا كله .. يجب أن نقاوم من أجل هذين الصغيرين .

وعلا صوت بكائها وهى تتمتم :

— يا حبيبتي يا أختى .. كانت تنتظر وليدها فى لطفة .. كانت تتمنى أن يكون ولدا .. ولكنهم مزقوه كما مزقوها .. يا حبيبتي يا زينب .

ونهرها عبد السلام والدموع تملأ مقلتيه :

— وبعدين .. امسكى نفسك .. وإلا أمسكوا هم بنا .

وصمت الأم برهة ثم عاودت التساؤل فى قلق بعد برهة :

— ترى ماذا جرى لابنتى عائدة ؟

— إنها لا شك فى أمان عند أُمى .

وواصل الجماعة السير .. حتى وصلوا إلى بيت الجدة فى المدينة .

ومرت السنون .. وطوى الزمن كل شئ فى ماضيهم .

وضاعت أشياء كثيرة .. وبهت معالمها .

إلا هذه الصورة المروعة .. المحفورة بطرف السونكى .. فى ذهن عمار .. وفى قلبه .

البيت ضاع .. والمزرعة ضاعت .. وعبير الزهر ونسمة الغروب .

لم يبق لهم شئ لم يأخذه اليهود .

أخذوه ببساطة .

لم يكن بين أبيه وبينهم ثأر .

لم يقتل أحدا منهم .. ولم يعذبه .. ولم يسلبه شيئا .

سمع بعد ذلك أن النازى عذبهم .. وقتل الملايين منهم .. وسلبهم كل شئ .

ولكن أباه بالقطع لم يكن نازيا .. لم يفعل شيئا من هذا .

ولا أحد من أقاربه .

لم يقتل أحد صغارهم كما قتلوا أخاه .

ولم يقرر أحد بطن نسائهم كما بقروا بطن خالته .. ولا مزق أحد أجنتهم في بطون أمهاتهم كما فعلوا بالجنين الصغير في بطنها .
لم يشعر أحد من أسرته أو قريته بالكراهية لهم من قبل .. حتى يفتكوا بهم بمثل هذا الحقد والكراهية .
أشياء كثيرة .. كانت تستعصى على فهمه خلال السنوات التي أعقبت المشهد الرهيب .

لماذا فعل بهم جيرانهم اليهود كل هذا ؟
لماذا فتكوا بهم وسلبوهم بيتهم وأرضهم .
إنها قطعاً لم تكن لهم من قبل .. فلم يحدث قط أن أحداً منهم ادعى على أبيه أنه أخذ منه أرضه .. أو سلب ماله .. أو قتل أحداً من ذويه .
لماذا إذن أقدموا على هذه الجريمة البشعة والمذبحة الرهيبة ؟
سؤال ظل حائراً في ذهنه .. لا يجد له إجابة .
والسؤال الذي حير أكثر من هذا هو :
لماذا نسلّم بما حدث كأنه أمر طبيعي ؟
إنه يعرف أن عالمه المتحضر الذي يعيش فيه .. يعاقب السارق .. ويعدم القاتل .

ولقد سرق بيته .. وقتل أهله .
ولكن أحداً لم يتحرك .
لا سارق .. عوقب .. ولا قاتل .. قُدم للقصاص .. بل ظل السارق يحتفظ بسرقة .. والقاتل .. يقهقه .. والعالم — فيما يبدو — يصفق إعجاباً به .
أترى الجريمة .. لم تكن بالبشاعة التي رآها ؟
أترى كان واهما في كل ما رأى ؟
أترى أخاه لم يقتل ولم يتقوس جسده وتغطي الدماء وجهه ؟
أترى خالته لم يقرر بطنها هي وغيرها من النساء ؟. أترى الدماء لم تسفك

والرقاب لم تقطع !؟
غير معقول أن يكون واحما ..
فكل شيء قد ضاع واضمحل .. إلا هذه الحقيقة المروعة .. إلا البطن
المبقور .. والدماء المراقبة .. والطرق المملأى بالجثث .
ولو كان واحما أو مخمورا ..
فلماذا كتبت الكتب عن هذه الأشياء المروعة !؟
إذن فالعالم هو الواهم المخمور ..
العالم .. المتحضر .. لا بد أن يكون في غيبوبة .. لأنه .. قد سلم للسارق
بسرقته .. وأمن على جريمة القتل التي ارتكبها القاتل .. وربت ظهر صاحبها في
رفق وحتى رأسه تقديرا وإعجابا .
وكل شيء يسير في هدوء .
في الأرض المسروقة يعيش السارق منعما ويرتع القاتل آمنا .
ومن وراء الأسلاك يدو المسروق وكأنه مجرم خطر .. يجب أن يبقى حبيس
المعسكرات والقضبان .
والسنون تمر ..
وكل شيء ضائع .. والظالم مستأسد .. والمظلوم عاجز .. والعالم سعيد .
وما باليد حيلة .. يا عمار .. لا حيلة سوى .. الجمعجة .. والكلام .
جمعجة بلا طحن .. وكلام بلا أفعال .. أو بأفعال تناقض الأقوال ..
وبين الظالم والمظلوم سد .. يفصل بين القادر والعاجز .. بين العمل
والقول ..
وكل شيء يمكن أن يتلع .. في القلب وفي الذهن .
إلا تلك الصورة البشعة المروعة ..
تتجدد مع الأيام ..
وكان غمو ذهنك .. ينميتها .. ويصقلها .. حتى تبدو لك دائما .. وكأنها

— ٣٣ —

- حقيقة اليوم .. فواقع الحاضر .
 وفتح عمار بعينه على صوت أمه يهتف به :
 — عمار ...
 — نعم ..
 — أستظل يقظا طوال الليل ؟
 — ليس في عيني نوم .
 — قم إلى فراشك وأنت تنام .. أم تريد أن تستيقظ متأخرا .. حتى تثير المزيد
 من غضب أبيك عليك .
 — سأقوم عندما يراودني النعاس .
 — قم يا بنى الله يهديك .. إلى ألقى الويل في إيقاظك في الصباح .
 ورد عمار متبرما :
 — حاضر سأقوم .
 — لقد طلبت من مى أن تضبط المنبه وتضعه بجوارك .
 ووصلت الأم إلى الشرفة .. ومدت يدها لتحسس رأسه في حنان قائلة :
 — لماذا صددت البنية .. عندما طلبت منك أن ترسمك .
 وأزاح عمار يده من فوق رأسه فقد كان يكره مظاهر الحنان ، وأجابها في
 لهجة مقتضبة :
 — لأنى لا أحب هذه السخافات .
 — والله ما فى أسخف منك .. إن البنية تحبك .
 — لا أريد من أحد أن يحبنى .
 — خسارة فى حبة عينك .
 ونهض عمار حتى ينهى الحديث متجها إلى فراشه قائلا فى تبرم :
 — تصبى على خير .
 — وأنت من أهله .
 (ابتسامة على شفثيه)

— ٣٤ —

وفي الصباح لم يحتج عمار إلى دقائق المنبه لتوقظه .. فلقد أيقظته طرقات صديقه يحيى على باب الشرفة الخلفى وخيل إليه في أول الأمر أن مى تدق باب الغرفة في محاولة لإيقاظه وأجاب وهو مغمض العينين :

— ما زال الوقت مبكرا .. لماذا توقظينى ؟

وأجاب يحيى ضاحكا :

— أنا يحيى يا عمار .

وقفز عمار من فراشه .. وفتح باب الشرفة فوجد يحيى قد صعد بضع الدرجات المؤدية إلى الحديقة ووقف ينظر إليه ضاحكا وهو يسأل :

— أما زلت نائما حتى الآن ؟

— كم الساعة ؟

— الساعة والنصف .

— ولماذا لا أنام حتى الآن .. ما الذى أيقظك أنت مبكرا .

— سأذهب إلى المعسكر .

— أى معسكر ؟

— معسكر التدريب .

— إذن فقد كنت تتكلم جادا .

— طبعا .

وهز عمار رأسه قائلا :

— عجيبة !

— وأى عجب فى ذلك ؟

وتتم عمار فى نوع من اليأس :

— لم أعود أن آخذ شيئا مأخذ الجد .. كله كلام .

— ماذا تعنى ؟

— أعنى .. أنى أسمع دائما أننا سنلقى اليهود فى البحر .. ولم أعرف حتى الآن

كيف .

— هذا موضوع تحتاج مناقشته إلى وقت .. ولا بد أن أذهب الآن .. لماذا لا تأتي معي ؟

— كيف ؟

— ارتد ثيابك وتعال معي .

— والحانوت .. وأبي .

— قل له إنك ذاهب للتدريب في معسكرات الفدائيين .

— أبي يريدني أن أفعل شيئا نافعا .

— وهل هناك أنفع من هذا ؟

— لا أظن أبي سيقنع به .. حتى يدخله في عداد الأعمال النافعة .

— حاول أن تقنعه .

— وأنا غير مقتنع ؟

— ولماذا أنت غير مقتنع ؟

— لأن ذهني مشوش .. وكل ما أراه وأسمعه .. يزيده اضطرابا وتشويشا .

— على أية حال سأذهب أنا .

— أنت حر يا يحيى .. لأنك أنهيت دراستك .. وليس لأحد وصاية

عليك .. وكل ما تفعله تقع عليك مسؤوليته .. أنت تعول نفسك .. ولكن أبي

ما زال يعولني .. وعلى أننا أن أعول الأسرة من بعده .. وهو يريدني أن أتعلم

الابتسام في وجه الزبائن .. إن هذه هي مهمتي الأولى .. في هذه الآونة .

— ولماذا لا تلتحق بعمل تعول به نفسك ؟

— أين ؟

— تعلم حرفة .

— من باب أولى أتعلم حرفة التجارة .. لأرث أبي .

— وهل تصلح أنت لذلك ؟

— ٣٦ —

— حتى الآن لا .. ولكن في المستقبل .. من يدري ؟
 — إن علينا أن نصنع المستقبل بأيدينا .. نحن شعب ضائع يا عمار .. شعب مسروق .. منهوب .. مظلوم .. شعب من اللاجئين .
 — وماذا تريد منا أن نصنع ؟
 — نتحول إلى شعب من المقاتلين .. هذه هي مهمتنا الأولى .. نمسك بالسلاح .. ونقاتل .

وأخرج عمار زفرة من صدره ثم تتم في صوت خفيض :
 — معك حق ..

— عندما تمسك السلاح ونقاتل .. سيوضع كل شيء في موضعه .. سيعرف العالم أننا شعب نقاتل من أجل أرضنا ووطننا وحريتنا .. لا جماعة من اللاجئين .. يسألون العالم حسنة .. وسنستقطب كل القوى الفلسطينية المختلفة بلا سبب .. وسنكشف الزعامات الزائفة .. بل وأكثر من هذا سنستقطب كل القوى العربية المختلفة .. المتناقضة .

وعاد عمار إلى شروده ثم قال وهو يهز رأسه في نوع من التشكك :
 — أنت متفائل يا يحيى .. متفائل جدا .. إن التناقض بين القوى العربية .. أكبر من أن يتغلب العمل الفدائي الفلسطيني عليه .. إن الوحدة في نظر كل نظام تختم تصفية النظام المضاد من أجل أن تتحقق وحدة حقيقية بلا متناقضات .
 — لن ندع ظلال اليأس تعتم طريقنا .. سنسير بكل ما نملك من قوة الإيمان ودفعة الأمل .

وصمت عمار برهة ثم تساءل :

— وماذا فعلت بعملك في المكتب الهندسي الذي تعمل به ؟
 — سألت كبير المهندسين أن يمنحني إجازة بدون مرتب .

— وكيف ستعيش بغير مرتب ؟

— ولماذا أريد المرتب ؟ .. في المعسكر لن يعجزوا عن منحنا وجبة الطعام ..

وثياب التدريب وسلاحه ..

— وماذا قلت لوالدتك ؟ ..

— قلت لها إننى ذاهب فى مهمة فى دمشق .

— ومتى ستعود ؟

— أعتقد أنى أستطيع العودة كل أسبوع .

— مر على فى كل مرة تأتى .

— طبعاً .. فلعلك تأتى معى ذات مرة .

— من يدرى .. ألا تأخذ فنجانا من الشاى ؟

— أزف الوقت .. كان يجب أن تمنحنى إياه منذ أن طرقت بابك .

— طويتنى بالكلام .. فسهوت عنه .

— سأتغدى معك فى المرة القادمة .. هذا أفضل من فنجان شاى .

— اتفقنا ..

وشد كل منهما على يد الآخر فى مودة .

وهبط يحيى من درج الشرفة عابرا الحديقة إلى الباب الخارجى .

ودق جرس المنبه فوضع عمار أصبعه عليه حتى يسكته .

وأسرع فى ارتداء ملابسه وتناول إفطاره .

لم يكن على استعداد لتلقى مزيد من اللوم من أبيه .

إن عليه أن يحاول استرضاءه .. فهو قبل كل شئ يحب ويحس له بالاحترام .

وهو من وجهة نظره على حق .. وإيمانه بالحديث الشريف الذى لا يفتأ

يردده .. (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه) يحتم عليه أن يتقن عملية

التجارة .. لأن هذا هو عمله .. فهو لم يفلح حتى الآن فى أداء غيره .. ولقد

وجد فيه بحكم الظروف التى لم توجد له بديلاً .. ومن أجل هذا يجب أن يكون

تاجراً شاطرًا .. يعرف كما قال أبوه .. كيف لا يترك الزبون يخرج بيده فارغة .

بكلمة حلوة .. وابتسامة عذبة .. هذا هو ما يجب عليه أن يتقنه .

الآن على الأقل .

وعندما يمسك السلاح .. إذا ما قدر له أن يمسكه .. يصبح عليه أن يتقن استعماله ..

وفي طريقه إلى الحانوت .. عادت كلمات يحيى تطرق مسامعه ..

عندما تملك السلاح وتقاتل .. سيوضع كل شيء في موضعه .

إلى أى مدى يصح هذا القول ؟

إلى أى مدى يصح .. مع الفلسطينيين المتنافرين ؟

وإلى أى مدى يصح مع العرب المتقاتلين ؟ ..

يقاتل بعضهم البعض الآخر .. ولا يقاتل العدو الحقيقي ..

خرج البعض في سوريا بالسلاح .. من أجل فض الوحدة ..

وتشاغلت جيوش العراق وسوريا .. بطي النظام وراء النظام .. وعمل

الانقلاب وراء الانقلاب .. والثورة في أعقاب الثورة .

والجيش المصري مشغول بحماية ثورة اليمن من الرجعية ..

والأردن والسعودية يجدان في مصر خطرا أكبر من خطر إسرائيل ..

والزعامة الفلسطينية ترتدى الكاكي وتهدد بإلقاء إسرائيل في البحر ..

كيف ؟ كيف ؟

وكل ما في ذهن عمار .. يبدو أوهاما في أوهام .

الحقيقة الوحيدة التي لا تهت هي الأرض التي سرقت والبيت الذي ضاع ،

وهي الجسد الصغير المقوس بوجهه المضرج بالدماء ،

هي المرأة المبقورة البطن .. يتدلى من جوفها الأحشاء والجنين .

والطفلة تمجو وسط الدماء .

والرجل صاحب السونكي يقهقه ويهتق ويقول :

« كلاب » .

٣ هل تحينه؟ ..

وقفت مى وسط الفصل أمام السبورة . وهى تشرح للتلامذة درس اليوم وقد كتبت على السبورة التاريخ ونوع الدرس (رسم من الذاكرة) ثم كتبت ارسم من الذاكرة صورة تاجر يبيع الأقمشة فى سوق القدس .

وكان خالد يجلس وسط التلاميذ يتطلع إلى ما تكتبه مى على السبورة .. ولم يتالك نفسه من أن يهتف ضاحكا :

— هل نرسم أى .. أم أخى عمار ؟

وضحك صبى يجلس بجواره وتساءل :

— وما الفرق يا خالد ؟

— الأول ضاحك . والثانى متجهم .

ورد الصبى فى حيرة :

— وهل تعرف كيف ترسم وجهها يضحك وآخر متجهما ؟

— سأحاول .

— أنا لا أعرف .

وتساءل صبى من آخر الفصل :

— هل نرسمه جالسا أم واقفا ؟

وتساءل آخر :

— هل يبيع لرجل أم امرأة ؟

وردت مى وهى ترفع أصبعها مهددة :

— لا أريد كثرة أسئلة .. ليرسم كل منكم ما يتصوره . وانهمك الصبية فى

الرسم ، وأخذت مى تمر بين الصفوف مبدية ملاحظاتها بين آونة وأخرى

— ٤٠ —

أو ممسكة بقلم أحدهم تساعده في رسم الخطوط الأولية للسوق .
ووقفت أمام خالد فوجدته قد كتب على الصفحة « محل الحاج خالد عبد
السلام » وترك الصفحة بيضاء دون أن يرسم شيئا .
وسألته مى فى غيظ :

— ما هذا ؟

وسألها بدوره فى دهشة :

— ألا يبدو ما أريد واضحا .. ألا تعرفين القراءة ؟

ورددت مى الكتابة قائلة :

— محل الحاج خالد عبد السلام .

بالضبط .

— وأين صاحب المحل ؟..

— ذهب إلى معسكرات الفدائيين .. أتخمين أن أرسمه لك هناك ؟

وبسرعة البرق أخذ يرسم على الورقة جنديا يحمل السلاح .

وقالت مى فى إصرار :

— لم أقل لك ارسم جنديا يحمل السلاح .. ولكنى قلت ارسم تاجرا يبيع

القماش .

ورد خالد فى ضيق :

— لا أعرف أن أرسم سوى هذا .. هذا أسهل كثيرا .

وعاد يرسم جنودا آخرين يحملون السلاح ، ونظرت إليه مى وهى تقول

منذرة :

— ستأخذ صفرا ..

وبعد برهة دق الجرس واندفع الصبية إلى الخارج يتواثبون ويتصايحون .

وخرجت مى تحمل كراسيتها متجهة إلى حجرة المدرسين ، وفى الممر التقت

بأميرة تسير بخطواتها القصيرة السريعة وقد انتصبت قامتها وتهدلت جدائلها

— ٤١ —

الذهبية على كتفها ، ولم تكد تراها حتى هتفت بها :

— مى .. كنت أبحث عنك .

وأجابت مى باسمه :

— خير ؟

— أخى كمال ينتظرنا بعربته فى الخارج !.. ويريدنا أن نذهب معا .

— إلى أين ؟

— إلى السوق ..

— لماذا ؟

— يريد أن يشتري قماشا من دكان عمك لبياضات الطقم الذى أحضره

للعيادة .

— وهل يحتاج لوساطة لدى عمى ؟

— قال إنه يريد أن تختارى له القماش على ذوقك .

— ذوق أنا ؟.

— هكذا ادعى .

— أخشى أن أخذه .

— لا أعتقد .. فدرجة الإعجاب بك قد زادت هذه الأيام حبتين .

وتساءلت مى فى حجل ودهشة :

— إعجاب بى أنا ؟. منذ متى ؟

— منذ أن رآك آخر مرة عندما كان يعود خالتك .. وسيرتك لا تترك

لسانه .

— عجيبة !

ووصلت الفتاتان إلى باب المدرسة ولحهما الدكتور كمال الذى كان يقف

بعربته على الرصيف المقابل للباب فهبط يلقاها محييا مى فى بشاشة ومودة .

— أهلا مى .. لعل لا أكون قد أزعجتك ..

— أبدا .

وفتح باب العربة بجواره ودعا مى إلى الركوب قائلا :

— تفضلى .

ولكن مى أسرع تفتح الباب الخلفى ودلفت إلى العربة بسرعة قائلة :

— سأجلس هنا ..

وجلست أميرة بجوار أخيها .

وانطلقت العربة إلى السوق .

وقال كمال يفتح باب الحديث :

— كيف حال خالتك ؟

— الحمد لله .

— كان يجب أن أعودها ثانية .. لولا أنى سافرت بعدها مباشرة .. ولكنى سأزورها فى أقرب فرصة .

— لا داعى لأن تتعب نفسك .. إنها الآن بخير .

ورد كمال مازحا :

— ألا تريد أن أزورك .. لن أكلفكم سوى فنجان القهوة .

— إنه بيتك تحضر وقتما تشاء .. إنى وأميرة .. كأخوات .

وردت أميرة مؤكدة :

— بل أفضل .. لم يكن أحد يسأل عنى طوال مدة دراستى فى القاهرة ..

سواك .. ولم يهون على أن أعود هنا لأدرس الإنجليزية هؤلاء القردة .. سوى أنى

سأكون معك فى مدرسة واحدة .

وقال كمال ضاحكا :

— لعل إغراء القاهرة لا يكون أقوى من مى .

وردت مى قائلة :

— إذا سنحت لها فرصة العمل معيدة فلن يفلح إى إغراء فى إبقائها .

وقال كمال :

— لا أظن شغلانة المعيدة وحدها هى التى تغريها بالقاهرة .. إن هناك سببا أقوى للإغراء .

وضحكت مى متسائلة :

— ما أخباره يا أميرة ؟

وأعاد السؤال أميرة من شرود استغرقت فيه وهزت رأسها مستفسرة :

— أخبار من ؟

وأجابت مى :

— رءوف ..

وأطلقت أميرة تنهيدة . ولم يبد أن رءوف كان بعيدا عن ذهنها الشارد فقد قالت ببساطة :

— إنه يدرس فى بعثة مدرعات فى تشيكوسلوفاكيا .

وقال كمال :

— لقد كتب إلى أنه سيزورنا بمجرد عودته من براغ .

وقالت مى :

— لعله يحضر الدبل معه .

وتنهدت أميرة ولم تجب ، وقالت مى :

— ربنا يحضره بالسلامة .. ويتم كل شئ على خير .

ووصلت العربة إلى السوق . ووقف كمال بها فى أحد المنعطفات .. ثم هبط الثلاثة يسرون إلى الدكان .

وفوجئ الحاج عبد السلام بمى ورفاقها يقبلون على الحانوت وهتف بهم مرحبا :

— أهلا وسهلا .. ما هذه المفاجأة الطيبة . تفضلوا ..

وحاول عمار أن يرسم ابتسامة على شفتيه ونظرت إليه مى فى إعجاب

— ٤٤ —

لم تستطع أن نخفيه وقالت تهمس به مازحة :
— أجل . هكذا أفضل .

وسرعان ما ضاع شبح الابتسامة .. وعاوده التجهم وهو يشد على يد الضيوف مرحبا .
وقالت أميرة :

— حضرنا لشراء بياضات لعيادة كمال .
ورد الحاج عبد السلام :

— مبروك يادكتور .. المحل كله تحت أمرك .. أنت رجل أمير .. لقد سألت الحاجة عنك عدة مرات .

ورد كمال : أنا مقصر في حقها .. ولكنني سأزورها في أقرب وقت ..
— إنها لا ترتاح إلى طبيب سواك .. إنها تعزك كابنها .
— وأنا أحس أنها غاما كأمي .. إنها سيدة كاملة .

ومد الحاج عبد السلام يده إلى رف وراءه ثم جذب بضعة أثواب .. وأخذ في عرضها على كمال قائلا :

— هذه بضعة أثواب وصلت إلينا من شركة المحلة .. عينات جديدة ممتازة .
وقال كمال ضاحكا :

— لقد فوضت مي في انتقاء القماش .. إلى أثق في ذوقها .
وأشارت مي إلى ثوب غلبت عليه الزرقة قائلا :
— يعجبني هذا .

وبسرعة قال كمال :

— انتبهنا .. أنا أيضا أعجبني ..

وتسائل عبد السلام :

— كم مترا تريد ؟

— طقم من كنبه وأربعة كراسي فوتيل .. كم مترا يحتاج ؟
وسرعان ما قطع الحاج عبد السلام القماش المطلوب .

وتساءل كمال وهو يخرج محفظة النقود عن الثمن فأجاب الرجل وهو يسلمه اللفافة ضاحكا :

— ثمنه وصل .

وشكره كمال وعاد يلح في معرفة الثمن قائلا :

— إذا لم أدفع الثمن فلن آخذ القماش .

— يا دكتور خيرك سابق .. إنك لست غريبا .. وعيادتك عيادتنا .

— إذا لم تأخذ منى الثمن فلن أجسر بعد ذلك على أن أعود إليك .

— إذن سأخذ منك ثمن الشراء بدون ربح ..

ودفع كمال النقود وسار نحو العربة تصحبه الفتاتان . وقالت أميرة :

— لم أتصور أنه بهذا الثمن !

ورد عليها كمال :

— وذوقه في منتهى الجمال .

وأجابت مى ضاحكة :

— إذن سأفتح مكتباً للديكور .

— سأكون أول زبائنك وسأطلب منك أن تتولى تأثيث بيتى .

وردت مى مازحة :

— عندما يستقر رأيك على العروس . أنا تحت أمرك .

ونظر إليها كمال فى إعجاب وهو يفتح باب العربة :

— لقد استقر رأيى عليها .. فعلا ..

وأحست مى بالارتباك من نظراته ومن حديثه ولكنها حاولت أن تتجاهل

ما قد يكون عناءه بقوله ولو على سبيل المزاح وقالت تجاربه فى مزاحه :

— مبروك — أنا فى خدمتك فى أى وقت .. سأفتح مكتب الديكور من

أجلك .

واتجهت العربة إلى بيت مى ..

وأشاعت الجملة التى ألقاها كمال بين المزاح والجد جوا من الصمت ترك
كلا منهما مغرقا فى التفكير .. بحيث بدت الجملة وكأنها لم تكن مجرد غزل .. بل
عرضا لزواج .

ولم ينته اليوم .. حتى تحولت فعلا .. إلى هذا .
وقفت العربة أمام البيت وهبطت مى وحاولت أن تحطم إطار الحياء الذى
وضعتها فيه كلمات كمال التى نمت عن إعجاب يتجاوز مجرد الغزل العابر
وقالت مازحة :

— أستطيع المغامرة بدعوتكما إلى الغداء ؟

ورد كمال :

— لو كنت جادة فسأدخل فوراً .

— ألا تتأكد أولاً مما لدينا من طعام .. فقد يكون ما لديكم أفضل .

— ليس الطعام هو المهم .. وإذا لم تقبلى المغامرة بدعوتنا .. فسأدعوك أنا ..

رغم أنى لا أعرف ماذا يمكن أن تكون أسمى قد أعدت ..

— بل سأقبل المغامرة .. ولتقل خالتى ما تقول .. إن الضيوف المفاجئين

يفزعونها .. ولكنى واثقة أنها لن تعتبر كما ضيفين .. تفضلاً .. على ما قسم .

وقال كمال ضاحكاً :

— سأتى مرة أخرى .. عندما يكون الطعام من إعدادك أنت .. حتى تكونى

مسئولة عن المغامرة ..

وردت مى :

— لن تكون مغامرة إذن .. فسأستعد لها منبقاً .

وتساءل كمال :

— وأى شئ تحيدين .. من أنواع الطعام ؟؟

وردت أميرة :

— كل شئ ..

وعاد كمال يرمقها بنظراته المعجبة وهو يتمم قائلا :

— ميزة أخرى .. لم تخطر لي ببال ..

وقالت أميرة مؤكدة :

— إن مى طباحة ماهرة .

— إذن فلا داعى لأن تكلفتنا الآن فى دعوة غداء .. لا تتحمل هى

مسئوليتها . أنا مصر على أن أدعى على استعداد .

وقالت أميرة :

— أهو اختبار !!؟

وقال كمال مؤكدا :

— مى لا توضع موضع اختبار أبدا .. إنها فوق كل اختبار .

وأحسست مى أن الحديث يعود مرة أخرى ليلبس ثوب الجد .. وغلبها الحياء

وهى تستمع إلى إطرء كمال .. وتلعثمت فلم تعرف ما ترد به .. وقالت تحاول أن

تخرج الحديث عن حديثه لتعيده إلى لهجته المازحة :

— نصيحتى أن تقبلا الدعوة الآن .. وغدوة فى اليد .. خير من عشرة على

الشجر .. هيا تفضلا .

وقال كمال :

— لا أظن الآن ممكنا .. فلا بد أن أعود إلى العيادة أولا .

ووجهت مى الحديث إلى أميرة قائلة :

— إذن تعالى أنت يا أميرة .. هيا .

— ولكنى ..

وقاطعها كمال قائلا :

— انزلى أنت يا أميرة ..

— ولكن أمى تعرف أنى سأعود للغداء .. وقد تشغل على ..

— سأمر عليها وأخبرها أنك تتناولين الغداء مع مى ..

— ٤٨ —

- وهبطت أميرة من العربة .. وأشار كمال لهما مودعا :
- مع السلامة .. سأنتظر الدعوة .. إني مصر على تناول طعامك ..
وأجابت مى :
- أنا تحت أمرك فى أى يوم .. دع أميرة تخبرنى .. وسأعد لكما الغداء ..
مع السلامة .
- وطرقت مى الباب وأقبلت على خالتها بضيفتها ولقيتها الخالة مرحبة وإن بدا
عليها جزع المفاجأة لأنها لم تعد العدة لغداء ضيوف .
- وقالت مى تطمئنها :
- سنتغدى أى شىء .
- وردت الخالة فى لهجة لائمة :
- كان يجب أن تخبرينى لأستعد .
- وضحكت مى قائلة :
- ماذا كنت تقولين إذن لو دخل معنا الدكتور كمال !
- الدكتور كمال .. هل كان معكما ؟
- أجل . أوصلنا حتى الباب .
- ولماذا لم يدخل ؟
- خشى أن يفاجئك .
- يا عيب الشوم .. هذا بيته .
- وقالت أميرة :
- لقد وعد بالحضور للغداء فى أى يوم .. ومنتظر دعوة مى .. عندما تعد له
الطعام بنفسها .
- وقالت الخالة ضاحكة :
- إذا انتظر هذا .. فلن يأتى فى سسته .. قولى له إني سأعد له كبيبة .. يأكل
أصابعه وراءها .

— ٤٩ —

وتناولت أميرة ومى طعامهما مع الخالة .
وبعد الطعام .. استقرتا فى حجرة مى .. ووقفت أميرة أمام تخطيط لصورة
على لوحة موضوعة فوق حامل فى ركن الغرفة وتساءلت قائلة :
— ماذا ترسمين ؟

وهزت مى رأسها قائلة فى لهجة مستخفة :
— يعنى ..
وعادت أميرة تتأمل الخطوط التى تحدد الأنف والعينين .. قائلة :
— العينان تشبهان عيني ابن خالتك ولكن النصف الأسفل من الوجه لا يعبر
عنه ..

وضحكت مى قائلة :
— إلى أحاول أن أجعله يضحك ..
وقالت أميرة :
— ومن أجل هذا تبدو الخطوط غريبة .. إلى لم أضبطه مرة واحدة متلبسا
بالضحك ..

— كان هذا سبب معركة مع أبيه لأنه يطفش الزبائن .
— إنه جاد أكثر من اللازم . لقد حاولت بضع مرات أن ألفت نظره ..
ولكنه بدا دائما وكأنه لا يرانى .. هل هو يحب أحدا ؟
وهزت مى رأسها وأجابت باسمه :
— لا أظن ..

وصمت مى برهة ثم أردفت :
— كم تمنيت أن أعرف ماذا يدور فى رأسه .. كم تمنيت أن أجلس إليه
وأحدثه .

وتساءلت أميرة فى شىء من الدهشة :
— ولماذا لا تفعلين ؟

— ٥٠ —

- لأنه نفور .. يكره الحديث والنقاش .. وهو يحلم بأشياء كثيرة يختزنها في ذهنه .. ويكره أن يشاركه فيها أحد ..
- وقالت أميرة في استخفاف :
- غدا يحب .. ويتزوج .. ويخرج من كل هذه الأوهام ..
- وصمتت برهة ثم أردفت باسمه :
- هذا مصيرنا جميعا ..
- وسألته مى :
- ومتى سنفرح بك ؟
- يعنى !؟
- ألم يحدد رءوف موعدا ؟
- عندما تنتهى بعنته .
- ومتى تنتهى ؟
- المفروض فى نهاية العام .
- يعنى بعد بضعة أشهر .
- أجل .
- وسيحضر إلى هنا ؟
- المفروض هذا .
- وسيتم العقد . وتعودين معه إلى القاهرة ؟
- إن شاء الله .
- وإذا أمكنك العمل كمعيدة قبل هذا ؟
- سأذهب إلى القاهرة بالطبع ..
- وهل تعودين معه إلى هنا .. لتكتبا الكتاب ؟
- هنا .. أو هناك .. سيان .
- كنت أود أن أحضر فرحك .

— ٥١ —

- طبعا ستحضرينه .
- ولكن إذا تزوجت في القاهرة ؟
- فسأدعوك إلى هناك .
- يا ريت .. لقد تمنيت أن أرى القاهرة .
- سأدعوك على أية حال .. سواء تزوجت هنا أو هناك .
- وضمتها إليها في رفق وأردفت ضاحكة :
- سأكون في حاجة إليك لعمل شقتي .. أم تراك نسيت مكتب الديكور الذي تنوين فتحه ؟
- وتهدت مي قائلة :
- كلام .
- وصمتت أميرة برهة وهي ترمق مي .. ثم قالت لها فجأة :
- على فكرة .. يبدو أنك ستسبقيني إلى الزواج ..
- وتساءلت مي في دهشة :
- لماذا ؟
- لأن كمال يبدو في عجلة
- وشهقت مي قائلة :
- كمال ..
- أجل .. مالك تشهقين هكذا ؟
- أبدا .. ولكن .. ماذا حشر كمال في الموضوع ؟
- ظننتك أذكى من هذا .
- ماذا تقصدين ؟
- إن كمال يريد أن يتقدم إليك .
- وبدا الارتباك على وجه مي وتمتت قائلة :
- إلى أنا ..

— ٥٢ —

— أحقا لم تفهمى .. أم إنك تتخابئين على ؟
وتنهدت مى .. وبدا عليها الشرود ..
وأدهش أميرة ما بدا على وجهها من حيرة وقلق .. وسألها فى شىء من
الاستنكار :

— ماذا بك يا مى ؟ ..
— أبدا .
— ظننتك .. أدركت من نظرتة مدى إعجابه بك ..
— إنه إنسان رقيق ولطيف .
— ليس مجرد رقة ولطف .. إنه يميزك أنت بإحساس خاص .. لا أزعم أنه
وله .. ولكنه لاشك قدر من الحب والتقدير يجعله يختارك لكى تكونى شريكة
حياته ..

واستمر الوجوم يكسو ملامح مى وأردفت أميرة تقول :
— ظننتك فهمت كلامه .. عندما قال .. إن رأيه قد استقر على عروسه
فعلا ..

وتنهدت مى قائلة :
— خلته يمزح ..

— أبدا .. لقد كان يتكلم جادا .. كان يحدثنى دائما عن إعجابه بك .. كان
يقول عنك إنك مخلوقة رائعة .. وأنه عندما يتخيل لنفسه زوجة .. لا يستطيع أن
يضع فى موضعها سواك .. وكان يقول دائما إنه عندما ينتهى من تدعيم
مركزه .. والإحساس بالقدرة على أن يكون أسرة وينشئ دارا .. فلن يتردد فى
التقدم إليك . ومنذ أيام سألتى .. كيف يتقدم إليك .. وطلب منى أن أمهد له
الطريق ..

وصمتت برهة ترقب مى فى وجومها ثم أردفت :
— ويبدو أنه قد تعجل فحاول أن يمهد الطريق لنفسه .. فى مشوار اليوم ..

لقد خيل إلى أنك فهمت .

وتمتت مى قائلة :

— أحسست بما يعنى .. ولكنى ظننته مازحا .

ونظرت أميرة إليها فى شىء من الحيرة وتساءلت :

— والآن وقد عرفت أنه لم يكن يمزح .. فما رأيك ؟

وردت مى قائلة فى حيرة :

— رأى .. رأى ..

وصمتت برهة ثم أردفت :

— رأى .. أن كمال .. مخلوق ممتاز .. ولكنى لم أفكر مطلقا فى الزواج .

— لم تفكرى .. لأنه لم تسنح لك الفرصة الملائمة ولكن الآن .. يمكنك أن

تفكرى ..

وهزت مى رأسها قائلة :

— لا أستطيع .

— لماذا ؟

— لا أتصور أنى أستطيع أن أتزوج أحدا ..

— كيف ؟

— إلى أستطيع أن أتصور أخاك كمال .. صديقا .. أو قريبا أو زميلا .. ولكن

زوجا .. لا .

ونظرت إليها أميرة نظرة فاحصة وتساءلت هامسة :

— أنت عجيبة يا مى .. هل هناك أحد فى ذهنك ؟..

وصمتت مى .. وبدأت الحيرة على أميرة .

ووقع بصرها على الخطوط فوق اللوحة .. وبدأ كأن الخطوط تلقى على

المشكلة الحيرة شعاعا من ضوء .. وهتفت أميرة متسائلة وهى تنظر إلى اللوحة :

— مى .. هل تحببته !!؟

٤

طريق لا بدليل له ..

هل تحببته !!؟

ألقت أميرة السؤال على مى .. ببساطة .. وانصرفت ..
ودعتها دون أن تنتظر منها ردا عليه .. وكأنها قد سلمت بأن الرد .. نعم .
أو كأن سؤالها لم يكن يحمل معنى السؤال بقدر ما يحمل معنى إثبات حقيقة
ولإقرار واقع .

لم يكن هل تحببته ؟ .. بل كان .. أنت تحببته .
وعندما خلت مى لنفسها بدا أن عليها .. أن تواجه نفسها لأول
مرة .. فى مسألة لم تشعر قط .. أنها تستحق المواجهة .. أو المناقشة .. بل هى
جزء من كيائها .. ومشاعرها .. تسلم بها وتخضع لتأثيراتها .. بغير جدل ..
ولا مقاومة .

هل تحبه ؟

هل تحبين عمار يا مى !!؟

لأول مرة يوجه إليها أحد هذا السؤال ..
ولأول مرة تجد أن عليها أن تناقشه .. وتحجب عليه .. على الأقل فيما بينها
وبين نفسها .

إنه لم يعد شيئا باطنيا يمكن أن تطويه .. وتستأثر به .. وتتعامل معه تعامللا
ذاتيا .. فى حرية مطلقة .. دون أن تحس أن عليها أن تقدم عنه جوابا لأحد .
جاء الوقت يا مى .. الذى يحتم عليك .. أن تسألى نفسك عنه .. عن
وجوده .. وعن قيمته .. بعد أن بدا عنصرا إيجابيا يمكن أن يؤثر فى تصرفاتك مع
الغير .. ويشكل بينهم وجودك .. ومستقبلك .

بات عليك أن ترفضى أشياء بسببه .
وأن تعترفى بالتالى أنه موجود .
وأن علامة ما تشدك وإياه .
بات عليك أن تواجهى أشياء قد تحرمك من حق ممارستها بالطريقة الطبيعية
التلقائية التى تمارسها بها .
وأن تدافعى عنه ضد هذه الأشياء التى تهدد بالحرمان منه .
ومن أجل هذا .. ومن قبل هذا ..
بات عليك أن تناقشيه هو ذاته .. وجوده .. وقدره .. وأثره .
هل تحبين عمارا يا مى ؟ ..
وشعرت مى أن القضية أكبر من أن يجاب عنها ببساطة .. بلا .. أو نعم ..
إنها شئ أكبر من نوع من الطعام .. تحبه أو لا تحبه .. أو رداء يعجبها
أو لا يعجبها .
إنها تشعر أن كل ما يחדش عمارا .. يחדش شيئا فى باطنها .. يחדش قلبها ..
تشعر أنه عزيز .. عزيز .. جميل .. جميل .
هو النموذج .. وغيره .. مهما بلغ من الكمال .. صورة .. بها شئ غير
متقن .. شئ يجب أن يعدل .. ويسوى .. لكى يصل إلى مستوى عمار .
حتى تجهمه .. تحبه وتأنس له . وتكره أن يلومه عليه أحد .. حتى ولو كان
أبوه .
حاجاته .. أمتعته .. ملابسه .. آراؤه .. أحلامه المختبئة فى رأسه .. كلها
ملكها .. هى مسئولة عنها .. وعن حفظها .. ووقايتها ..
وهى تمارس مشاعرها له .. ممارسة علنية صريحة .. لا تجد فيها عيبا
ولا خطيئة .. ولا تشعر أن عليها أن تقدم إجابة عنها .. لماذا تفعله .. وبأى
حق ؟
حتى أصبح عليها أن تجيب على السؤال ..

هل تخمين عمارا ؟
وأضحى عليها أن تتخذ .. بطريقة .. حاسمة .. أين موقعه من نفسها ..
ولم تعد المناقشة تقتصر على الحساب الداخلى بل أضحى عليها أن تقدم عنها
حسابا علنيا ..

بدأ بسؤال أميرة :

هل تخمينه ؟

وانصرفت أميرة .. دون أن تنتظر الجواب ..
ولكن مخلوقا آخر .. بدا وكأنه ينتظر الجواب ..
دون أن يلقي السؤال ..
هذا المخلوق .. هو خالتك .. أم عمار .
أقبلت فاطمة فى خطاها المتناقلة .. وابتسامتها الرقيقة ونبراتها الهادئة
تتساءل ..

— لم تمكث أميرة كثيرا ؟ ..

وحاولت مى أن تنفض عن رأسها أفكارها وأجابت ببساطة :

— لديها مشاغل .

— لم يبد عليها الرضاء وهى تودعنى .. كأن شيئا يشغلها .

— ربما .

— هل تشاجرتما ؟

وردت مى فى دهشة :

— هل قالت لك هذا ؟

— مطلقا .. ولكنى فقط رأيتها مهمومة .

— ومن منا بلا هموم ؟ ..

— ماذا رأيتما حتى تتحدثا عن الهموم .. أى عبء تحمله .. هذه الطفلة ؟ ..

— إن خطيبتها سافر ..

— أين .. ؟

— إلى تشيكوسلوفاكيا .

— ماذا يفعل ؟

— إنه ضابط في الجيش المصرى .. فى بعثة مدرعات .

— ربنا يعيده إليها بالسلامة .. هل هذا هو ما ينقل عليها ؟

— يعنى 11؟

— وأنت .. ماذا بك ؟

— لا شىء .. هل شكوت أنا من شىء ؟

— أراك مهمومة مثلها .

— أبدا .. ليس لى شىء .

واقتربت أم عمار من مى فضمتها إلى صدرها فى حنان وقبلت جبينها قائلة :

— اسمعى يا مى .. لقد سمعت طرفا من حديثكما .. عن غير قصد .

وتنهدت مى ولم تعرف أى طرف من الحديث التقطته خالتها .. وتمنت

ألا تكون قد التقطت سؤالها « هل تحبينه » .. ولم تجد خيرا من أن تنتظر حتى .

تكمل حديثها وتقول ما عرفت .

وأردفت الخالة تقول :

— لقد أسعدنى أن أسمع رغبة أخيها فى خطبتك .. إنه مخلوق ممتاز .. منذ أن

رأيتة وقد دخل قلبى .. إنه إنسان طيب رقيق .. كريم .. سمعت عنه من كل

المعارف أنه طيب ماهر .. وأنهم يتوقعون له مستقبلا مرموقا .. وهو خير زوج

يمكن أن تأمل فيه فتاة !

وصمتت الخالة برهة .. كأنها تنتظر جوابا من مى .

ولم تعرف بماذا تجيب .. ولم تجد ما ترد به غير سؤال نم عن حيرتها .. أطلقتها

فى كثير من الدهشة :

— هل يتحتم على أن أتزوج ؟

ودهشت الخالة من ردها . وقالت ببساطة وهى تبتسم :
— الفتيات كلهن يتزوجن .. وحلم كل فتاة .. زوج طيب .. وبيت تستقر فيه .

— ولكنى أشعر أنى مستقرة فى بيتى .. وأن كل من حولى طيبون .
— بيت الفتاة .. هو بيت زوجها وأولادها .. هو الذى يدوم لها .. هذا البيت الذى نعيش فيه سيتفرق كل من به .. أنا وعمك .. سنقضى أيامنا ونرحل .. وكل سيذهب إلى حال سبيله .. وغير معقول أن تبقى وحدك فى الحياة ، لابد أن تختارى لك شريكا .. بمنحك الونس والبيت والأولاد .
وصمتت الخالة وهى ترقب مى فى حنان .. لقد عبرت السيدة عن وجهة نظرها ونظر جيلها فى الأمل المنشود .. فى الشريك الذى يمنح الدفء والحنان والأولاد ..

وتنهدت مى وتمتت متسائلة :
— إذا كان علينا ألا نبقى وحدنا فى الحياة .. فهل سهل علينا اختيار الشريك ؟

— ولم لا .. الناس الطيبون كثيرون .
— أهو مجرد إنسان طيب ؟ ..
— طيب وحنون .. و ..
— لا أتصور .. أنى أستطيع أن آلف .. إنسانا غريبا .. لأجعل منه شريكا لحياتى ..

— إن كمال إنسان طيب .. وستألفينه بالعشرة والاختلاط .
— لا أستطيع أبدا أن أتصوره زوجا ..
وصمتت الخالة برهة وهى تتأمل مى ثم وجهت سؤالها ببساطة وبراعة :
— من الذى يمكن أن تتصوره زوجا لك ؟
وصمتت مى .. وبدأ لها أن الحديث فى هذا الموضوع لابد أن يلف ويدور

وينتهى إلى هذا السؤال ..
وإن الإجابة عليه .. يمكن أن يحملها .. الرد على سؤال أميرة .. هل
تجبنه ..؟

أجل .. من الذى يمكن أن تتصوره زوجها ؟ من الذى يمكن أن تتصوره ..
شريك حياة .. وأليف بيت .. وأبا أولاد .. ورب أسرة .. من غير عمار ؟
من غيره .. يمكن أن يكون النموذج الرائع .. لكل هذا .

ولكن هل تستطيع الإجابة بهذا ..؟
وهل تهدف الخالة من السؤال إلى الحصول على هذا الرد ..؟
وماذا يكون رأيها فيه ..؟
ولكن .. هل الإجابة عليه يمكن أن تطلق بمثل هذه السهولة .. وهل هى
مسألتها وحدها ..؟

وهو .. ماذا يمكن أن يكون رده ..؟
وتنهدت مى .. ولم تجد الجرأة على الإجابة .
وأطرقت برأسها .
وضمتها الخالة إليها فى حنان زائد ثم همست بها :
— إلى أمك يا مى .. من هناك يمكن أن تفضى إليه بدخيلة نفسك سوى ؟
ولم تجب مى ..
أشياء كثيرة يمكن أن تستقر واضحة فى نفوسنا .. ولكنها تتعثر عندما تحاول
أن تجد طريقها إلى الشفاه .

تمت الخالة قائلة :
— هل تظنين أن عمارا .. يمكن أن يكون زوجا طيبا لك ؟
وهمست مى قائلة :
— وماذا يفيد ظنى ! ..

— هل تظنين أن عمارا يمكن أن يكون زوجا صالحا لأى فتاة ؟

— ٦٠ —

وردت مى فى لهجة قاطعة :

— بالطبع .. إن عمار سيد الناس .

— سيد الناس شىء .. وزوج صالح شىء آخر .. ربما كان سيد الناس فى نظرنا .. ولكنه مع ذلك لا يصلح لأن يكون زوجا ..
— ولماذا ..

— لأنه لا يريد أن يحمل مسئولية .. لأنه شارد .. لأن وجهه كما يقول أبوه .. عكر ..

— لماذا تقولين عنه ذلك يا خالتى ؟

— إنه ابنى يا مى .. وليس هناك من يحبه فى هذه الدنيا .. كما أحبه .. ولكنه لن يكون أبدا زوجا صالحا لك .. بل لن يكون زوجا أبدا .. إنه نفور من الناس ..

— إنكم تظلمونه جميعا .. إنه يحمل هموم جيله الضائع .. جيله اللاجئ ..
يا خالتى ..

— ولكنه يعيش حياة مستقرة .. ولقد استطاع أبوه أن يستعيد مركزه من جديد .. وأن يكتسب ثقة التجار والناس .. ومتجره يسير من حسن إلى أحسن .

— ليس مركز أبيه وتجارته هى التى تشغله .. ولكن مركز بلده ومصيبة وطنه هى التى تملأ ذهنه ..

— وهل يمكن أن يقيم لك بيتا ويكون لك أسرة .. بهذا الضياع الذى هو فيه .. بل قبل كل هذا .. هل يريد هو الزواج .. وهل يجبك ؟
سؤال جديد يقفز إليك يا مى .

لم تحاولى من قبل أن تضعيه موضع النقاش ؟ ..

هل تحبينه يا مى !!؟

لم يصعب عليك الرد على هذا السؤال .. فقد كان الرد عليه أكثر من أجل .

ولكن هل يجبك !!؟

كيف تكون الإجابة ..

هل يدري أحد ؟ ..

حتى هو نفسه .. لا يستطيع أن يجيب ..

إنه قد لا يعرف .. ما هو الحب .. إنه يأخذ كل ما حوله ومن حوله .. قضية

مسلم بها .

هل يريد الزواج ...؟

قطعا لا ..

إنه لا يريد .. أى شيء .. وأبعد ما يمكن أن يكون عن ذهنه .. مسألة

الزواج ..

ونظرت إليها خالتها تنتظر الإجابة .

وردت مى وهى تهز رأسها فى حيرة :

— لست أعرف عنه أكثر مما تعرفين يا خالتى .

وأطلقت الخالة زفرة حارة من صدرها .. وعادت تضم مى إليها وقالت فى

حنان :

— أنت ابنتى يا مى .. وعمار ابنى .. ولا أكتملك القول إلى أحسست

بالسعادة وأنا أستمع إلى حديث أميرة عن إعجاب الدكتور كمال بك .. ورغبته

فى الزواج منك .. فأنا أحس له أحساسا طيبا . وإحساسى للناس لا يخطئ ..

وعندما أزنه بكل الموازين أجد كفته ترجح .. إنه كريم وطيب وناجح ..

ويستطيع أن يهبى لك الحياة الطيبة الآمنة .. ويصعب على أن أصدده عنك .. وأن

أحرمك من فرصة لا يمنحنا القدر إياها كثيرا ..

وصمتت الخالة برهة ثم أردفت تقول :

— وأنا أحب عمارا .. أحبه أكثر مما قد تحببته .. ولكنى أعرف ما يصلح له

وما لا يصلح .. وأنا أعرف جيدا .. العناصر الطيبة المميزة للزوج المريح الصالح

— ٦٢ —

ولا أشعر أنه يمكن أن يكون زوجا مريحا مستقرا .. وأكره أن أضيع منك فرصة العمر .. من أجل وهم .. إن تحقق .. فلن يمنحك ما تنوهمين فيه من سعادة .. ولم تجب مى .. وبدا عليها الشرود .

وحاولت الحالة أن تستعيدها من شرودها بتساؤلها :

— ما رأيك يا مى ؟

— إلى أصدقك يا خالتي فى كل ما تقولين .. ولكن المشكلة أننا لا نملك أن نقيس الأشياء بمقاييس واحدة .. قد تكون مقاييسك أصدق .. ولكنها بالقطع ليست مقاييسى .. إلى أرى الأمور بطريقة أخرى .. ولا أستطيع أن أحكم عليها إلا بطريقتى ..

— أنت تصرين على رفض كمال إذن ؟

— لست أرفض كمالا .. بالذات .. ولكنى لا أطيق التفكير فى أى إنسان

كزوج .

— إلى متى !؟

— كيف أعلم .. إلى سعادة معكم يا خالتي .

— أدام الله سعادتك يا حبيبتي .. وهياً لك كل ما فيه الخير .

— لست أريد شيئا .. خيرا من أن أكون بينكم .

— وفعلك الله يا مى .. وهدى عمارا لكى يكون أهلا لك .

— إنه أهل لمن هو خير منى يا خالتي .

— أبدا .. إننى لا أجدر فى الدنيا .. من هو أصلح منك ..

ويكون الله قدرضى عنه .. لو هداه إلى رفقتك فى الحياة .. إلى سأضعف

دعواتى له .. من أجلك .. من أجل أن يكون هدية تستحقك .

وضمتها إليها فى حرارة ولم تستطع أن تمنع عينها من أن تنديا بعبرات ملؤها

الحب والحنان .

وفى المساء عندما أوت الحالة إلى مضجعها ، أسرت إلى الشيخ عبد السلام

بما حدث .

وتتم الرجل في كلمات مهمة :

— إنه لا يستحقها ..

ثم عاد وأردف وهو يغمض عينيه :

— مع ذلك لا خوف عليها .. فهو أبعد ما يكون تفكيراً في الزواج .
وفي اليوم التالي قبل صلاة الجمعة .. والسوق مزدحم بالناس وصوت القرآن
يعلو من المساجد .. كان الشيخ عبد السلام على وشك أن يغلق المحل من أجل
الصلاة ، وبدا يحى مقبلاً على الدكان وقد ارتدى ملابس التدريب الكاكية ..
وبعد أن حيا عماراً لقيه الشيخ عبد السلام في مودة قائلاً :

— يحى كيف حالك .. مضت مدة لم نرك .

— كنت أتدرب في معسكرات التدريب .

— وماذا فعلت بعملك ؟

— أخذت إجازة .

— وماذا تفعلون في المعسكر ؟

— نتدرب على استعمال الأسلحة .. وعلى حرب العصابات .

وتنهّد الشيخ عبد السلام وهو يقلّب البصر بين ابنه ويحيى .. والناس
يحتشدون في السوق .

وعاد يتساءل :

— هل بدأت العمل ؟

— إلى حد ما ..

وتتمّ الشيخ عبد السلام قائلاً :

— رعاكم الله .. كان يجب أن يبدأ هذا منذ مدة .. دائماً كنت أشعر أن

معسكرات التدريب خير لنا من معسكرات اللاجئين ..

وصمت برهة ثم وجه الحديث إلى ابنه قائلاً :

— ٦٤ —

- هيا بنا إلى المسجد .. لقد أوشك أن يؤذن للصلاة .
وبدا التردد على عمار فسأله أبوه :
— ألا تنوى الصلاة ؟
وجذبه يحبى من ذراعه قائلا :
— هيا يا عمار ..
وتقدمهما الشيخ عبد السلام .
وسار يحبى يتأبط ذراع عمار وسأله ضاحكا :
— ألا تريد أن تصلى ؟
وقال عمار فى سخرية :
— ولم لا .. هل كل ما أفعله فى حياتى مفيد ؟
— أعتبر الصلاة ضمن الأشياء غير المفيدة التى تفعلها فى حياتك ؟
— المفروض أن تكون الصلاة وسيلة للجوء إلى الله .. ودعوته ..
واستغفاره .. ولكنى أحس أن الصلة بينى وبين الله قد انقطعت .. وأنه ليس ثمة
ما يربط بينى وبينه .
— لماذا تقول هذا ؟
— هل تصدق أن الله موجود ؟
— طبعا ..
— وأنه يرعانا ؟ ..
— هل تشك فى هذا .
— برغم كل ما حدث لنا ؟
— لماذا تريد أن تحمل الله مسؤولية ما حدث لنا ؟ .
— من المسئول عنه ؟
— نحن .
— مسئولون .. عن تشريد أنفسنا .. وسرقة بيوتنا .

— ٦٥ —

- بل مسئولون عن عجزنا .. واستسلامنا .
 — وماذا نستطيع أن نفعل ؟
 — نفعل ما بدأنا فعلا صنعه .. لماذا لا نجيء معي حتى تقتنع .. إن أباك كما رأيت قد اغتبط بما نقوم به .. ولن يمانع في ذهابك .
 وهز عمار رأسه في تشكك وقال متبرما :
 — لست أرى في كل ما حولي شيئا يقنعني بأننا نسير نحو هدف واضح نحاول أن نحققه .. بل لست أرى حتى أننا مجمعون على هدف .
 وكان الاثنان قد اقتربا من المسجد . والناس قد اكتظوا خارجه .. ما بين راكم وساجد .. وجالس في خشوع ينصت إلى تلاوة القرآن .. وأذن للصلاة فاستقام الناس في الصفوف وعلا صوت الإمام (الله أكبر) .
 وجلس عمار ينصت إلى خطبة الجمعة شاردا ..
 كلام .. كلام .
 لقد بات يكره حركة لسانه في شفثيه .. من فرط ما ضاق بالكلام .. الذي لا معنى له .. ولا فائدة منه .
 وارتفع صوت الخطيب .. في لهجة منغمة .
 « الله أكبر كبيرا والحمد لله بكرة وأصيلا » .
 لماذا ..
 على كل ما نحن فيه .. نحمده كثيرا .
 وانتهت الصلاة .
 ونهض عمار ويحيى من بين المصلين وسارا متجهين إلى الساحة أسفل الربوة .. وقال يحيى ضاحكا :
 — إلى أمنحك شرف دعوتى إلى الغداء ..
 وابتسم عمار ابتسامة خفيفة ساخرة وأجاب :
 — تتكلم بغرور من دحر العدو .. وعاد إلى الوطن . (ابتسامة على شفثيه)

— ٦٦ —

- أنا فى الطريق .
- بماذا ؟
- برصاصتى .
- ماذا ستفعل رصاصتك وسط القذائف والقنابل .
- بالحاحها .. ستفعل الكثير .
- رصاصتك تزيد الوش فى أذنى .. أنا حائر يا يحيى .. أشعر بالضباب من حولى .. ولا أكاد أعرف طريقا لخطاى .. ليس فى ذهنى سوى الصورة القديمة القائمة .. وبعدها العجز واليأس .. وأصوات مختلطة متنافرة .. أشبه بصراخات المجانين ..
- تعال نأكل ونتحدث .
- هيا نأكل .. الشئ الوحيد الذى أفعله فى حياتى ذو جدوى .. هو الأكل والنوم .
- وأين سنأكل ؟
- أوفر مكان هو البيت .
- ألن نضايق أحدا ؟
- ستظاھر أُمى بالمضايقة .. لأن الأكل ليس كما يجب .. ولكنها ستطعمنا جيدا .. إن هوائتها إطعام الناس .
- ولكننى أنجّل من الأكل معهم .
- سنأكل وحدنا .. ساعد منضدة فى الحديقة تحت شجرة الليمون ..
- مارأبك ؟
- فكرة رائعة ..
- هيا بنا .
- وفى الحديقة الصغيرة تحت شجرة الليمون جلس الصديقان يتناولان الغداء .
- فرحت بهما الأم .. ونادت على مى لكى تعاونها فى إعداد الطعام للولدين ..

وأخذت مى تمارس المهمة فى جزل وانسراح فقد بدا عمار أحسن حالا .. وكان شبح ابتسامة يلوح على شفتيه بين آونة وأخرى .

كانت تعرف أن صحبة يحيى خير ما يبعث الهدوء إلى نفسه وكانت تأنس له لأن عمارا يحبه ويثق فيه .

وأقبلت مى بإحدى الصحف لتضعها على المائدة .. ويبدو أن يحيى قد أطلق نكتة فقد لمحت عمارا يتسم ..

ونظرت إلى يحيى قائلة :

— يبدو أنى سأستأجر ك .

— تحت أمرك بغير أجر .. ماذا أستطيع أن أؤديه .

— إلى أرسم صورة .

— ترى هل أنا وسيم إلى حد أن أستأجر كموديل ؟

— ليس بالضبط .

— ماذا إذن أستطيع أن أفعل فى الصورة ؟

— تجلس أمام عمار لتضحكه .

— ما شاء الله .. صرت أراجوز لعمار .. أية صورة هذه التى ترسمينها ..

وهتف عمار بمى زاجرا :

— ألم أقل لك دعك من هذا العبث .. وافعل شيئا يفيدك .

وقال يحيى ضاحكا :

— دعها ترسمك .. فقد تستشهد غدا .. وتصبح للصورة قيمة ..

وردت مى :

— بعد الشر عنه ..

وعاد يحيى إلى مزاحه قائلا :

— أى شراىا مى .. إنها فخر لا يتناول إليه .. الشىء الوحيد الذى يمكن أن

يخلده .

وغادرت مئ المكان .

انتهى الصديقان من تناول الطعام .. وجلسا فى استرخاء تحت شجرة الليمون .

وقال يحيى وهو يعبث بأحد فروع الشجرة .

— بدأنا الجد يا عمار .

— كيف ؟

— تسللنا عبر الحدود .. وهاجمنا الدوريات الإسرائيلية .. وبدأنا المناوشات مع المستعمرات. لقد خرجت فى بعض هذه العمليات .. وقتلت فى إحداها جنديا إسرائيليا .

والتفت إليه عمار مشدوها وسأله فى حدة :

— أتقول حقا ؟

— أجل ..

— وماذا كان شعورك ؟

— لم يكن هناك شعور معين .. خرجت الطلقة من البندقية .. وأحسست بضربة الدبشك فى كتفى .. ثم سمعت صرخته .. وأبصرته يسقط .. وبالليل لم أستطع النوم .. وحاولت أن أذكر نفسى بالآلاف الذين قتلوهم منا .. وقبيل الفجر .. غلبنى النوم . فلم أستيقظ إلا فى الضحى .

وقال عمار وكأنه يحدث نفسه :

— مريح .. أن يقتل المرء أحدهم .. فما زلت أشعر بلزوجة دم أخى وخالتى الذى جرى على الأرض التى كنت أرقد فوقها .. ولكن هل يحل موت أحدهم القضية .. هل يعيد إلينا وطننا .. إنها أعقد من ذلك يا يحيى .

— لست أفهمك .

— نحن نقتل واحدا .. وهم يقتلون عشرة .. إنهم قادرون بالسلاح .. هل تعلم أنهم بدأوا يهددون بالهجوم على سوريا .. والأردن .. لضرب قواعد

الفدائيين .

— دعهم يفعلوا .

— والنتيجة .

— سترد الصاع صاعين .

— من الذى سيرد ؟

— الجيوش العربية .

— أى جيوش .. هل تعتقد أن لدينا جيوشا جاهزة قادرة على مجابهة الجيش

الإسرائيلي ؟

— أجل ..

— أين هى ؟.. لقد قال عبد الناصر أن ليس لديه خطة جاهزة لاستعادة

فلسطين .. وأنه لن يقبل الدخول فى حرب .. قبل أن يأخذها عدتها .. ويحاول

بعض الحكام العرب دفعه إلى الحرب قبل أن يستعد لها .. وبعض الإذاعات

العربية تهاجمه لأنه يترك إسرائيل تمر فى شرم الشيخ .. وأنه يقف مستترا وراء

قوات الأمم المتحدة .

— ولماذا لا نوحّد صفوفنا .. ونجمع قواتنا فى مواجهة إسرائيل .

— المشكلة .. هى كيف نوحّد صفوفنا .. إن هناك خلافا جذريا فى

الصفوف .. بين القوى التقدمية والثورية .. وبين القوى التقليدية والرجعية ..

ولكى نواجه إسرائيل — يجب كما قلت أن نوحّد صفوفنا .. ولكى نوحّد

صفوفنا .. يجب أن نصفى المعركة بين القوتين ، حتى يمكن مجابهة إسرائيل قوة

واحدة .. والمسألة الآن .. فيما يبدو .. هى تأجيل المواجهة مع إسرائيل ..

حتى تصفى المعركة الداخلية وتوحّد الصفوف .

— وهل تظن أن تصفية المعارك الداخلية أمر سهل .. وهل ستنتظر إسرائيل

حتى توحّد الصفوف ..

— تلك هى المشكلة ..

— ٧٠ —

— أحد منا لا بد أن يتعجل المعركة .. فلعل ضربة إسرائيل توحد صفوفنا .
— أو تقضى علينا ..

— على أية حال يا عمار .. نحن لا نستطيع أن ننتظر حتى يوحد العرب
صفوفهم .. إن علينا أن نفعل شيئا .. علينا أن نملك السلاح ونضرب .. هذا
هو حقنا الطبيعي .. هذا هو طريقنا الوحيد .. وهو طريق لا بديل له .. نحن
لا نستطيع أن نجابه القوة .. إلا بالقوة .. لا يمكن لنا أن نجلس لنستجدي وطننا
وأرضنا .

.. لن نكون مواطنين شرفاء .. إذا ظللنا نعيش على حسنة وكالة الغوث ..
لقد فقدنا كل ما نملك .. ولم يعد لدينا ما نخشى عليه .. ليتوحد العرب ..
أو يفرقوا .. إن واجبنا هو أن نملك السلاح ونضرب .. حتى نموت .. أليس
ذلك حق وطننا علينا .

ونتم عمار في أسي :

— وحق الدين بقرت بطونهم .. وتقوست ظهورهم وهم يسبحون في بركة
من دمائهم اللزجة الساخنة .



البندقية والقضية

أوى عمار إلى مضجعه .. وب نفسه لهفة على بندقية يحملها على كتفه
ورصاصة يطلقها لينسمع من بعيد صرخة .. تريخ ذهنه المكدود ..
قتل واحد .. لن يحل القضية .

ولكنه على الأقل سيمنحه إحساسا بالراحة والأمل .. لم يعد قومه .. يمثلون
وحدهم .. دور القتلى .. ولكن بعضهم يستطيع أن يقتل ..
ولم يعد العدو .. يقف وحده .. في موقف الجبار .. ليحتكر .. أدوار ..
القتلة .

إن بعضا منه .. يمكن أن .. يصرخ ويسقط .. ويتلوى على الأرض .. ويموت .
فكرة مريحة ..

وقبل أن يقفل عينيه سمع صوت أمه يهتف به :
— عمار .

— نعم .

ونفض من فراشه ليجد أمه تقبل عليه متسائلة :
— أئمت يا عمار ؟

— ليس بعد .

— كنت أريد أن أحدثك .

— خير .

وجلس الأم على طرف الفراش ووضعت يدها على كتفه برفق وأردفت
قائلة :

— كنت أريد أن أحدثك في أمر يقلقني .

— يقلقلك أنت ؟

— أجل ..

— هل لى به دخل ؟

— إنه أمرك أنت يا عمار .

ومرت فترة صمت .. وأنصت خلالها عمار فى غير اكتر اثار لعله يسمع شيئا عن هذا الأمر الذى يقلق أمه والذى جاءت تسر به إليه والليل قد أوشك على الانتصاف .

وخيل إليه أن الأمر لا يعدو شكوى من أبيه ، فقال محاولا أن ينهى الموضوع :

— هل أشتكى أبى من شيء ؟

وهزت أمه رأسها تنفى ظنونه ثم أردفت مؤكدة :

— إنه أمر لا يعرف أبوك عنه شيئا .

— قولى إذن وخلصينى .

— كنت أريد .. أن أفرح بك .

وتساءل عمار فى دهشة وسخرية :

— تفرحين بى .. كيف .

— إنى أريد أن أزوجه بنت الحلال .

— ما هذا الذى تقولينه ؟ أهذا هو الأمر الذى يقلقلك .. والذى لا تستطيعين

الانتظار عليه حتى الصباح .. أرجوك يا أمى .. اذهبنى واستريحى .

— اصبر علىّ يا عمار .. أنت لم تعد صغيرا .. وأنا قد كبرت .. وإذا عشت

اليوم .. فلن أعيس غدا .. كم تمنيت أن أرى لك زوجة ترعاك وأولاد يحيطون بك .

وشرد ذهن عمار برهة ..

زوجة .. وأولاد ..

— ٧٣ —

ومزيد من المشردين .. واللاجئين .. والضائعين في الأرض .

لماذا !!؟

ورفع عينيه إلى وجه أمه الطيب ثم تنهد قائلاً :

— اذهبي يا أماه ونامي .. لا داعي لهذا الكلام الذي لا فائدة منه ..

ولم يبد على أمه أنها تنصت إليه بل كانت تسبح في أمانيتها الجميلة .. زوجة
عمار .. وأولاده يملأون البيت .

وفجأة سألته ببساطة :

— ما رأيك في مي ؟

وسألها في دهشة :

— مي ؟

— أجل ..

— وما المناسبة ؟

— إلى لا أجد خيراً منها ..

وعاد عمار يتساءل في غيظ :

— خيراً منها في ماذا ؟

— في الموضوع الذي نتحدث عنه .

ورد عمار في لهجة متبرمة :

— أرجوك يا أماه .. ابجشي لك عن شيء آخر يشغلك عن هذه المسألة

السخيفة .

ولم تأبه الأم لقوله وعادت تقول ملحمة :

— والله لا أجد على ظهر الأرض من تصلح أن تكون زوجة لك خيراً منها .

— قلت لك إلى لا أفكر أبداً في الزواج .. فاذهبي ونامي واستريحى ..

ودعى الفتاة وشأنها .

— ولكنها أيضاً لا بد أن تتزوج .

— ٧٤ —

- من قال لك .. هل شكت إليك .. لماذا تشغلي نفسك بزواج الناس .
- لقد تقدم إليها من يريد أن يخطبها .
- ورفع عمار رأسه متسائلا في شيء من الدهشة :
- يخطب مي .
- أجل ..
- من هو ؟
- الدكتور كمال .
- وازدادت دهشة عمار وتساءل :
- الدكتور كمال خطبها .. متى ؟
- اليوم .
- وماذا قلت له ؟
- لم أقل له شيئا .. لأنه لم يتقدم إليّ أنا .
- إذن كيف عرفت .
- من أخته .
- وماذا قالت له مي ؟
- قالت إنها لا تفكر في الزواج .
- وصمت عمار برهة ثم تتم قائلا كأنما يحدث نفسه :
- عاقلة ..
- ونظرت إليه الأم في دهشة وقالت مستنكرة :
- ما هذا الذي تقوله ؟
- أقول إنها عاقلة .. لأنها لا تفكر في الزواج .
- وعادت الأم تحديق فيه .. كأنه حيوان غريب وقالت له في غيظ :
- لقد قالت للأميرة هكذا .. حتى تصدها .
- .. أيضا عاقلة ..

واستطردت الأم تقول :

— وأرادت أن تصدها .. لأنها تريد مخلوقا آخر ..

ثم صمتت برهة وأردفت وهى تنهد :

— تريدك أنت .

والتفت عمار إليها وقد فغرفاه وهتف :

— أنا ؟ .. هى قالت لك هذا ؟

— أجل ..

— مجنونة ولا شك !!

— مجنونة لأنها تحبك وتريد أن تتزوجك .

— مجنونة لأنها تقول ذلك .

— هى لم تقل يا غبى .. وإنما أحسست به منها .

وهز عمار رأسه فى ملل وقال محاولا إنهاء المناقشة .

— اسمعى يا أماه .. اذهبنى ونامى واستريحى .. ولا تبغلى فكرك بمثل هذه الأمور السخيفة .. إن الزواج آخر شىء يخطر لى ببال .. ولست أظننى أصلح لأن أكون زوجا .. ولا رب أسرة .. ولا أب أولاد .

وتمتمت الأم قائلة :

— لقد قلت لى هذا .. فلم تقتنع ..

واستطرد عمار يتمم كأنما يحدث نفسه :

— نحن شعب ضائع .. ممزق .. مشرد .. شعب بلا وطن ولا أرض .. إذا كنا لا نجد مكانا على الأرض .. فهل سنجد لأولادنا مكانا ؟ ماذا يمكن أن نمنحهم ؟ .. الضياع ؟؟؟

ولم يبد على الأم أنها كانت تنصت إليه .. كانت مى ملء تفكيرها .. إذا كان هذا المخلوق الغريب .. الذى يبدو دائما كالحیوان النفور الشارد .. يأتى أن ينتظم فى العقد الإنسانى الطبیعى .. عقد الأسرة .. وإذا كان يرى فى الزواج

سخافة وفي الحب جنونا .. فما ذنب المسكينة تربط نفسها به وتشد نفسها إليه .. إلى الشرود والنفور والضياح .

وقالت الأم تجيب على أفكارها أكثر مما تجيب على حديث ابنها :
— خير لها أن تضع عقلها في رأسها .. لقد قلت لها إن هذا الولد لا ينفع زوجها لأحد .. وأن كمال .. إنسان طيب وكريم .. وإنه خير من يشاركها الحياة .. ويهيئ لها الأسرة والأولاد .. ولكنها لم تفتنع .. لأنها ترى فيك خير الناس .. وصمتت برهة تتأمل ابنها ثم أردفت وهي تنهد قائلة :
— مغفلة !!

ولم يستطع عمار أن يمنع شبح ابتسامة تلوح على شفتيه .. وقال مؤكدا :
— بالضبط .

— سأحاول إقناعها مرة أخرى .
ومد عمار ذراعيه فأحاط أمه برفق وقال لها في هدوء كأنما يحدث طفلة عبيدة :

— لماذا تشغلين نفسك بكل هذا .. لماذا لا تدعين الناس يفكرون لأنفسهم .. يتزوجون .. أو لا يتزوجون .. هذا شأنهم .. نحن لم نعد صغارا يا أماه ؟

وضمته إليها في حنان وتمتمت قائلة وهي تغادر الغرفة :
— ستظلون في نظري صغارا — وسأظل أشغل نفسي بكم حتى أموت .. وتركت الأم الغرفة ، وعاد عمار يسترخي في فراشه .. ومررت مى برأسه مرور الطيف ..

وسألت نفسه في استخفاف :

لماذا تحبه .. هذه الحمقاء ..

إنه يحاول دائما أن يكون صارما معها ..

وهي أيضا كانت معه جادة .. كان تصرفها معه دائما .. عاقلا في حدود

العلاقة الطبيعية التي تضمهما .. كأخوات ..
 إن رقتها معه .. رقة طبيعية ..
 وحتى هذه الرقة كان يرفضها منها .
 لم تبد معه أبداً أى تصرف أحمق مما يمكن أن يفعله أولئك الذين يحبون ..
 ومع ذلك يبدو أنها تخفى في صدرها أشياء حمقاء .. أو لعل هذه الأشياء من
 تصورات أمه .. لكى تضم كليهما .. في التبات والنبات .. لينجبا لها .. صبيانا
 وبنات .. ويحققا ما في نفسها من آماني الأمهات .
 ونفض عن رأسه الخواطر السخيفة .. واستسلم للنوم .
 وأصبح الصباح .. ليعاود عمار سيرته في الحياة .. وسط ضباب اليأس الذى
 يلف نفسه .. ويعتم قلبه .
 ووسط طريق الضباب .. كانت تلوح له بارقة تبدو كسنا البرق .. في
 انطلاقة رصاصة .. أو انفجار قذيفة .
 وعاد من الحانوت يومًا قبل الغروب ليجد أخاه خالد .. يقبل عليه من الشرفة
 باكيا .. وهو يقول :
 — مى عاقتنى اليوم .
 — كيف ؟
 — أوقفتنى ووجهى للحائط طوال الدرس .
 — لا بد أنك فعلت شيئا سخيفا .
 — قالت لى أرسم شجرة زيتون فرسمت بندقية .
 — ولماذا لم ترسم شجرة الزيتون كما قالت لك ؟ ..
 — لأنى أستطيع أن أرسم البندقية جيدا ..
 — ولكن لا بد أن تتعلم أن ترسم أى شيء يكلفونك به .
 — وهل تستطيع أن ترسم شجرة الزيتون ؟
 — أجل أستطيع .

— وهل تستطيع أن تزسم بندقية ؟

— أجل .

— وهل تستطيع أن تضرب بالبندقية ؟

ولم يعرف عمار إلى أين يريد الصغير أن يقوده . ولكنه لم يملك إلا أن يجيب

قائلا :

— أستطيع أن أتعلم ..

— ولماذا لا تتعلم ؟ .. إن يحبى قد تعلم ضرب البندقية .. وقد سمعته يقول لك

إنه يضرب اليهود ..

واقترب الصغير منه ثم أردف هامسا :

— اسمع يا عمار .. أحضر بندقيتين .. واحدة لى وواحدة لك .. ودعنا

نذهب ونضرب اليهود مع يحبى .. ونستعيد بيتنا الذى أخذوه .. وأرضنا التى

سرقوها .. والتى لا تفتأ أُمى تتحدث عنها كل ساعة ..

وأشار خالد بأصبعه تجاه الشمس التى مالت للمغرب وعاد يقول :

— تقول إنها هناك .. وراء الأسلاك .. بها زيتون .. ويرتقال .. لماذا لا

نذهب ببندقيتين نضربهم ونستعيدنا ؟.

بندقية .. أو بندقيتان .. نضربهم .. ونستعيد الأرض .

هذا هو تفكير الصبى يا عمار .

وبمثل هذا لا يجب أن يفكر الكبار ..

إنها مسألة أعقد من طلقة بندقية ..

مسألة حشد هائل وتخطيط شامل .. لطاقة الملايين الذين يقطنون الأرض

الممتدة ما بين الخليج والمحيط .. والتى غرست إسرائيل فى قلبها .. لتمزقها ..

وتشلها .. وتستنزف قواها ..

ولكن الحشد أمنية .. والتخطيط حلم من أحلام الدجى .. والبندقية .. هى

الشيء الوحيد .. الذى يمكن أن تطبق عليه الكف .. فتخرج منه الرصاصة ..

— ٧٩ —

لتصيب من العدو مقتلا .. قد لا تعيد الأرض .. كما يتصور الصغير .
 ولكنها .. تضع الفلسطيني حيث يجب أن يكون ..
 مواطن .. يحارب من أجل أرضه .
 وليس لاجئا .. يستجدي حسنة ..
 تضعه في موضعه .. ولو جسدا مسجى ..
 أنت تعرف هذا يا عمار .. فلا تنكره ..
 لا تنهرب من الواقع .. وراء أمل سرائى .. وأمنية .. الله وحده أعلم .. بمن
 تتحقق .. وكيف تتحقق ..
 لقد قال لك يحيى .. ما قاله خالد .
 فأمسك البندقية .. وأطلقها ..
 وقبل أن يخطو إلى الداخل .. لمح شبعا يقبل نحو البيت .
 كان يبدو كيهيبي .. ولكنه ثقيل الخطى .. وئيد السير .. وخطى يحيى
 كانت وثبات .. وسيره عدوا .
 وانتظر حتى أقبل ..
 فإذا به يحيى نفسه .
 كان معفر الوجه .. ممزق الثياب .. شدت يده إلى عنقه برباط .. بدت به
 بقع حمراء .
 واندفع إليه عمار في لهفة هاتفا :
 — يحيى .. ما بك ؟
 وحاول يحيى أن يرسم ابتسامة على شفتيه .. وقال مازحا :
 — أبدا .. أخذنا علقه طيبة ..
 والتقط أنفاسه وهو يصعد الدرج قائلا :
 — وقلت لنفسى .. آتى إليك .. أغتسل وأبدل ثيابى فقد كرهت أن أعود
 هكذا حتى لا أزعج أُمى ..

— ٨٠ —

ووثب خالد أمام يحيى صائحا :
 — كنت أقول لعمار أن يحضر لنا بندقيتين .. لنذهب معك .. ونضرب
 اليهود .. ونستعيد بيتنا .
 وأطلق يحيى ضحكة قصيرة ساخرة من أنفه وقال :
 — بندقيتان ..
 وتحسس رأس الصغير بكفه وأردف يقول :
 — سأعطيك عشرا يا خالد .. وأرني شطارتك .
 وساق عمار يحيى إلى حجرته وأغلق الباب .
 وارتمى يحيى على الفراش مكدودا ..
 وساد الصمت برهة ..
 وتساءل عمار في صوت خافت :
 — ماذا حدث يا يحيى ؟
 ولم يجب يحيى ..
 كان يتكئ بمرفقيه على ركبتيه .. ويدفن وجهه في كفيه .. ورفع رأسه فإذا
 بعينيه حمرة الدموع ..
 وعاد عمار يقول في إلحاح :
 — ماذا حدث ؟
 وازدرد يحيى ريقه وابتلع معه عبرات تساقطت إلى الداخل .
 وعاد عمار يتساءل في دهشة واستنكار :
 — أتبكي يا يحيى ؟
 — أبكي من العجز يا عمار .. ضربونا .. كقطع من الأغنام ..
 — أين ؟
 — في الصلت .. وفي كل القرى المحيطة .. ضرب الناس الغزل .. الشيوخ
 والنساء والأطفال .. معركة غير متكافئة .. بين فلاحين .. لا يملكون غير

الفئوس .. وبين قوات اليهود المسلحة .. دبابات ومدافع .. وقذائف طائرات .. لم يكن بيننا مسلحون سوى مجموعة الفدائيين بالبنادق .. وقنابل اليد .. وبضع هاونات .. أخذ الناس بذنبنا .. إن كان ما نفعل ذنبا .. وقتلوا .. لأنهم آوونا .. وحاولنا أن ندافع عنهم .. ولكننا بدونا هزيلين أمام سيل الدبابات والمدافع والطائرات .. ولم نملك إلا أن نلقى أنفسنا بينهم .. نفعل كل ما نستطيع بطلقاتنا وقنابلنا .. ومات معظمنا .. مع من مات من أهالي البلدة ..

وصمت يحيى .. وعاد الاحمرار إلى عينيه .. وعاد إلى ازدراد ريقه .. وأردف بصوت مختنق :
— كم تمنيت أن أموت يا عمار .. ولكن حتى الموت يستعصى علينا إذا أصبح أمنية ..

وربت عمار كتف يحيى وهتف به :
— ماذا أصابك يا يحيى .. ظننتك أقوى من هذا ؟
وهز يحيى رأسه وأجاب في مرارة :

— العجز مرير يا عمار .. لقد ذكرتك في وسط المعركة .. إذا جاز أن تسميها معركة .. وآمنت بقولك إن طلبة لا تحل المشكلة يجب أن يكون هناك تخطيط شامل للمعركة .. ليس من حقنا .. أن نضرب .. وأن نموت .. ونترك الناس عزلا في القرى .. ليلتقوا عنا ضربة الجزاء .. ويموتوا كالنعاج .. لماذا لم ننشئ مستعمرات محصنة ونزودهم فيها بالسلاح .. كما يفعل اليهود ؟
وعاد عمار يربت ظهر يحيى .

— لا تكثب يا يحيى .. لا بد لنا من التجارب .. إذا كانت التجربة قد علمتك الإيمان بقولي .. فقد علمتني أنا الإيمان بقولك .. يجب على كل منا أن يمسك بندقيته .. وكل شيء سيأتي بعد ذلك .. إن طريقنا لا تحدده الأمانى في الهواء أو الخطب على الورق .. وإنما تحدده الدماء في الأحراش .. والجثث فوق (ابتسامة على شفثيه)

رمال الصحارى ..

وأمسك بذراعه يجذبه نحو الحمام قائلا :

— قم واغتسل .. وسأكل لقمة معا .. ثم نذهب إلى داركم ..

وأجاب يضحى وهو يسير في خطى متثاقلة :

— لا بد أن أعود ..

— استرح ليلتك وسأعود معك غدا .

وتوقف يضحى واستدار إليه قائلا في مرارة :

— ليس الآن يا عمار .

— لماذا ؟

— سأحذك عندما يندمل جرحنا .

— إنه جرحى أنا يا يضحى .. كان يجب أن أذهب معك من قبل .. كان يجب

أن أكون أحد الذين استشهدوا .. أو أحد الذين جرحوا .. لماذا تعتبر الموت

أمنيتك وحدك !!؟

وقبل الفجر .. استيقظ عمار بعد نوم متقطع ملئ بأحلام مختلطة متناقضة .

حفلة عرس .. وزغاريد .. وموسيقى ..

وهو يسأل الناس عرس من هذا ؟ ..

وأمه تهتف به .. أسرع يا عمار .. الناس كلهم ينتظرونك .. والمأذون قد

حضر ..

ومى تلبس الطرحة .. وهو حافى القدمين .. وأصوات بنادق تطلق

الرصاص في الهواء ..

وانفجارات .. شديدة ..

وجو عاصف ملئ بالغبار ..

والناس تتساقط من حوله كالخراف ..

وهو يبحث عن بندقية ..

أين البندقية ..؟!

وصوت يحى يهتف به .. الحفنى يا عمار .. ودوى ودماء .. وزغاريد ..
أشبه بالصراخ .

ومى تهتف به .. وأحد اليهود يجذبها من شعرها .
وأنقذه ضوء الفجر والأذان ..

عندما يستيقظ أبوه سيذهب إليه ويخبره أنه قرر الرحيل مع يحيى ..
لن يعترض أبوه على ذهابه .. فهو قد أبدى من قبل رضاه عن الذين يحملون
السلاح .. وهو سيصبح واحدا منهم .. سيمسك البندقية .. ويطلق الرصاص ..
سيقتل .. حتى يستشهد ..

تحل المشكلة أو لا تحل .. يعود الوطن أو لا يعود .. هذه مسألة تأتى بعد
ذلك ..

هو لا يستطيع .. أن يخطط لها .. ولا يستطيع كذلك أن ينتظر الذين
يخططون حتى ينتهوا من تخطيطهم .

كل ما يملكه .. هو أن يمسك البندقية ويضرب حتى يموت ..
وفى صوت طلقاته إنذار للعدو .. بأنه موجود .. بأنه فلسطينى .. يحيا ...
ويصر على أن يعود .. وأنه سيظل يضرب رصاصته .. حتى يعود .. أو يموت ..
وفى دمائه التى تسيل .. ضوء كاشف للذين يتاجرون بالكلمات .. للقواد
أصحاب السيوف الخشبية .. الذين يلقون باليهود فى البحر كل يوم بألسنتهم .
وفى تكبيرة استشهاده فى الأدغال أو فوق الرمال .. دقات أجراس الخطر
لأولئك الذين يظنون أنفسهم وأموالهم بمنجاة من الخطر .. خطر
الصهيونية التى تحلم .. بالإمبراطورية الكبرى من النيل إلى الفرات ..
لن تحل بندقية القضية .

ولكن طلقتها لن تضيع سدى ..

إنها بالتأكيد .. ستحدد معالم الطريق ..

سترسمه .. بضمن فادح .. من الدماء العربية الزكية ..
 ستخططه .. بأجساد الشهداء ..
 لن تحمل القضية .. ولن تعيد الوطن السليب .. ولكنها قطعا .. ستزيل هذا
 الغيم .. والضباب ..
 ستجسد شعبا .. ضاعت معالمة ..
 ستهيد إليه قدره .. كشعب يناضل من أجل وجوده .. وبقائه وعودته إلى
 وطنه .. وستطلق سراحه من قضبان معسكرات اللاجئين ..
 أجل يا عمار .
 رغم كل يقينك بأنك لن تحمل القضية .. ورغم كل أحلامك .. بحشد
 هائل .. وتخطيط شامل .. يضع الأمة العربية في مواجهة إسرائيل .. لتبتلعها في
 يسر ..
 رغم كل هذا .. ستذهب مع يحيى وتحمل البندقية .. لتقتل مرة .. وتدمر
 أخرى .. وتهرب مرة .. وتموت أخرى ..
 بعد أن يؤدي أبوك صلاة الفجر ..
 ستذهب إليه لتخبره أنك ذاهب ..
 سيدهش بالطبع ليقظتك المبكرة ..
 وسيدش أكثر عندما يعلم أنك ذاهب لتحمل البندقية ..
 قد لا يرحب بذلك كثيرا .. ولكنه قطعا لن يمنعك .
 ولكن أمك .. ماذا ستفعل ؟
 — ستحزن بالطبع .. وقد تبكى .. ولكن عليها أن تتحمل .. أو .. لماذا
 لا يفعل كما فعل يحيى ؟
 لا داعى لأن يخبرها ..
 أجل سيتفق مع أبيه على أن ينبئها أنه ذاهب ليحضر صفقة أقمشة فهو لا يخشى
 إيلاهما .. ويكره دموعها .

— ٨٥ —

وأرھف سمعه علہ یسمع خطی أبیه یذهب للوضوء .
وانتهى الأذان .. ولم یسمع شیئا ..
غیر معقول أن یظل أبوه مستغرقا فی النوم بعد الأذان ..
وعاد ینصت .. فسمع لفظا ..
ثم سمع آهة مكتومة ..
وقفز من فراشه .. والآهة تتوالى .. وقد أضحت أكثر وضوحا ...
كان صوت أبیه ..
وتبع الآهة .. صوت أمه یهتف فی جزع :
— ما بك یا عبد السلام ؟
— ساقی یا فاطمة ..

آه فى الفجر

وقف عمار بباب حجرة أبيه ينظر إليه فى جزع وقد تلاحقت أنفاسه ..
ووجد أباه قد انحنى فى الفراش ممسكا ساقه اليسرى بكلتا يديه وقد بدت على
وجهه معالم ألم قاس يعتصره وقد وقفت أمه بجواره تتحسسه فى ارتياح وهى
مستمرة فى صياحها :

— ماذا بك يا عبد السلام .. أخبرنى ماذا حدث ؟.

وضغط الرجل على ضروسه يحاول كتم الآه وهوى يهتف بصوت خائر :
— ساقى يا فاطمة .. أشعر فيها بالآلام مبرحة .

وفى لحظة أقبلت مى تطل بوجهها تتساءل فى جزع ووراءها خالد ..
وأمسكت أم عمار ساق زوجها فى رفق وتساءلت :
— لعله برد أصابك .. هل أدلكها لك ؟

وهز الرجل رأسه وهو يحاول أن يكتم آهته .
وقالت مى وقد بدت عليها الحيرة والجزع :
— أسخن ماء تضعها فيه ؟

ولم يجب الرجل وقد أغمض عينيه من الألم .
واشدت الحيرة والجزع بهم . دون أن يملك أحدهم أن يخفف عن الرجل
آلامه .

وهتف عمار وهو يتجه إلى غرفته :

— ٨٧ —

— سأذهب لإحضار الدكتور كمال .

وردت مى :

— أجل .. اذهب وناده .. لا بد أنه سيجد لنا شيئاً . لا بد أنه يرد ..

وقالت الأم :

— أو لعله عرق الثَّسا .

وبدا أن الألم قد أخذ يهدأ بعض الشيء منذ استرخى عبد السلام واستلقى فى فراشه .

ولم يطل غياب عمار .

لم يغب أكثر من مسافة الطريق .. وعاد وبصحبه كمال .. وما زالت آثار النوم فى عينيه .

وأقبل على فراش الرجل الذى استلقى مغمض العينين وقد بدت عليه علامات الإعياء والضعف .

وأمسك كمال بيده فى رفق يحبس النبض قائلاً :

— صباح الخير يا حاج .. سلامتك ألف سلامة .

وتتم الحاج عبد السلام :

— الحمد لله .. الحمد لله .

وَأتم كمال الكشف ووضع على شفثيه ابتسامة حاول أن يطمئن بها الأسرة قائلاً :

— كل شيء سيصبح على ما يرام .. المهم هو الراحة ..

وأمسك كف الرجل فشده عليها فى ثقة وهو يقول :

— بسيطة بإذن الله يا حاج .. سنجعلك تلازم الفراش بعض الوقت ..

فلا تقلق .

وتتم الرجل متسائلا في إعياء :

— والألم يا دكتور ؟

— سيزول مع العلاج .. وسنستعمل الحقن من أجل تهدئته .. ولكن أهم شيء عندنا .. هو الرقاد ..

وغادر كمال الغرفة .. وهو يحاول جهده أن يشيع بين أفراد الأسرة .. جوا من الطمأنينة .

وخرج عمار في أعقابهِ يوصلهِ حتى الباب الخارجى ..

وفي الحديقة توقف الاثنان وقال كمال وهو يمد يده مودعا :

— الحالة تحتاج إلى عناية شديدة .. لقد حدثت جلطة في الساق .. إنى أعتقد أنها لن تحتاج إلى عملية .. ولكنها تحتاج إلى راحة تامة .. وسنحاول كل جهدنا أن نعالجها .. قبل أن تحدث في الساق أية مضاعفات .

— مضاعفات مثل ماذا ؟

— لا شيء .. لن يحدث شيء بإذن الله .. سنبدل كل جهدنا .. وليرعنا الله .. سأعود لأراه في الضحى وأحضر معى ما يلزم من أدوية .

وعاد عمار إلى الدأخل ، وكانت الشمس قد أخذت تتصاعد في الأفق متسللة بشعاعها الأحمر من خلال النوافذ .

وكان البيت يسوده صمت موحش إلا من وقع خطوات هنا أو تنهيدة هناك . وأبوه قد رقد مغمض العينين بادی الإعياء وجلست أمه بجواره ممسكة كفه تطبق عليها في رفق وهى ترفع عينها إلى سقف الحجرة متوسلة إلى الله أن يرفق بهم ، ومى تتشاغل بترتيب الغرفة .

وأحس الأب بوقع خطوات عمار ففتح عينيه وقال في صوت خافت :

— كنت على موعد مع الحاج رفاعى من أجل صفقة حرير . وكان على أن

أذهب إلى البنك لتسديد كمبيالات ... و .. وقاطعته الأم قائلة :

— لا ترهق نفسك بشيء يا عبد السلام .. المهم الآن راحتك ..

— هي أشياء لا تحمل التأجيل ..

ورد عمار :

— سأقوم بها أنا يا أبى .

ورد الأب :

— هناك أشياء لا بد أن أقوم بها بنفسى .

— سأحاول جهدى أن أفعلها ..

وصمت الأب برهة . ثم قال مستسلما :

— أحضر إلى المحفظة من فوق الرف .

وأحضر عمار المحفظة .. فأخرج الرجل منها بعض أوراق سلمها لعمار ،

وأخذ يصدر إليه تعليماته قائلا :

— افتح الخزانة وأخرج منها ظرف به الكمبيالات .

واستمر الرجل يصدر التعليمات اللازمة وقد وقف عمار ينصت شارد

الذهن .

كان المفروض أن يكون الآن فى طريقه إلى بيت يحيى للذهاب معه إلى

المعسكر ليحمل البندقية .. ثم ينطلق ليضرب اليهود ..

ولكن بات عليه الآن أن يحمل بدل البندقية .. الكمبيالات وينطلق بها إلى

البنك .

مهمة سخيفة يا عمار .. ولكنها قد أضحت مهمتك ..

من أجل أبىك الراقد فى عجز .. ومن أجل هذا البيت الذى يتحتم أن يبقى

مفتوحا .. وأن يقدم المأوى والطعام لأصحابه ..

مرة أخرى بات عليك أن تبقى فى الضباب الذى تعيش فيه بين الحانوت

والبيت .. والسوق والجامع ..

— ٩٠ —

- والتقى بى وهو فى طريقه إلى غرفته .
وتوقفت مى وقد بدت عبرات تترقرق فى عينيها ثم همست به متسائلة :
— ماذا قال لك كمال ؟
— قال إنه محتاج إلى العناية والراحة .
— غير هذا ؟
— قال إنه سيعود فى الضحى ومعه الأدوية .
وعادت مى تتساءل فى إلحاح :
— ماذا قال لك عن مرضه ؟
وصمت عمار وقد بدا عليه الحزن والشروء .
واستمرت مى فى تساؤلها :
— قل يا عمار ولا تخف على ..
— قال إن عنده جلطة فى الساق .
— ما هى الجلطة ؟
— انسداد فى الشرايين .
— أهى خطر على حياته ؟
— قال إنه يأمل ألا تحدث أية مضاعفات .
— مثل ماذا ؟
— لم يقل .
وازدردت مى ريقها ثم تساءلت فى صوت مرتجف النبرات :
— هل تظن أن من الخير أن نحضر طبيبا آخر ؟
— لماذا ؟
— قد يطمئننا أكثر .
— إنى أثق به .. ولو احتاج الأمر .. لطبيب آخر .. لكان هو أول من
يحضره ..

- ماذا قال لك أيضا ؟
- قال إنه يرجو ألا نحتاج إلى عملية ..
- عملية من أى نوع ؟
- لست أدرى .. ولكن وجهه كان يبعث على الطمأنينة .
- وتعالى صوت الأم ينادى مى . وقالت مى وهى تتجه إلى غرفة الأب :
- لا تخرج حتى أعود إليك .
- ووجدت مى خالتها تتجه إلى المطبخ فى خطى متثاقلة وهى تقول :
- ابقى مع عمك حتى أعد الشاى والإفطار .
- وأمسكت بها مى قائلة فى إصرار :
- بل استريحى أنت وسأعد أنا كل شىء .. لن أذهب اليوم إلى المدرسة ..
- فليس لدى سوى حصّة واحدة .. وسأرسل مع خالد طلب أجازة ..
- وأسرعت مى تعد الإفطار ثم اتجهت إلى حجرة عمار فإذا به يهم بالخروج
- وسأله :
- ألا تتناول الإفطار ؟
- لا أشعر بقابلية له .
- ولو فنجانا من الشاى ، إن الوقت ما زال مبكرا على فتح الحانوت .
- لا بد من أن أمر على يحيى قبل الذهاب إلى الحانوت فقد كنت على موعد معه ..
- فى هذا الوقت المبكر !!؟
- وصمت عمار برهة قبل أن يجيب فى مرارة :
- كان المفروض أن أذهب معه إلى المعسكر .
- اليوم ؟
- أجل .. كنت أوشك أن أستاذن أبى فى الذهاب بعد صلاة الفجر .. ولكن
- سبقتنى آهته التى شقت صمت الليل .. يجب أن أذهب الآن لأعذر ليحى .
- ورددت مى حديث عمار وقد بدا عليها الشرود :

— ٩٢ —

— كنت توشك أن تذهب إلى المعسكر !!؟

— اتفقت على هذا مع يحيى ليلة أمس .

وأحست مى بالمشاعر تصطبّخ في صدرها .. أى رجل يمكن أن يكون
عماراً بالبندقية .. يحملها في ثقة .. ويصوبها إلى صدر العدو .. ليصرعه ..
ويفتح الطريق إلى العودة .

قادر .. ورائع !!

وإذا ارتدت الرصاصة إلى صدره ١٩.

وأحست بشيء يتمزق في باطنها .

ومدت يدها بلا وعى .. تتحسس ذراعه .

لا .. لا ..

هذا شيء .. أبعد عن التصور .. وأكبر من قدرة الاحتمال .

ليس عمار .. الذى يردى .. أو يسقط .

يجب أن يظل شامخاً .. واقفاً ..

أتراها تحمد الله على أن لم يمكنه من الذهاب .

على أنه وضع العراقيل في سبيله .. حتى يحتفظ به لها !!

ولكن أيرضى عمار منها هذا ..

إنها لا تكون أهلاً له .. لو تخاذلت .. وضعفت .

وتمتت مى بصوت خافت متسائلة :

— أضايقك أنك لم تذهب .

وأجابها في يأس :

— لا أظن رصاصتى ستضيف إليهم كثيراً .. إنهم لن يتوقفوا بدونها .

— وددت لو استطعت الذهاب بذلك إلى الدكان :

— لا فائدة من الأماني .. سأذهب إلى يحيى .. ثم إلى الحانوت .. إذا احتجتم

إلى شيء فأرسلني إلى خالد .

وسار عمار إلى بيت يحيى .. لينبئه باختصار أن أباه متعب وأنه مضطر إلى البقاء في الحانوت .

ومرت الأيام والأب راقداً في فراشه .. لم تزد حالته سوءاً .. ولكن التقدم كان بطيئاً .

وواصل الدكتور كمال رعايته إياه كأنه أبوه .. رفض أن يأخذ أجراً .. وأحضر كل ما يستطيع من الدواء .. ولم تكن أخته أميرة تغادر مئ إلا إلى المدرسة أو البيت .

وازداد قرباً من الأسرة ..

أصبح الأب يحس بارتياح وطمأنينة في وجوده .. ورفض أية محاولة .. لإحضار طبيب آخر .. رغم ما أخبره بعض أصدقائه التجار من قدرتهم على إحضار إخصائيين من مصر أو من أى بلد أوروبى .. وما أبداه البعض الآخر من استعداد للسفر معه إلى أى بلد في الخارج .

وازداد كمال قرباً من الأم ..

وفي ذات مساء خلعت إلى مئ وقالت لها تجرّها إلى الحديث عنه :

— لا أعرف كيف أفى بصنيع كمال .

وردت مئ في حماس :

— حقيقة يا خالتي .. لم أر مخلوقاً أفضل منه .

— رقيق وطيب وحنون .. وآدمى ..

— وطبيب ماهر .. فقد صدق تشخيصه للعلة .. وكان علاجه لها

ناجحاً ..

— كلما عاشره المرء ازداد قرباً منه وتقديراً له .

— وهو على ذكائه ومهارته .. لم يصبه الغرور .

— إنه إنسان يحب .

وهزت مئ رأسها ببساطة وأمنت على قولها :

- معك حق .
- وصمتت الأم برهة تتأمل مى ثم استطردت تقول :
- وهو يحبك يا مى ..
- وبدألى أن الحديث قد انحرف عن مساره .. وارتبكت . ولكنها ما لبثت أن
- تمالكته وأجابت ببساطة :
- أنا أيضا أحبته كأخى .
- ووضعت الأم يدها على كتفها .. وبدت مصرة على أن تدفع بالحديث حيث
- تريد إذ قالت فى حذر :
- لم أقصد هذا .. إنه يحبك يا مى .. وهو إنسان يحب .. فلماذا تتركين
- فرصة العمر تضيق من يدك .
- وتنهدت مى قائلة :
- ظننت أننا قد انتهينا من هذا الأمر .
- ماذا تعنين بقولك انتهينا منه .
- قلت إلى لا أفكر فى الزواج .
- هذا كلام صيبانى يا مى .: لماذا لا تواجهين الواقع .. إنك لا بد
- ستزوجين .. وهذا الولد جمار لن يتزوج .. وعندما يقرر الزواج .. فليكن الله
- فى عون من سيوقعها القدر فى طريقه فلماذا تهمسكين به .
- وهل أستطيع التمسك به يا خالتى .. أنت تعرفين أن هذا قدر .. أو كما
- يقولون .. قسمة ونصيب .. الإنسان لا يستطيع أن يختار ما يريد .. ولكنه
- يستطيع على الأقل .. أن يرفض ما لا يريد .
- ولماذا لا تريدن كمال .. بعد كل ما قلته عنه من كل ما يرجع كفته ..
- نحن لا نختار بالمقاييس .. وإنما نختار بالأحاسيس .. أنت امرأة ..
- يا خالتى .. وتعرفين ماذا يعنى الزواج بالنسبة للمرأة ...
- نحن نعتاد أزواجنا بالعشرة .

— ٩٥ —

— ولكن يجب أولا أن يكون لدينا إحساس لقبول هذه العشرة .. التى
ستعودنا عليهم ..
وتنهدت الأم فى أسى قائلة :
— خسارة ..
وفى الصباح أقبل كمال .
ابتسامة رقيقة .. ووجه باش .. غير متكلف ولا مرسوم .. ولقيته مى فى
ترحاب :
— أهلا دكتور كمال .
— صباح الخير يا مى .
— صباح النور .
— كيف حال عمى .
— أحسن كثيرا .
— سأحاول اليوم أن أجعله يجلس على المقعد وخلال أسبوع سأجعله يسير فى
البيت .
— هذه أشياء ستشيع الفرحة فى الدار .. لسنا ندرى .. كيف نفى بجمائك
يا دكتور .
— أية جمائل يا مى .. إنى أشعر أنكم أهلى ..
— وإننا لكذلك ..
— أنا سعيد بأن أسمعك منك .. إن قدرك يزداد فى نفسى .. كلما ازدادت قربا
منك وارتباطا بك .. وهذا شيء نادر فى البشر يا مى .. فعشرة الناس .. ترفع
عنهم حجب النفاق .. وتكشف حقيقتهم .. ولكن عشرتك كشفت جوهرك
الطيب ..
— أنت إنسانة رقيقة .. أصيلة .
— أشكرك يا دكتور .. أنا لا أستحق شيئا من هذا كله .

— لماذا تصرين على كلمة دكتور .. يسعدنى أن أسمع من شفتيك « كمال » إن لها رنيناً آخر فى مسمى .
 وأحسست مى أن الحديث يتحول إلى طريق شائك ويجرى خطر .. ولم تعرف كيف تتخلص من الانزلاق فيه .
 وكانت تشعر .. على كل ما تكنه لكمال من تقدير وإحساس بالمودة .. بنفور من هذا الجو الذى بدأ يحيطها به ..
 ولم ينقذها سوى إقبال خالتها ترحب بكمال قائلة :
 — أهلا وسهلا .. تفضل يا دكتور .
 واتجه كمال إلى حجرة الأب وبعد فحص بسيط . قال بلهجة ملؤها التفاؤل :
 — الحمد لله .. أفضل كثيرا .. نجونا من المرحلة الحرجة .
 ونتمم الأب فى لهجة شاكرة :
 — الحمد لله .. ولك يا دكتور .. كلمات الشكر تتضاءل أمام ما فعلت لى .

— أستغفر الله .. أنت لى فى مقام الوالد ..
 — تفضل يا دكتور .. اجلس .. اشرب معى فنجانا من الشاي ..
 — يسعدنى أن أكون أول من يشاركك الجلوس على المائدة. يمكنك أن تغادر الفراش وتجلس على المقعد .
 ومد يده يساعده على النزول من الفراش وأمسك الرجل يده بشدة وهو يقول :
 — أحس أنى أوشك أن أسقط .
 — اجلس على المقعد .. رويدا رويدا ستعود الوقوف والسير .. غدا يمكنك أن تبدأ السير فى الدار وفى الأسبوع القادم .. تستطيع الخروج إلى الحديقة .
 وتساءل الأب :
 — ومتى أستطيع أن أذهب إلى الدكان .

— لا داعى لأن تتعجل ..
— إنى أستطع أن أجلس فى الدكان كما أجلس هنا .. لقد ضقت يا بنى برقدة البيت .

وربت كمال ذراع عبد السلام فى رقة قائلا :
— بعد أيام سأحملك بسيارتى إلى المحل .. بشرط ألا ترهق نفسك بالعمل .
— أعدك بهذا !
وانتهى كمال من تناول الشاى .. وفى طريقه إلى الخارج تلفت حوله عله يجد مى .. لم يجد سوى الأم .
وتلكأ فى السير يتبادل الحديث معها حتى تحضر مى وأعادت الأم كلمات الشكر وأعاد هو ردها فى تواضع وإنكار للذات .
وفجأة تساءلت فاطمة :

— متى سنفرح بك يا دكتور ؟
وابتسم كمال وأجاب متمنيا :
— أنتم الذين ستقررون ذلك .
وأحست فاطمة أنه يتحدث فى أمل .. ولم تعرف لم ؟ . رغم أن مى قد أفقدتها كل أمل ..

وتساءلت باسمه :
— نحن !؟ ليت الأمر فى يدى يا بنى .
— قالت لى أميرة إنها فاتحت مى .
— وماذا كان ردها ؟

— قالت إنها لا تفكر فى الزواج .. ولم يوصد هذا الرد باب الأمل فى وجهى فالذى لا يفكر فى الزواج اليوم .. قد يفكر فيه غدا .. ولقد أحسست خلال الأيام الماضية .. أن روابط الود تتوثق بيننا .. وأنا بتنا قرييين أكثر وأكثر .. لقد بت ألمس بوضوح مشاعرها الطيبة نحوى .

(ابتسامة على شفثيه)

وأحست فاطمة أن الرجل قد ضلل .. أو هو قد ضلل نفسه .. وكرهت له أن يفاجأ بالخدلان .. وقالت تحاول أن توضح له الموقف أكثر :
— إنها فعلا لا تكن لك إلا كل مودة .. وهى تقدر ككثيرا .. ولكن يبدو أن هذا لم يعد كافيا لدى جيلكم لكى يقدم على الارتباط بالزواج ..
— أفهم يا خالتي .. وإني أحاول أن أنفذ إلى قلبها .. فأنا أكره أن أفرض نفسى عليها .

وتمت فاطمة وهى تحس بالمشكلة تتعثر .. وتراه يحاول أن ينفذ إلى طريق .. تعرف هى تماما .. أنه مغلق .
وقالت تحاول أن تمهد للخدلان :
— على أية حال .. أنت رجل فاضل .. وعشرات الفتيات ممن يفضلن مى .. يتمنينك زوجا .

— ليس هناك من يفضل مى يا خالتي ..
— ولكن تفكيرها فى الزواج لا يعجبني .. وأخشى أن نخذلك .. وأنا أستطيع أن أختار لك خيرا منها .
— أنا لم أفكر فى الزواج من أجل الزواج .. ولكنى فكرت فيه من أجلها .. وليس هناك من يمكن أن يشغل مكانها فى قلبى .. إني على استعداد .. لأن أنتظرها .. أبدا .

وأحست فاطمة .. أن المشكلة قد باتت بلا حل ..
ولم يكن من اليسير عليها أن تخبره أن الفتاة الحمقاء .. تحب عمارا .. وأن عمارا لا يأبه لها .. ولا يفكر فى الزواج .. وأنها رغم ذلك .. قد قررت أن تنتظره .. أبدا .

وأن على كليهما .. أن ينتظر .. بلا أمل ..
حماقة منه .. وحماقة منها .
ولكن من يملك أن يفرض عليهما .. غير ذلك .

هذا قدرهما .. فلينتظرا .. أبدا .. حتى يقول القدر .. قوله .
ولم تملك إلا أن تقول فى حنان :
— ليوفقك الله يا بنى إلى ما فيه الخير .. فأنت لا تستحق إلا كل خير .
وأحست أنه يتلكأ ليودع مى فنادتها قائلة :
— مى .. تعالى لتوصلى كمال ..
وقال كمال :
— لا داعى لأن تتعب نفسها .. إنى فقط أريد أن أسلم عليها .. وأخيرها
بنوع العلاج الذى ستسير عليه فى هذه المرحلة ..
وأقبلت مى تجفف يديها فى منشفة وهى تعتذر قائلة :
— آسفة لأنى كنت مشغولة فى المطبخ .
وقالت فاطمة تتمم حديثها :
— زاد عبء العمل علينا .. بعد أن وضعت أم محمود .. وبات علينا أن نقوم
بكل شىء بأنفسنا .. النظافة والغسيل .. والطبخ ..
وضحك كمال وهو ينظر إلى مى فى إعجاب :
— لم أكن أظن أن أنامل الرسام تحييد الطهى والغسيل .
وقالت مى ضاحكة :
— الطهى والغسيل أسهل ما يمكن أن تمارسه الأنامل .. فالمفروض أن نتعامل
مع زناد البندقية .
— يبدو أن لدينا الكثير من أنامل الرجل .. من أجل التعامل مع زناد
البندقية .. ولعل أناملكن .. أقدر على تضميد الجراح ..
— سنفعل أى شىء ..
— إذن فعلى أن أعطيك دروسا فى التمريض ..
وأحست الأم أنه يحاول أن يمنح نفسه فرصة المزيد من الطرق على الباب
المغلق .. وبدأ لها أن تساعد فقالت لمى :

— أجل يا مـى .. لماذا لا تتهزين الفرصة .. وتتعلمين التمريض .. على الأقل لكي توفرى علينا أجر الممرض الذى يعطينا الإبر ..
وانسحبت الأم مودعة حتى تترك لكمال فرصة خلوه بـى .. يحدثها بما يريد .

وأدركت مـى بإحساس المرأة .. أنها محاولة .. لجر رجلها .. وقالت معتدرة :

— سأخبرك يا دكتور عندما أجد لدى فسحة من الوقت .. فنحن مقبلون الآن على موسم امتحانات .. وأنت تعرف مشاغلها ..
وقال كمال :

— إن الوقت متروك لك .. فأنا يسعدنى دائما أن أراك .
— متشكرة يا دكتور كمال .

— قولها كمال .. بلا تكليف يا مـى .. أم تريدين أن أناذك .. يا آنسة مـى ..
أو يا أستاذة مـى .. لماذا تضعين بيننا حجابا من الكلفة ؟
وضحكت مـى قائلة :

— أبدا يا دكتور .. أقصد .. يا كمال .. لست أضع بيننا حجابا .. إنما جرى لسالى بكلمة دكتور .

— إذن اتفقنا على دروس التمريض .

— إن شاء الله عندما ينتهى موسم الامتحانات .. وتحل الإجازة الصيفية .
وبعد أيام بدأ الحاج عبد السلام الذهاب إلى الحانوت .. لقيه الناس فى السوق بترحاب وحرارة ..

واستقر على باب الحانوت يمارس عمله فى مقعده .. ومن ورائه عمار يرتب أثواب الأقمشة على الأرفف .

وأحس عمار وهو يقف وراء البنك .. كأن الحانوت قد بات قفصا .. تطبق عليه قضبانه .. وعندما خلا الحانوت اقترب من أبيه قائلا فى رجاء :

— ١٠١ —

- كنت أود أن أستاذك في مشوار .
 — إلى أين ؟
 وصمت عمار برهة ثم تتم قائلا :
 — إلى معسكرات التدريب .
 والتفت إليه أبوه في دهشة مرددا كلماته .
 — معسكرات التدريب ١٩ .
 — أجل ..
 — هذا ليس مجرد مشوار .. ولكنه رحيل .
 — سأعود إليكم بين آونة وأخرى .
 — منذ متى قررت هذا ؟
 — قبل أن تمرض .. كنت أوشك أن أقبل عليك .. بعد أذان الفجر ..
 وانتظرت حتى تنتهى صلاتك .. ولكن فوجئت بآهتك .. ولم تكن هناك سبيل
 للذهاب بعد ذاك فقد كان على أن أمكث هنا .
 وضمه الأب بنظرة ملؤها الحب ثم أطلق تنهيدة قصيرة وتتم قائلا :
 — لم أكن في حاجة إليك حاجتى في هذه الأيام .. لقد كسرت يا عمار ..
 وكسر مثلى في هذا العمر لا يسهل جبره .. وأنا أشعر أنى أجلس في الحانوت أشبه
 بالضيف .. ولقد بات عليك أنت أن تتحمل عبئه .. ولقد حملته عني فعلا ..
 كأفضل ما أتمنى خلال مرضى .. لم أكن أتوقع منك أن تقوم بكل ما قمت به ..
 ولكن رفاقي كلهم قالوا عنك إنك رجل .. ولا تدري كم شعرت بالفرحة .. وأنا
 أسمع ذلك منهم .. لقد ملأتني إحساس بالأمن والطمأنينة .. وشعرت أنى أستطيع
 أن أغادر الحياة .. بغير قلق على أمك وأخيك .. وعلى مى .. أحسست
 بالراحة .. وأن أجذك تحمل العبء عني .. وعندما عدت إلى الحانوت .. لم
 أفكر أبدا .. أنى أعود .. كما كنت .. بل عدت .. لمجرد الإحساس بأنى مازلت
 أحيا .. هل فهمت يا عمار ..

— ١٠٢ —

وتمتع عمار في أسي :

— لا يا أبى .. أنت ما زلت قادرا على كل شيء .

— أبدا يا عمار .. ومع ذلك ..

وصمت الأب برهة وقد بدت نظراته شاردة في أفق بعيد لا يرى ..

واستطرد يقول :

— ومع ذلك .. لا أملك أبدا أن أمنعك من الذهاب .. فهناك مكانك ..

وأنت ضريبتى أدفعها لبلدنا .. فخورا .. سعيدا .. وأنا يا عمار ما زال في

نفس .. أستطيع أن أواصل به حمل العبء الذى حاولت أن ألقيه عليك .. إذ

يبدو أنه لم يحن الأوان بعد لأن أحيل نفسى إلى المعاش .. فقد ظننت أن الراحة

باتت من حقى .. ولكن ليس بعد .

وصمت عمار برهة والأفكار تصطبغ في نفسه .. ونظر إلى أبيه وقد بدا في

هزاله .. وفي ضعفه .. وفي أساه .. شيئا آخر عن الرجل القوى المرح

الضحوك .. الذى كان ينهره لأنه لا يتيسم ..

وقال عمار في لهجة حزينة :

— إلى على استعداد لأن أبقى ..

وهز أبوه رأسه في شدة قائلا :

— أبدا يا عمار .. اذهب ..

— لا أود أن أرهقك بالعمل ..

— أنت سترىنى بذهابك .. اذهب واحمل البندقية عنى .. فلقد كان على أن

أكون هناك منذ سنوات .. ولكن الوقت مر بنا .. ونحن نخلم .. كان وطننا مجرد

أمنية .. ولكن بات عليكم أن تجعلوه بالسلاح حقيقة .. إن عليكم يا عمار ..

وقبل أن يتم كلماته أقبل الحاج إبراهيم يصيح من الحانوت المجاور قائلا :

— هل سمعتم .. إن إسرائيل تهدد بضرب سوريا .. ولقد حرك عبد الناصر

جيوشه إلى الحدود ؟.

— ١٠٣ —

وهتف عمار وأبوه في نفس واحد :

— ماذا تقول ؟

— الجيوش المصرية تحركت نحو الحدود .. وطلبت مصر من الأمم المتحدة

سحب قواتها .

وتمم الأب قائلا :

— هذا حدث جلل !!

حوار على المائدة

أقبل خالد من المدرسة ليجد أخته الكبرى عايذة قد حضرت وابنتها ليلى من عمان .

وبعث وجودهما إحساسا بالفرحة في نفسه .. فقد ضمن إعفائه من الاستذكار هذه الليلة احتفاء بحضورهما .. بل ربما تعدى هذا إلى عطلة في الغد إذا ما أجدت وساطة عايذة في حجزه في البيت لأنه « أوحشها » وحتى يتسلى باللعب مع ليلى ..

وقذف خالد بحقيته على طول ذراعه وأقبل يعانق أخته .
وضمته أخته في شوق وأسرع يسألها ليطمئن إلى متى سيطول بقاؤهما .
— متى سترجعون ؟

ونهرته أمه قائلة :

— لماذا تتعجل عودتهم ؟

وضحكت عايذة وردت عنه :

— إنه يريد أن يطمئن إلى متى سنبقى .. حتى يضمن عدم المذاكرة والعطلة .

وصاحت به أمه :

— ادخل اغسل وجهك .. وأنت تبدو كالطين .. واذهب لتستدكر دروسك .. حتى تستطيع أن تجلس معنا .

ولم يبد على خالد أنه قد استمع إلى حديث أمه فقد عاد يسأل ليلى :

— قولى .. متى سترجعون .

— الليلة .

— الليلة !!! ولماذا حضرتم ؟

— ١٠٥ —

- ألا تريدنا أن نحضر ؟
- بل أريدكم ألا تذهبوا الليلة .. لماذا لا تبيتون معنا .
- لأن عمك عبد الكريم سيأتى لأخذنا .
- ولماذا يأخذكم ولا يبقى معكم ؟
- لأنه لا بد أن ينام فى المعسكر .. لأن هناك طوارئ .
- وفجأة سأل خالد :
- هل سنحارب ؟
- وهزت عايذة رأسها قائلة :
- من يدري ..
- التلاميذ فى المدرسة يقولون إننا سنضرب اليهود .. والجيش المصرى تقدم إلى الحدود .
- رفعت الأم كفها إلى السماء قائلة :
- إلهى ينصركم .. إلهى ينصر العرب على من يعاديهم .
- وسمع وقع خطوات مى على الدرج وما لبث أن ظهرت بالباب هاتفه :
- عايذة .. أهلا ..
- وترك خالد أخته وابنة عمه تتعانقان .. وسحب الصغيرة ليلى من ذراعها متجها إلى الشرفة وهو يتساءل :
- لماذا تعودون اليوم ؟
- لأن ماما تقول هذا .
- اسمعى .. قولى إنك لا تريدن الذهاب .. وعندما يحاولون أخذك .. ابكى .
- وهل يتركوننى إذا بكيت ؟
- وفكر خالد برهة ثم أجاب مترددا :
- ربما .. الآباء .. لا يستقرون على حال .. فى بعض الأحيان يوافقوننا إذا

— ١٠٦ —

- بكينا .. وفي الأحيان الأخرى .. يضربوننا ..
وصمت برهة ثم أردف :
— على أية حال .. جرى .
وهبط بها من الشرفة إلى الحديقة قائلاً :
— تعالى .. سأريك شيئاً .. لا يخطر ببالك .
وفي آخر الحديقة ووراء كوم من الخشب والزكائب مد يده .. فأخرج
ماسورة طويلة .. أمسكها وقال هامساً :
— أترين هذا ؟
وهزت ليلي رأسها متسائلة في غير اكتراث :
— ماذا يكون ؟
— وازداد صوته همساً وهو يقول :
— بندقية .
— أهذه بندقية ؟
— انخفضي صوتك يا غبية حتى لا يسمعك أحد .
وأعادت ليلي السؤال هامسة :
— أهذه بندقية ؟
— أجل .
— وهل تستطيع أن تضرب بها ؟
— ليس الآن ..
— لماذا ؟
— لأن بقيتها غير موجودة .. إن هذه هي الماسورة .. وجدتها في كوم خردة
كانوا ينقلونه باللورى .
— ومن أدراك أنها ماسورة بندقية ؟
— وماذا يمكن أن تكون غير ذلك ..

— ١٠٧ —

— وكيف ستحضر بقيتها ؟
— سأنتظر حتى يحضر يحيى .
— يحيى من ؟
— صديق عمار الذى يعمل مع الفدائيين . سأريها له وأطلب منه أن يحضر لها
البقية .

وأمسك خالد الماسورة يصوبها إلى أعلى وأردف فى إعجاب :
— ستصبح بندقية مدهشة ..
ولم يبد على لىلى الاقتناع بأن هذه الماسورة يمكن أن تتحول إلى بندقية
وتساءلت قائلة :

— ولماذا لا تحضر بندقية كاملة ؟
— ومن يحضرها لى ؟ ..
— خالى عمار .
— ولكن عمار لا يعمل مع الفدائيين .
— ولماذا لا يعمل ؟
— لأنه يعمل فى الخانوت .
— ولماذا لا يبقى جدى فى الخانوت ويذهب هو ؟
— جدك كان مريضا .
— ألم يشف ؟
— إنه يذهب إلى الخانوت .. ولكنه يعرج .. ولم يعد يصيح ولا يضحك كما
كان .

وأعاد خالد الماسورة إلى مكانها بين كوم الخشب والزكائب وقال متسائلا :
— هل تظنين أننا سنحارب ؟
وهزت الصغيرة كتفها ولم تجب .
وعاد خالد يقول فى إصرار :

— ١٠٨ —

— سأصلح البندقية وسأذهب معهم .. هل تظنينهم يأخذوننى ..
ونظرت إليه ليلي نظرة فاحصة وأجابت :
— أنت صغير .. وهذا الشيء الذى تضعه فى كوم الخشب ليس بندقية .
— ستصبح بندقية .. وأنا أستطيع أن أضرب بها ..
وأمسك بذراعها يهزها فى عنف :
— لا بد أن أقتلهم كما قتلوا أخى الأكبر .. رأيت ألى ييكى وهو يتحدث
عنه .. وقال عمار ليحى إن دمه كان لرجا ساخنا تحت كفه .. هل تصدقين
هذا ؟

خلصت ليلي ذراعها منه صائحة فى خوف :
— لا تقل هذا يا خالد .. إنى أخاف .
وسمع خالد صوت أمه يصيح به من الداخل :
— خالد .. قلت لك تعال واغتسل وغير ملابسك .
ودخل الصغيران إلى البيت .. وكانت عايدة قد أقبلت على حجرة مى
وأبصرت الصورة التى تحاول أن ترسمها لعمار وتوقفت أمامها برهة تتأملها ثم
قالت وهى تهز رأسها :

— شيء ما .. ينقص الصورة ..
وأجابت مى وهى تبدل ملابسها :
— أجل .
— ما هو ؟
— تجهمه .. لقد حاولت أن أضع على شفثيه ابتسامة .. فبدت كأنها شيء
غريب معلق فى الصورة ..
— وبعدين ؟
— محوتها .. وبقي الوجه كما ترينه . لا هو ضاحك .. ولا هو متجهم .
وهزت عايدة رأسها قائلة ..

— ١٠٩ —

— إنه يشبه عمارا .. ولكنه قطعاً ليس بعمار .
 — على أية حال إنه ما زال منشروعا .. لم يتم .. وهو يرفض أن يستقر أمامي
 ولو للحظات .
 — عندما يأتي من الحانوت سأمسك به وأوثقه .. ولا أتركه حتى تنمى
 رسمه .

وضحكت مى متسائلة :

— هل تقدرين عليه ؟

— ألاً تذكرين عندما كان صغيراً .. كيف كنت أضربه .. عندما كنا
 نتعارك كان يشوح بيديه .. وكان أبى يشتمنى .. خوفاً على من أن تصيب أصبعه
 عيني في إحدى تشويحاته الطائشة .. ولكنى كنت أقبض عليه بكلتا يدي ثم أضع
 قدمي خلفه وأدفعه فيسقط على الأرض . وأبرك فوقه . وهات يا ضرب .
 واستغرقت عايذة في الضحك وهى تستطرد قائلة :

— تصورى لو أمسك به الآن وأطرحه أرضاً وأبرك فوقه حتى تصوريه ؟ ..
 ما رأيك في هذه الفكرة ؟ .. ألن تكون صورة مدهشة ؟

وعادت عايذة تنظر إلى الصورة ثم أردفت :

— ولكن .. ماذا يعجبك فيه .. لماذا لا ترسمين شيئاً أفضل .. ارسمي سبت
 زهور .. أو منظر غروب . خيراً من هذا الوجه الكثير ..
 وأقبلت الأم عليهما تؤكد حديث ابنتها قائلة :

— قولى لها .. ماذا يعجبها فيه .. تضيع وقتها في رسمه ؟
 ثم تمتمت كأنها تحدث نفسها :

— وتضيع عمرها في انتظاره .

وعادت تقول بصوت مرتفع :

— قال إنه سيتعشى الليلة مع يحيى .. وطلب أن نحضر لهما عشاء في

حجرته .

وردت عابدة :

— ولماذا لا يتعشيان معنا .. لقد وحشنى عمار .. وسيحضر عبد الكريم ليتعشى معنا ثم يأخذنا معه . فدعونا نتعش كلنا . معا ..

وقالت مى :

— عمار يجب أن يتعشى وحده مع يحيى .. حتى يتحدثنا فى حرية ..

وردت الأم :

— ليتحدثا بعد العشاء كما يريدان . إنه لم ير أخته منذ مدة ..

ثم وجهت الحديث إلى عابدة قائلة :

— لست أدرى لماذا هذه العجلة فى العودة ؟

— لأن عبد الكريم لا يستطيع المبيت هنا .. إن الحالة متوترة .. بعد تهديد

إسرائيل لسوريا وحشد الجيش المصرى على الحدود .

— إذن امكشى معنا ويعود هو لأخذك غدا أو بعد غد .

— لا يعلم أحد ما يحدث غدا أو بعد غد .

— الدنيا لن تطير .

— من يدري .

ووجهت الأم الحديث إلى مى قائلة :

— إذن ليأكل عمار وصاحبه معنا .

— سيتضايق يا خالتي .. أنا أعرف طبعه .. سأحضر لهما الطعام وحدهما فى

الشرفة ..

— افعلوا ما يحلو لكم .. لقد ضقت بأحوالكم .

وغادرت الأم الغرفة . ولم تكده عابدة تخلو بمى ثانية حتى قالت ببساطة ..

وهى تستعيد فى ذهنها نمتة أمها التى همست بها « وتضيع عمرها فى انتظاره » .

— ما هى أخبار الدكتور كمال ؟

— من حيث ؟

— ١١١ —

- أما زال ينتظرك ؟
— الله أعلم .
— ماذا لا يعجبك فيه ؟
— من قال إنه لا يعجبني ؟
— إذن لماذا رفضته ؟
ولم يبد على مى أن الحديث ذو جاذبية لها .. ولكن كان عليها أن تجيب .
فردت ببساطة :
— لأنى لا أريد أن أتزوج .
— هذا كلام تقولينه لأمى يا مى وليس لى .. نحن نفهم بعضنا أكثر .
— حقيقة يا عايدة .. إنى لا أطمع فى حياة أفضل من هذه .
— عجيبة !
— لماذا ؟
— لا تطمعين فى أن يكون لك بيتك . إنه شىء آخر يا مى شىء تشعرين فيه
بسيادتك .
— ولكنى لا أشعر أبدا أن هناك ما ينقص من سيادتي فى هذا البيت .
— سيادتك على من ؟ على عمار .. أو أبنى ؟ .. أو أمى ؟ .. حتى خالد
الصغير .. لا تملكين من أمره شيئا !
— لست أفهم .. هل هناك ضرورة لأن نتحكم فى أحد ؟
— ليس تحكمنا .. ولكنه إحساس بمسئوليتك المطلقة عنهم .. إحساس بأنك
ربة بيت .. ترعين أهله ..
— ولكن هنا أفعل هذا .
— ألا تشعرين بحاجة إلى رجل ؟
— أى رجل !!
وترددت عايدة قبل أن تقول :

— أقصد رجلا معينا .
 — ولكنه ليس هذا الرجل المعين .
 وتنهدت عائدة وهى تقول :
 — هذه هى المشكلة .. هل دائما يمنحنا القدر الرجل المعين ؟ .. بل هل يكون الرجل المعين .. هو الأصلح لنا .. وهل يحقق أملنا . لو منحناه ؟
 ومدت عائدة ذراعيها فضمت إليها مى قائلة :
 — ليوفقك الله يا مى .. يقولون نم على الجانب الذى يريحك .. ولكن المصيبة أننا لا نعرف أى جانب أكثر راحة من غيره .. هل يتحتم علينا أن نجرب كل الجوانب حتى نستقر على الأكثر راحة ؟ .. هيا نعد العشاء ..
 ودلفت الفتاتان إلى المطبخ .. يشرذ ذهن كل منهما فيما يعنيه ..
 وبعد برهة سمعت خطوات الأب المتشاقلة ..
 وبدأت عليه الفرحة للقاء ابنته وحفيدته .. وجلس على مقعده الكبير الذى تعود أن يسترخى فيه وجلست الطفلة على ركبتيه تضمه بذراعيها الصغيرتين قائلة ..

— هل تصدق يا جدى ؟
 — ماذا ؟
 — خالد سيحارب .
 — من قال هذا ؟
 — هو .
 — فشار .. ابن فشار .
 — لقد أراى البندقية .
 — كان !!
 — هو يقول إنها بندقية . ولكنها مجرد باسورة .
 — ألم أقل لك إنه فشار .

— ١١٣ —

- ولكن متى سيحارب ؟
- عندما يكبر .
- ولماذا لا تحارب أنت ؟
- لأنى كبرت أكثر مما يجب ..
- وتنهذ الرجل وأردف قائلا :
- فات زماننا .
- وعمار ؟
- ماله ؟
- هل فات زمانه ؟
- ليس بعد .
- إذن لماذا لا يحارب ؟
- عندما ستأق الحرب سيحارب .
- وهل الحرب تأق ؟
- أعنى عندما يحن أوانها .
- ألم يحن أوانها ؟
- ليس بعد .
- ولكن يقولون إن الجيش المصرى سيضرب اليهود ..
- وأقبل خالد يقول مصححا :
- إذا ضربوا سوريا .
- وقال الجد :
- إذا .
- ورد خالد :
- لكن إذا لم يضربوا .. فلن نضربهم ؟ ..
- أجل ..

— ١١٤ —

- ولكن لماذا لا نضربهم نحن .. لقد سبق أن ضربونا .
- عندما نستعد .
- ومتى نستعد ؟
- وفي تلك اللحظة أقبل عمار من ناحية الشرفة بعد أن أجلس فيها يحبى
- ووجد الجدد فيه منقذا من أسئلة الصغيرين فقال لخالد :
- اسأل أخاك .
- وتساءل عمار :
- عن ماذا ؟
- عن متى نستعد .
- لأى شيء ؟
- وقال خالد :
- لكى نضرب اليهود .
- وتتم عمار قائلا :
- يبدو أننا نهم بضربهم .
- وقال الجدد :
- هل تظن ذلك ؟
- أشم فى الجو ريح خطر .. أخطر مما تعودناه .. المسألة ليست سهلة .
- وأقبلت مى تضع على جسمها فوطة مطبخ ولم تكدرى عمارا حتى تهللت
- أساريرها وهتفت به :
- أعد لكما الطعام فى الشرفة .
- وقال الأب :
- ولماذا لا نأكل جميعا معا ؟
- وأردفت الأم تقول من أقصى الصالة :
- قلت هذا قالوا اطلعوا من البلد .

— ١١٥ —

وأجاب عمار فى شىء من الاستنكار :
— ولماذا لا أكل فى الشرفة ؟
— أختك هنا .. وزوجها سيأتى بين آونة وأخرى .. وسيذهبان بعد العشاء
فليس أقل من أن تأكل معهما .
وبدت الحيرة على وجه عمار وقال مترددا :
— ولكن يحبى ..
وقاطعه الأب :
— يا أخى .. يحبى منا وعلينا .. دعه يأكل معنا .
— ولكنه قد ينجل .
— يحبى ابن حلال .. ناده وسأعزم عليه بنفسى .
ثم رفع عقيرته صائحا :
— يحبى .. يا يحبى ..
وأقبل يحبى مهرولا وهو يقول مجيبا :
— مساء الخير يا عمى .
— ما رأيك فى أن نأكل كلنا معا .
— ولكنى لا أريد أن أضايقكم .
— أبدا .. عبد الكريم زوج ابنتى سيحضر للعشاء معنا فلنجلس كلنا معا .
— أمرك يا عمى .
وبعد برهة .. أقبل عبد الكريم يرتدى ملابس العسكرية .. وعلى مائدة
العشاء تجمعت الأسرة وبينهم يحبى ..
وبدأ عبد الكريم الحديث قائلا :
— وصل الملك إلى القاهرة .
وبدت الدهشة على الجميع وهتف يحبى :
— الملك ذهب إلى القاهرة !

— ١١٦ —

وتساءل يحيى :

— وماذا فعل به عبد الناصر ؟

— أمضى معه معاهدة دفاع مشترك .

وهتفت عايدة :

— هائل :

وعاد عبد الكريم يقول :

— وقد أعلن أن العراق سيمضى معهما هذه المعاهدة ..

وقال الشيخ عبد السلام :

— حوصرت إسرائيل إذن .

وكان عمار قد وجم وهو يستمع إلى هذا الحوار وبدأ عليه شرود لم يخرج منه حتى ساقه عبد الكريم قائلا :

— ما رأيك يا عمار .. لماذا لا نتحدث .. إن القوات العراقية في طريقها إلى الجبهة لتأخذ مكانها بجوارنا .

وغمغم عمار قائلا :

— كان يجب أن يحدث هذا منذ مدة ..

— على أية حال لقد حدث الآن .

— هل ستقف إسرائيل ساكنة ؟

— وماذا تملك أن تفعل ؟

— تضرب .

— إذا ضربت فستأخذها على رأسها .

وبدأ الحوار متشابكا ومتداخلا .. صوت من هنا .. وصوت من هناك لا يكاد يدرى أحد من قال هذا .. ولا من رد على من .

— ظنت إسرائيل أنها تستطيع أن تختال وتستعرض عضلاتها أمام سوريا حتى توقف عمل الفدائيين .

- وهل الفضائيون يعملون من سوريا وحدها ؟
- أغلب الظن أنها تريد أن تسقط النظام في سوريا .
- إنها لعبة أمريكا .
- ظنت أن القوات المصرية مشغولة في اليمن .
- وأن الملوك سيقفون بمعزل عن المسألة .
- وتدفق السلاح الأمريكي على إسرائيل .. سيجعل لها اليد العليا ..
- وسيقف أية محاولة للتدخل .
- والأسطول السادس يتهاذى في البحر الأبيض . تعلن أمريكا بصراحة أنه
- مستول عن حماية إسرائيل .
- ولكن الجيش المصرى تحرك في سرعة وأزاح الستار الذى كان يحول بينه
- وبين إسرائيل والمكثون من قوات الأمم المتحدة .
- وقبل يوثانت طلب عبد الناصر بسرعة مذهلة .
- والغريب أن يعلن جونسون عن ضيق أمريكا قائلا إنهم يفزعهم
- الانسحاب العاجل لقوات الطوارئ من قطاع غزة وسيناء بعد أكثر من عشر
- سنوات من الخدمة الفعالة في صون السلام .
- ولم تفزع أمريكا من حشود إسرائيل على الحدود وتهديد حكامها لدمشق
- ولا أحست بضرورة وجود قوات طوارئ هناك .
- وأعجب من هذا أن جونسون أعلن أن إغلاق خليج العقبة في وجه السفن
- الإسرائيلية قد أضاف بعدا جديدا .. وخطيرا للأزمة وأنها تعد هذا الخليج ممرا
- مائيا ودوليا وتشعر بأن فرض حصار على سفن إسرائيل أمر غير مشروع وأنه قد
- يؤدى إلى كارثة تحل بقضية السلام .
- لقد رد عليه عبد الناصر في مؤتمره الصحفى بأن مصر صاحبة السيادة على
- مضيق تيران حسب اتفاقية لندن ١٨٢٤ والتي تمنح أصحاب المياه الإقليمية حق

— يعنى إيه ؟

— يعنى حق معرفة السفينة وعلمها وحولتها واتجاهها والتصرف فى منح حق الملاحة فى المياه الإقليمية على هذه المعلومات . وهو حق مسلم به دوليا . لا يحتاج إلى ممارسته بالقوة المسلحة .

— ولماذا إذن هذه الضجة .. ألا يقع المضيق فى المياه الإقليمية المصرية ؟
— لا يمكن أن تمر به سفينة إلا على بعد ميل واحد من المياه المصرية وبكل المقاييس تنطبق عليه حقوق المياه الإقليمية . سواء كانت ثلاثة أميال أو ستة أو اثني عشر ميلا .

— ولكن إغلاقه يخنق إسرائيل .. إنه منفذها الوحيد إلى إفريقيا .. سوقها البكر .

— ولماذا انسحبت قوات الطوارئ بمثل هذه السرعة ومن الجهة كلها ؟
— لأنها جاءت بموافقة مصر .. ومن حق مصر سحبها .. ولقد استجاب يوثانت لطلب مصر لأن من سلطته سحب القوة .
— ولكن مصر لم تطلب سحب القوات من كل جهة ..
— قال يوثانت إنها إذا سحبت .. فستسحب كلها .
— ووافقت مصر بالطبع فهي فرصة تستطيع أن تعاود سيطرتها على مضائقها .

— هذه ضربة لإسرائيل .. لقد تعودت دائما أن تخرق قرارات الأمم المتحدة .. لقد احتلت إيلات بعد شهرين من اتفاقية الهدنة الأولى .. سلمها لهم جلوب .

— واحتلت العوجة التي كانت مقرا للجنة الهدنة عام ١٩٥٦ وطردت رجال الأمم المتحدة منها وأعلن بن جوريون وقتذاك أن إسرائيل لم تعد تعترف باتفاقية الهدنة .

— حان الوقت لكى نلقن إسرائيل درساً قاسياً .

— ١١٩ —

- من الذى سيعطيها درسا قاسيا ؟
- لقد أخذته الآن .
- كيف ؟ ..
- القوات العربية أخذت زمام المبادرة .
- بماذا ؟ .
- بقواتها التى تقف على أهبة الاستعداد حول إسرائيل .
- ولكن هل تملك القدرة على العمل والحركة ؟
- ولم لا ؟
- هل لديها القدرة ؟
- أعتقد هذا .
- وهل سيتحركونها تفعل ؟
- من تقصد ؟
- أمريكا .. لأنها تقف وراء إسرائيل .
- نحن أيضا لا نقف وحدنا .. لقد أعلن قائد الأسطول السادس ويليام مارتن أن دعم الأسطول السوفيتى فى البحر الأبيض يشكل تهديدا للأسطول السادس وأنه رغم عدم معرفته بمهمته فإنه من المعقول الافتراض أن الأسطول السادس هو الهدف الأول له وأن تزايد قطع الأسطول السوفيتى فى البحر الأبيض يرغم الأسطول السادس على التحول بقدر ما من مهمته الأولى المتعلقة بعمليات الضرب لكى يكون على حذر من أى هجوم .
- يعنى أن الأسطول السادس أضحى عليه أولا أن يوفر الحماية لنفسه قبل أن يوفرها لإسرائيل .. ولم يعد يملك حرية الحركة يبرطع فى البحر كما يشاء .
- وأعلن قادة الاتحاد السوفيتى أن كل من يغامر بشن عدوان فى الشرق الأوسط لن يواجه القوى العربية فعسب بل سيواجه كذلك مقاومة صلبة من جانب الاتحاد السوفيتى والدول الحبة للسلام .

— ١٢٠ —

— وأعلنت الصين أيضا أن ٧٠٠ مليون صيني يؤيدون بصلابة الجمهورية العربية المتحدة وسوريا والدول العربية ضد إسرائيل التي تعتبرها عملية العدوان الأمريكي .

— والهند أعلنت أنها تقدر تماما الأسباب التي اتخذت مصر من أجلها تلك الإجراءات الاحتياطية لردع إسرائيل من تنفيذ مخططاتها العدوانية ضد سوريا وأنها تؤيد حقها في إغلاق خليج العقبة وتمسك برأيها في أن خليج العقبة بحر داخلي يقع في المياه الإقليمية لمصر وللسعودية .

— وباكستان وأفغانستان وماليزيا وسنغافورة تقف معنا .

— وإفريقيا أيضا .. غينيا وتانزانيا .. وزامبيا .. ومالي والكونجو برازافيل .. إننا لا نقف وحدنا .

وساد الصمت برهة .. بدأ كل منهما يمزغ لقمة في فمه .. وفكره في رأسه .
وكان أول من تحدث عمار .. قال في صوت خافت :

— المهم .. هل نحن قادرون على ضرب إسرائيل ..

.. أم أننا نغامر .. أم ننساق إلى شرك ؟

وهزت الأم رأسها وهتفت بعمار :

— دائما كالشريك المخالف .. دعونا نتكلم في شيء آخر .

ونفض عبد الكريم قائلا :

— لم يعد هناك وقت .. لا بد أن نرحل .

٨

هل حاربت ؟

خلا عمار بيحيى فى الشرفة بعد العشاء وبعد أن ودع أخته وابنتها وزوجها .. وجلس عمار ماداً ساقيه كما تعود أن يجلس .. وأطلق تنهيدة حارة بدا كأنه يحاول أن يطلق بها بعض همومه .

وتساءل يحيى :

— ماذا بك .. إننا أفضل حالا .

— أنحن كذلك ؟

— ألم نتحد لنقف جبهة واحدة فى مواجهة إسرائيل ؟

— هل تحركنا إلى ذلك بتخطيطنا وإرادتنا أم دفعنا إلى ذلك دفعا .

— إن الشدائد قد جمعتنا .

— ومن الذى صنع الشدائد ؟

— ماذا تقصد ؟

— أعنى من الذى لجّز الشدائد ورتب سيرها لتجمعنا ؟

— تقصد إسرائيل ؟

— ألم تبدأ العملية بتهديدها بالعدوان على سوريا .

— ولكنها قطعاً لم تكن تتوقع أن تتسلسل الأمور إلى مثل ما جرت به .

— توقعت أم لم تتوقع .. وأرادت أم لم ترد .. المهم حتى التى دفعتنا إلى

مواجهة المعركة .

فنحن إذن لم نخطط للدخول فى معركة .. وبالتالى لم نستعد لها .

— لم نخطط جائز .. ولكن لم نستعد لها .. لا أعتقد .

— ١٢٢ —

- إننا بالقطع لم نكن مستعدين لمعركة مع إسرائيل .. فالجيش المصرى يحارب فى اليمن وبقية القوات العربية إما مشغولة بمواجهة الجيش المصرى .. أو بحماية نظم الحكم فيها ..
- ربما لم نكن مستعدين .. ولكننا بتنا الآن مستعدين .
- بين يوم وليلة .
- لم لا ؟
- مستعدون لماذا .. لضرب إسرائيل ؟
- أجل ..
- تعنى للهجوم عليها ؟
- ليس بالضبط فلا أظننا سنبدأ بالهجوم حتى لا نواجه سخط العالم علينا ..
- إذن سنقوم بالضربة الثانية ؟.
- بالضبط .
- هل تضمن أن تكون الأولى من إسرائيل .. ليست القضية ؟
- غير معقول .. إننا نستطيع تلقيها ثم ردها مضاعفة .. ونكون بذلك أمام العالم .. لم نبدأ العدوان .
- فى أى موقف نقف إذن ؟
- ماذا تعنى ؟
- فى الدفاع .. أم الهجوم ؟
- الدفاع .. من أجل الهجوم .
- وهز عمار رأسه كأن الأمر يستعصى عليه فهمه وأجاب :
- لا أفهم .. فالقوات العربية تقف محتشدة من أجل الهجوم ولو وجهت إليها الضربة .. فسيصعب عليها تلقيها .. ثم تحويلها إلى هجوم مضاد .
- لماذا .. إن هذه هى الحرب .. وهى تحتاج إلى قدرة على المناورة .. ومرونة فى العمل .

ويدا الشرود على وجه عمار .

واستطرد يحبى يقول :

— أنت عجيب يا عمار .. على رأى المثل .. لا يعجبك العجب ولا الصيام
فى رجب .. ماذا تريد أكثر من أن يحتشد العرب ويتحدوا لمواجهة إسرائيل
وردعها .

— أخشى أن نكون مساقين إلى معركة لم نستعد لها .

— إذن فلنستعد .. إن الجيش المصرى كله قد تحرك إلى سيناء .. والجيش
العراقى سيتحرك إلى الأردن .. ولعل هذا يكون نهاية الخلافات بين العرب
وبداية العمل الموحد ضد إسرائيل .. إننا نستطيع أن نطبق عليها من كل جهة .
— وهل ستركنا أمريكا ؟ .

— سنضعها أمام الأمر الواقع .

— هل ستنتظر أمريكا حتى توضع أمام الأمر الواقع .. إن أمريكا تتحين
الفرص لكسر شوكة العرب .. لقد واجهنا أمريكا .. وكسرنا حلقة نفوذها فى
الشرق الأوسط .. وكشفنا عملاءها .. ومخابراتها .. وهى لن تغفر لنا هذا .

— أنت متشائم يا عمار .. ألم تكن تتوق دائما إلى الحرب ؟

— بالחס أتوق إليها .. ولكن بالعقل .. ليست بهذه الطريقة .. وليست
الآن .. لو استطعنا أن نفلت منها هذه المرة .. ونفذنا بشرم الشيخ .. لكنا
الراجحين .

ونظر يحبى إليه فى دهشة وقال مستكرا :

— ما هذا الذى تقوله يا عمار .. لماذا تحاول أن تدفع فى نفسى الشك ..

بأنك تحب عن القتال عندما يحين أوانه .

ورفع عمار عينيه إلى يحبى قائلا :

— ليس أسهل على يا يحبى من أن أحمل بندقية وأذهب إلى المعركة ، وليس

أبعث على الراحة فى نفسى من أن أطلقها فى صدر واحد من أولئك الذين بقروا

بطن خالتى وقتلوا أخى .. ولكن المشكلة يا يحيى أكبر من هذا .. إنها ليست مشكلة إراحة نفسى .. بالبطولة أو الاستشهاد .. ولكنها مشكلة شعبنا كله .. مشكلة العمل الكبير لاستعادة وطننا .. إن المشكلة كما قالها الرئيس عبد الناصر فى المؤتمر الصحفى ليست مشكلة مضايق تيران ولا قوات الطوارئ .. التى تحاول أن تثير بها أمريكا ضجيجا مفتعلا .. ولكنها مشكلة العدوان الذى وقع ولم ينته بعد .. وما زال وقوعه المتواصل يشكل تهديدا دائما لمصير العرب كلهم .

— ومن أجل هذا يا عمار يجب أن نضرب دائما .. نضرب فى كل مكان وفى كل زمان .. إنهم يحاولون أن يلبوا أعناقنا بالقوة .. فيجب أن نقاومهم بالقوة .. إن تهديدهم لسوريا دفعنا إلى التجمع .. وسيدفعنا إلى العمل الموحد .. ورب ضارة نافعة يا عمار ..

وعاد يحيى إلى معسكره فى تلك الليلة .

ولم يره عمار حتى وقعت الواقعة .

فى ذات صباح بدأ الدوى .. والأزيز .. والفرقة .. والقصف .

وعلا صوت الراديو .. ليعلن أن هجوم إسرائيل قد بدأ فى كل مكان ..

وفى الساعات الأولى .. توالى الأنباء .. المبهجة .

الطائرات الإسرائيلية تنساقط فى سماء مصر عشرة .. عشرين .. ثلاثين ..

أربعين .. ستين .. ثمانين .

هكذا تنهوى كالذباب .

والجيش الأردنى يتقدم .

والجيش السورى يضرب ..

والإذاعة تنطلق محمومة بالأناشيد .. اضرب .. اقتل .. والمذيع .. يهدد

بالويل والثبور .. وعظام الأمور .

والأنباء تتواتر بأن أفواج الطائرات المصرية .. تنز فوق إسرائيل ..

ومع ذلك .. فالضرب يتوالى .. والدوى يزداد .. والانفجارات تصم

الآذان ..

وبدأت حدة الحماس من الإذاعة تخف .
ولم تعد تعرف أنباء محددة عن القوات العربية .. أين هي .. وماذا تفعل .
وأذيعت الأنباء عن تدخل أمريكا بطيرانها .
وبدأت الإذاعات المحمومة تنقشع عن أناشيد وطنية .. تثير المواجه وتذكأ
الجراح .

وضاعت الجولان .. والضفة الغربية .. وسيناء .
وضاعت معها القوات العربية .. وانحسر ما تبقى منها غرب القنال ..
وشرق النهر .. ووراء الهضبة .

وبعد أيام سوداء كأنها الكابوس .. أو الحلم الثقيل .
أيام من الضجيج والدوى والصراخ والسهر والحيرة والجزع والتوتر .
وجد الشيخ عبد السلام نفسه يقف بباب داره .. وقد بدا كل ما حوله كأنه
خرائب وأطلال .

وصوت جنازير الدبابات الإسرائيلية يقطع الطرقات .: وصيحات الجنود
الإسرائيليين تتعالى هنا وهناك .
وجثث تتراعى على الأرصفة .. وبقايا دبابات محترقة في جوانب
الطرقات ..

ارتدت قوات العرب .. تحت حم الطائرات والمدافع والدبابات .
من أين أتوا بكل هذه النيران ..
كان كل شيء يبدو وكأنه قطعة من الجحيم .
واختفى ابنه عمار فلم يلقه منذ بدأ الضرب .
قد تكون جثته إحدى هذه الجثث الملقاة على الطريق .
وأحس العجوز بشيء يعترض قلبه ..
العجز مرير .. يا عبد السلام ..

أمر .. من الموت ذاته .

ذهب الصبى ولم يعد ..

كان يعرف أنها معركة خاسرة .. وكان يدرك أن شيئا أفضل يجب أن يفعل .. كان يقول إن الأهداف يجب أن توضح .. وتحشد لها الإمكانيات ويحدد الزمن .

كان يقول دائما .. رائع أن يصبح الإنسان شهيدا .. ولكن أروع من ذلك أن نفكر ونعمل وأن نحشد كل ما نملك من قدرة تبلغنا ما نستطيع من هدفنا وأن نواصل العمل والحشد في دأب وإصرار حتى نبغته .

خرج الصبى لكى يفعل شيئا .. أى شئ .. فقد كان يعرف أن الوقت لا يحتمل التفكير .. وأن عليه أن يشارك في المعركة الخاسرة .. يطلق رصاصة .. أو يقذف قنبلة .. أو يستشهد .

كم يحس الآن أنه يحبه .. رغم كثرة تأنيبه له .. على تجهمه وشروده .
وخرجت مى تنطلق هائمة .. تضمد جرحا .. أو تجبر كسرا .. أو تعطى جرعة ماء هالك .. يتوق إلى أن يطفئ قبل الموت ظمأه ..
وكاد الطفل الصغير أن يخرج هو الآخر .. لولا أن نهفته أمه وشخط فيه هو
قائلا :

— ماذا تظنها .. لعبة ؟

— بل حرب .

— وماذا تريد أن تفعل أنت في الحرب ؟

— أحارب .

— هل تجد هناك أحدا في مثل سنك يحارب ؟

— وهل عندهم أحد مثلى يريد أن يحارب ومنعوه ؟

— وبماذا ستحارب ؟

— سأخرج البندقية من وراء الصناديق .

- هذه ليست بندقية .
- سأطلب من أى جندي أن يمنحني بندقية .
- وبم يحارب هو ؟
- إن لديهم مدافع ..
- ادخل يا خالد .. ولا تتعبنى في المناقشة .
- ولكنى ..
- لو قلت كلمة أخرى فسأضربك .. فاهم .
- ودمعت عينا الطفل وهو يتمتم قائلاً :
- والله يا أبى أستطيع أن أحارب .. أستطيع أن أضربهم بحجر .. أو حتى أعضهم .
- وضمه الرجل قائلاً :
- سيأتى يوم يا بنى .. ولعلكم تستطيعون ما لم نستطعه نحن .. اصبر .
- ومرت الأيام السود ..
- لم يعرف كيف مرت ..
- لم يعرف ماذا حدث لعمار .. ولا ماذا حدث لابنته وزوجها عبد الكريم ..
- ويهدأ كل شيء .. وتبقى الحقيقة المرة .. فى تلك الجنائز التى تطوى الأرض .. لتعلن أن إسرائيل هنا .
- وأن الأرض .. القدس .. العريضة بمسجدها الطاهر قد احتلها الأندال ..
- الطغاة .
- وسمع صوت امرأته تصيح به من الداخل :
- ادخل يا عبد السلام .. ماذا تفعل عندك ؟
- أرقب عمارا .. لعله قادم .
- ادخل فقد يصيبك شيء فى وقتك .. إنك لا تحمل الوقفة .
- يصيبه شيء ..

- يا ريت ..
ماذا بقى منه يخشى عليه .
أليس الموت أفضل من هذا الذى هو فيه ..
ودخل إلى البيت ليجد امرأته تجلس مطرقة واجمة .. وقد أصابها الهزال حتى
بدت كالشبح .
وتساءلت فى صوت حزين :
— لماذا لم يعد عمار ؟
وهتف خالد :
— أأذهب لأبحث عنه ؟
ونهرته أمه قائلة :
— قلت لك لن تخرج .
— ولكن ألم تنته الحرب .. ألم يعلن العرب قبول وقف القتال ؟
ورد أبوه فى أسى :
— أجل ..
وعاد الطفل يتساءل :
— ولكن لماذا فعلوا هذا .. لماذا يوقفون القتال ؟
— لأنهم لم يعودوا قادرين عليه .
— لماذا ؟
— لأنهم .. لأنهم لم يعد لديهم أسلحة .
— وأين ذهبت أسلحتهم ؟
ونظر الرجل إليه فى غيظ وقال :
— ألا تكف عن أسئلتك السخيفة ؟
— أتعنى أن اليهود غلبونا ؟
— أجل ..

— ١٢٩ —

وتهدد الطفل وقال فى أسى :

— قلت لك أخرج لأضربهم .. فقلت لى لا .

ونظرت إليه أمه فى حزن ومصمصت بشفتيها :

— لم يكن ينقص العرب سواك .

وهز الصبى رأسه فى ضيق وعاد يقول :

— خسارة ..

وصمت برهة ثم استطرد :

— ولكن ألا نستطيع أن نعاود ضربهم ثانية ؟

— جائز .

وسمعت صوت خطوات تقترب .

كانت خطوات مى .

بدت معفرة الثياب مشوشة الشعر .

ورفع الرجل رأسه إليها منتظرا أن تقول شيئا وتساءلت الأم فى لطفة :

— أوجدت عمارا ؟

— أجل ..

— أين ؟

— فى بيت يحيى .

وأخرج الرجل زفرة ارتياح وغمغم قائلا :

— كيف وجدته ؟

— بخير .. وجدت فى ساقه جرحا فأخذه إلى الدكتور كمال فضمده له .

وتساءلت الأم :

— ولماذا لم يأت ؟

— ذهب هو ويحيى فى مشوار ..

— أم أن جرحه خطير ؟!

(ابتسامة على شفتيه)

— ١٣٠ —

— أبدا .. لقد غادر عيادة كمال سائرا على قدميه .
وبعد لحظة وصل عمار .. أشعث الشعر أغبر الوجه .. معتمه ..
دخل البيت دون أن ينيس بكلمة .. ولم يجسر أحد أن يوجه له كلمة .. دخل
إلى حجرتة وورقد على فراشه بملابسه .
وبدا كأنه استغرق في النوم .
واقترب منه خالد في خوف .. ووقف بجوار رأسه وهمس :
— عمار ..
ولم يجبه عمار .. فعاد يهمس بصوت أعلى :
— عمار ..
— ماذا تريد ؟
— هل حاربت ؟
— اذهب ودعني .
— لماذا ؟
واقترب منه الصبي وتحسس رأسه في حنان متسائلا :
— هل أنت متعب ؟
— أجل .
— لا بد أنك حاربت كثيرا .. ليتني كنت معك ..
وصمت الصبي وهو ينظر إلى عمار بإعجاب :
— صف لي .. كيف حاربت .. بيندية أم بمدفع .. لا بد أن تكون الحرب
شيئا هائلا .
وأطلق عمار من أنفه زفرة ساخرة وتمتم :
— لم تكن حربا .
— كيف ؟
وأقبل خالد يجلس على طرف الفراش منصتا في لهفة .

وتمتم عمار كأنما يحدث نفسه :

— كانت شيئا فظيعا ..

— كنت أسمع الدوى من هنا .. والانفجار والصراخ .. ألم تضربوهم أنتم أيضا ؟ ..

— كان كل شيء مضطربا مختلطا متشابكا .. ولم أكن أعرف أين هم وأين

نحن .. كنت أجرى أنا ويحيى والرفاق .. كان معنا بنادق وقنايل يدوية ..

وحاولنا الاشتراك في القتال .. وقتل بعضنا وجرح البعض الآخر .. وأخذنا

بعض جنودنا الجرحى ونخبأناهم .. ثم ذهبنا بهم إلى كمال .. ونزل معنا فلم

الجرحى من الطرقات .. قبل أن يدهسوهم بالدبابات .

وصمت عمار يبتلع ريقه .. وعاد خالد يتساءل في أسي :

— ولماذا غلبونا يا عمار ؟ ..

— كانوا كثيرين .. طائراتهم كانت تملأ السماء .. تذهب ونجىء .

— كنت أسمعها .. وظننتها طائراتنا .

— ودباباتهم كانت تتدفق علينا من كل ناحية .

وتنهد عمار وهو يغمض عينيه كأنما يحاول أن يتجنب منظرا كريها .

— لقد صمد جنودنا . فعلوا كل ما يمكنهم .. ولكننا كنا ضيولين ..

وأقبل الشيخ عبد السلام على ولده وهو في رقده اليائسة وتحسس رأسه في

حنان قائلا :

— قم يا عمار .. قم لتغتسل وتغير ثيابك .

واستمر عمار في رقده .. واقتربت مى ووقفت ترمقه في حب وجزع

وودت لو تضم رأسه إلى صدرها وسألته :

— أجهز لك الطعام يا عمار ؟

ودون أن يفتح عمار عينيه هتف بهم :

— دعوني برهة .

وقال الأب لمى وخالد :

— ١٣٢ —

— اذهبا الآن . اتركا وحده .
وغادرت مى وخالد الغرفة وبقي الأب . وجر مقعدا وجلس يرمق ولده فى صمت .

وأخس عمار أن أباه يجلس قبالة . ففتح عينيه وتساءل فجأة :

— ماذا فعل المصريون ؟

— انسحبوا وراء القناة .

— مصيبة .

— وأعلن الرئيس جمال عبد الناصر تنحيه بالأمس .

ووثب عمار كمن لدغته عقرب وصاح بأبيه :

— ماذا تقول ؟

— نخطب الرئيس عبد الناصر فى الإذاعة .. وأعلن تنحيه عن السلطة .

وأمسك عمار بذراع أبيه صائحا :

— لماذا .. نحن جميعا مسئولون عما حدث .. كل منا يحمل نصيبه من

العبء .. فلماذا يتنحى هو .. وعم يتنحى .. إنه ليس صاحب منصب .. إنه

جزء منا .. ومعركتنا يا أبى طويلة .. طويلة .. لقد وقعنا فى الشرك .. وكلنا

مسئولون .

وعاد عمار يهز ذراع أبيه وهو يهتف متشنجا وقد اغرورقت عيناه :

— لماذا .. لماذا ؟

— اهدأ يا بنى .. اهدأ .. لا فائدة من كل هذا الآن .. لقد كنت تقول

دائما .. إن علينا أن نفكر وأن نعمل .. ولكى نفكر يجب ألا نفقد وعينا .

وعاد عمار يتمتم :

— مصيبة .. يجب ألا يتنحى .. يجب أن يبقى ليوصل المعركة .. إننا لم ننته

يا أبى ..

— أعرف يا عمار أعرف .. نحن أمة كبيرة .. كبيرة .. لن تنهينا معركة

أبدا .

— أوجل يا أبى .. قل لى هذا .. قل لإننا لم ننته .. ولن تنحى الهزيمة
عبد الناصر .. ليست إسرائيل هى التى تفعل بنا هذا .. أبدا .
واندفع خالد يعدو من الغرفة المجاورة وهو يصيح ..
— أعلنت إذاعة صوت العرب عودة عبد الناصر ..
وأقبلت مى تؤكد النبأ قائلة :

— قالوا إن المظاهرات عمت كل البلاد العربية .. وإن الحياة توقفت فى مصر
تماما .. حتى عاد عبد الناصر .
وتنفس عمار الصعداء كأنما ألقى من فوق كاهله عبئا أنقض ظهره وتمتم
قائلا :

— كان أمرا غير معقول . إننا نحتاج إليه أكثر من أى وقت مضى .. لا يجب
أبدا أن نركع أمام إسرائيل .
ومرت أيام بالقدس .. وبدأت الحياة تدب فى المدينة فى رهبة وحذر ..
وبدا كأن الإسرائيليين يحاولون اجتذاب أهل المدينة إليهم .
وفى ذات مساء أقبل الشيخ جعفر الجواهرجى جار الشيخ عبد السلام
مستأذنا فى الزيارة .

ورحب به عبد السلام قائلا :

— تفضل يا شيخ جعفر تفضل ..
وكان الجو ساكنا والنسمة لا تكاد تقوى على هز أطراف شجرة الليمون .
وجلس الاثنان فى الشرفة وسأله عبد السلام قائلا :
— تشرب شايا .. أم شيئا باردا ؟
— أشرب معك أى شىء تريد .
— نشرب شايا إذن .

وصفق بيديه فأقبلت الشغالة فأمرها بعمل فنجانين من الشاى .

— ١٣٤ —

وبدأ الرجل حديثه بالسؤال عن السوق .

ورد عبد السلام في تبرم قائلاً :

— لا أحد يشتري ولا أحد يبيع .

— لماذا ؟

— ألا تعرف لماذا يا شيخ جعفر .. من الذى يغادر داره .. فى هذا الجو

البغيض .. إلا للضرورة الماسة .. هل حالك أنت على ما يرام ؟

— لقد كان حالى على غير ما يرام قبل العدوان .. واستمر بعده على غير

ما يرام .. فلست أظن العدوان قد فعل بى شيئاً .

— إنه كابوس يكتم أنفاسنا .

— لماذا يا شيخ عبد السلام... إن الحال ليس شيئاً كما تقول .. وهم يحاولون

أن يفعلوا من أجلنا كل شيء .

— ما هذا الذى يفعلونه من أجلنا ؟

— إنهم يحاولون التلطف معنا .. وهم يجيئوننا إلى كل ما نريد .

— إذن فليذهبوا عنا .. فإن هذا هو كل ما نريد .

— يا أخى إنهم سينعشون أسواقنا .. وسيجعلون البلد شيئاً آخر .. ماذا

أخذنا من العرب غير المصائب ؟..

— ما هذا الذى تقوله يا شيخ جعفر .. أجرى لعقلك شيء ؟.. لماذا تتساءل

عما أخذناه من العرب .. كأننا لسنا عرباً .

— العرب قد تركونا فى الملاجئ عشرين عاماً .. ولم يسمحوا لنا بأن نكون

مواطنين فى بلادهم .

— لو حدث هذا .. لذابت فلسطين ..

— ومن أجل هذا تركونا فى الملاجئ ؟

ونظر عبد السلام إلى الرجل فى ريبة وقال :

— كلامك غريب يا شيخ جعفر !

— كلامى هو الحقيقة يا عبد السلام .. إن العرب هم المسئولون عن كل

— ١٣٥ —

ما حدث لنا .. وإسرائيل على استعداد لأن تتفاهم معنا .. وتعيد كياننا وتجعل منا دولة في اتحاد معها .

— من قال لك هذا ؟

— قاله لي أحد ضباطهم الكبار .

— هكذا ..

— لم يقله لي وحدي . إن قادتهم قد عرضوه على كل من له قيمة بيننا .

— إنهم مجانين إذا ظنوا أن هناك من يقبل هذا الهراء .

— لماذا .. إننا سنستعيد كياننا .. وسنستفيد من الاتحاد معهم .

— أجننت يا شيخ جعفر .. كيف تقول هذا الكلام .. لو أعرف أنك جئت من أجل هذا .. لما قبلت الجلوس معك .

— يا شيخ عبد السلام .. إن علينا أن نفكر بعقل .. كفانا ما عانينا من بؤس .. كفانا تشريد .

— ومن أجل هذا تريدنا أن نقبل الخضوع لهم ؟ ..

— إننا سنصبح بلدا مستقلا .. سنعيد فلسطين مرة أخرى .

— بل سنستعبد بإرادتنا .. إن الكلام في هذا جريمة .

— يبدو أني لا أعرف كيف أقنعك .. ما رأيك لو لقيت الرجل ..؟ إنه يود أن يلقاك .

— أنا لا أحب أن ألقى أحدا ..

— حتى ولو طلب أن يأتي لزيارتك ؟

— حتى لو طلب هذا .. أنا حر في بيتي .. ألقى من أشاء .. وأرفض لقاء من أشاء .

— أنت عنيد يا عبد السلام . إن لقاء الرجل لن يخرسك شيئا .

— إني أعرف ماذا فعلوا بنا .. وماذا يريدون منا .. إني أعرفهم جيدا يا شيخ

جعفر .. فقل لهم أن يبعدو عني .. لم يعد لي من مطعم في شيء إلا في أن أفعل شيئا لهذا البلد الذي خذلناه طويلا .

لا يشربُ القهوة ..

قبيل الظهر .. والأذان يوشك أن يؤذن .
 الشيخ عبد السلام جالس في حانوته وقد بدا عليه الهزال والأسى وإحدى
 عربات الجيش الإسرائيلي تتوقف أمام الحانوت .. وينزل منها رجلان .
 يسأل أحدهما بالعربية :
 — الشيخ عبد السلام ؟
 — أجل .

وينقل الرجل كلاما بالعبرية إلى الرجل الآخر الذى يرد عليه بالعبرية فينقل
 حديثه بالعربية إلى الشيخ عبد السلام .
 ورغم ما حاول أن يحيط به المترجم الرجل الآخر من مهابة فقد استمر الشيخ
 عبد السلام جالسا في مقعده .
 لم تكن قدمه تساعد على الوقوف بسهولة وكان يحس بنفسه عزوفا عن
 الحديث مع الرجل .

كانت بنفسه من المرارة والأسى واليأس والعجز ما يجعله مغلوبا على أمره .
 وكان كل ما يبغيه هو أن يترك في حاله .
 ولم يكن يبدو على الإسرائيليين مظاهر التهجم أو التحدى .. أو الرغبة في
 الإيذاء . كان المتحدث يتسم والمترجم ينقل الحديث بابتسامة .
 قال المترجم بابتسامته المنقولة :

— الكولونيل يود أن يشرب فنجانا من القهوة .
 ولم يكن الكولونيل الإسرائيلي يرتدى ثيابا عسكرية .. وكان يبدو أسود

الشعر شرق الملاح .

ورفع الشيخ عبد السلام بصره إلى الرجل يتأمله في صمت ثم قال في نبرات هادئة :

— هنا متعرج أقمشة .. قل له أن يذهب ليشرّب فنجان القهوة في أحد المقاهي .

وبدا التردد على وجه المترجم كأنما استكثر على نفسه ترجمة مثل هذا القول .. ولكن نظرة الرجل المستفسرة جعلته ينقل الحديث إلى العبرية .

ورد الرجل بابتسامة ونقل المترجم حديثه قائلا :

— يقول الكولونيل إنه يرغب في أن يشرب القهوة معك .

وبنفس النبرات الهادئة وهو مستمر في الجلوس في مقعده قال الشيخ عبد السلام :

— قل له إني لا أشرب القهوة .

واستمر الحوار المترجم .. قال الكولونيل دون أن يفقد صبره أو ابتسامته :

— إذن فلندخل في الحديث .. بلا قهوة ..

— أى حديث ١١؟

— حول الحالة في البلد .

— ليس الحديث من شأنى .. أنا أعمل تاجر أقمشة .

— إذن أريد قطعة قماش ..

وزفر الشيخ عبد السلام في ضيق وقال محاولا إنهاء الحديث وهو ينهض متثاقلا :

— ليس لدى وقت للبيع .. سأغلق الحانوت وأذهب للصلاة .

— ولماذا تغلق الحانوت .. أليس هناك من يساعدك ؟

وباقضاب شديد أجاب عبد السلام :

— لا ..

— ١٣٨ —

- وابنك !!؟
- ونظر إليه عبد السلام في خشية قبل أن يجيب متسائلا :
- ماله ابني ؟
- ألا يعاونك في الحانوت ؟
- أجل ..
- إذن فأين هو ؟
- وعاد عبد السلام يزفر زفرته الضائقة وتساءل في غيظ :
- أهو تحقيق ؟
- أبدا .. أبدا .. لقد أتينا كأصدقاء .
- أصدقاء !!؟ أنتم !!؟
- نحن نبسط إليكم يدنا .
- وجذب عبد السلام باب الحانوت فأغلقه ثم أعطاهم ظهره وسار تجاه المسجد دون أن يرد بكلمة .
- وعاد الإسرائيليان إلى العربة وقد بدت على الكولونيل مظاهر الضيق والغيظ وتمتم الرجل الآخر قائلا وهو يحاول تهدئته :
- المسألة تحتاج إلى وقت .
- وفي المساء جلست الأسرة حول مائدة العشاء وتساءل عبد السلام في قلق قبل أن يبدأ الطعام :
- ألم يعد عمار ؟
- وردت الأم في دهشة :
- ألم يكن معك طيلة اليوم ؟
- وهز عبد السلام رأسه وتمتم قائلا :
- لقد فتح الحانوت واستأذن وانصرف .
- ألم يعد بعد ذلك ؟
- لم أره طيلة اليوم .

— ١٣٩ —

- ألم يقل لك إلى أين هو ذاهب ؟
- ليست هذه المرة الأولى التي يستأذن ويظل غائبا طوال اليوم ..
- ألا يخبرك عن مكانه حتى نطمئن عليه ؟
- أنا لا أريد أن أشده بجوارى .. ولا أريد أن أثقل حركته بسؤالي ..
- والعمل في الحانوت لا يحتاج إلى جهد .. وأنا قادر على حمل عبئه .
- وقال خالد :
- أنا أعترف أين يذهب .
- وزجرته مى قائلة :
- كل يا خالد ولا تتدخل فيما لا يعينك .
- ورد خالد في دهشة :
- ولكنى لن أقول لأحد ..
- كل .. كل .. وانفض حتى تستذكر .
- أستذكر ماذا .. نحن لا نأخذ دروسا .
- ذاكر ما أخذته من قبل .
- ولكن متى سنحارب اليهود ؟
- وزفر الشيخ عبد السلام زفرة حارة وتمتم قائلا :
- يوما ما .. ولكن عندما يأتي .. لن نحمل كبوة أخرى .
- وسمعت وقع خطوات ولم يلبث عمار حتى بدا بالباب ؟
- ونادته أمه وهى تجده يتجه رأسا إلى حجرته :
- كل لك لقمة قبل أن تنام .
- أكلت .
- وقبل أن يصل إلى باب غرفته قال الأب فى لهجة بها شيء من السخرية .
- سأل الكولونيل عنك اليوم .
- وتوقف عمار برهة مأخوذا وبعد أن تمالك سأل أباه فى صمت هادئ :

— أى كولونيل ؟

— لم أحاول أن أسأل عن اسمه .. أتى ومعه مترجم وقال لى إنه يريد أن يشرب القهوة وطلبت منه أن يذهب إلى مقهى . المهم لم أدع له فرصة الحديث وعندما هممت بإغلاق الحانوت لكى أذهب إلى الصلاة سألت عنك قائلاً ألا يساعدك ابنك ؟ .

— وماذا قلت له ؟

— قلت له أجل .. فلما سألت أين أنت .. ضقت به ذرعاً فاعتذر وقال إنهم أتوا كأصدقاء .

وبدا عمار وهو يحاول أن يكتب انفعاله ثم قال لأبيه :

— لا تلقهم يا أبى .. إنهم يلعبون لعبة قدرة .

— أعرفها .

— كيف ؟

— سردها لى الشيخ جعفر محاولاً أن يقنعنى بها .

— إن علينا أن نقاوم كل ألاعيبهم ومناوراتهم .. وأن نصمد كل محاولتهم للتغير بالضعفاء منا .

— لقد رفضت كل محاولة للمناقشة معهم .

— لا يكفى هذا .. إننا سننظم عملية إضراب شامل .. كما سننظم توزيع المنشورات .. وسندع كل من تسول له نفسه للخضوع لمناوراتهم أو محاولة التفاهم معهم .. إننا ندبر ...

وقبل أن يتم حديثه سمع صوت عربة تقف بالباب وصوت أقدام تسرع الخطأ على الدرج .

وطرق الباب فى شئ من العنف .. وأصاب الأسرة إحساس بالجزع ..

واتجه عمار إلى الباب ليفتحه .. وحاول الأب أن يسبقه إليه صائحاً :

— لا تفتح أنت يا عمار .

ولكن عمار كان قد فتح الباب ليواجه المترجم الإسرائيلي الذي زار الحانوت في الصباح يقول بالعربية :

— مساء الخير ..

وميز الأب وجهه وصوته .

ولم يجب أحد تحيته .. واستطرد هو يقول :

— الكولونيل يريد أن يزور الشيخ عبد السلام .

وصاح عبد السلام :

— قلت إني لا أريد أن أحدث أحدا ..

وقبل أن يرد المترجم أفسح الطريق لجندي يحمل مدفعا رشاشا وتبعه

الكولونيل يخطو إلى الداخل في خطا ثابتة .. ملقيا التحية بالعبرية ونقلها المترجم قائلا :

— الكولونيل يقول لكم مساء الخير وهو يعتذر إذا كان الوقت غير مناسب

للزيارة .

وبدأ الكولونيل حديثه عبر المترجم قائلا :

— آسف يا شيخ عبد السلام .. ولكن يبدو أن الصباح لم يكن ملائما لك ..

وأن الحانوت لم يكن المكان المناسب للزيارة ولذلك فضلت أن أحضر إلى البيت في المساء فأرجو ألا أكون قد أزعجتكم .

وكانت الأم قد هرولت إلى الداخل وبقيت مى ووراءها خالد يتطلع في

دهشة إلى ما يدور أمامه .

وبدا عمار متحفزا للمقاومة ولكن الشيخ عبد السلام تقدم وأزاحه جانبا

وهو يقول متحديا :

— ما دمت تصر على الكلام .. فسأتكلم .. ادخلوا .

وأشار إلى مى قائلا :

— ادخلي بخالد يا مى .

ثم قال لعمار :

— دعنا يا عمار برهة .

ولكن عمار ظل واقفا في مكانه في إصرار وتمتم قائلا :

— ألا أستطيع أن أحضر المقابلة ؟

وسار عبد السلام إلى الشرفة وتبعه الرجل وهو يشير إلى الجندي قائلا :

— انتظر في العربة .

وتردد الجندي برهة ولكن الرجل قال باسم :

— لقد أقبلنا كأصدقاء .. وأرجو أن نعامل كأصدقاء .

وترجم المترجم قوله وهو يتبعه إلى الشرفة .

واستقر الأربعة وساد الصمت برهة والشيخ عبد السلام يتطلع إلى وجه

الرجل في قلق ينتظر أن يبدأ الحديث .

ولم يطل صمت الرجل .. قال بابتسامته المعلقة على شفثيه في لهجة كساها

ما استطاع من مودة .

— كيف حال السوق عندكم ؟

وقبل أن يجيب الشيخ عبد السلام وقبل أن ينقل المترجم كلماته استطرد

يقول :

— يبدو أن الحالة كاسدة .

وترجم المترجم قوله ولكن عبد السلام لم يرد واستمر الرجل في حديثه :

— سنفتح لكم باب الاستيراد وستدفق البضائع عليكم وسينتعش السوق .

وصمت الرجل برهة منتظرا رد عبد السلام .

وعندما طال انتظاره قال الشيخ عبد السلام في لهجة مقتضبة :

— لماذا لا ندخل في الحديث الذي أتى من أجله .. هل أتى ليتحدث عن

السوق ؟

ورد الرجل بلهجته الرقيقة :

— ١٤٣ —

- أرجو أن نتحدث كأصدقاء .
- وقال الشيخ عبد السلام في حدة :
- ولكننا لسنا أصدقاء .
- ولماذا لا نكون ؟
- كيف ؟
- تتركونا نعيش معكم في سلام ونتعامل معكم كأصدقاء .
- ولكنكم لم تتركونا نعيش في سلام .. ونحن لم نعد شيئا حتى نستطيع أن نتعامل معكم في سلام أو غير سلام .. لقد سلبتمونا وطننا ..
- بل لقد عدنا نحن إلى وطننا .
- بأى حق ؟
- بحق التاريخ .. لقد وعدنا بالأرض المقدسة .
- ممن . ؟
- وقال عمار في سخرية :
- من بلفور .
- بل من الله .
- الله وعدمكم بأرض تطردون أهلها من دورهم وتشردونهم من أوطانهم ..
- وتذبحونهم وتبقرون بطون نسائهم .. أى إله هذا الذى وعدمكم بهذا ؟
- لقد كانت أرضنا المقدسة .
- إنها مقدسة عند كل الناس .. وهي مفتوحة لكل الأديان حكمها في ذلك حكم كل مكان مقدس . وحقكم في الوطن الذى تدعونه منذ آلاف السنين ليس أكثر من حق الهنود الحمر في أمريكا . وهو وطن بلا معالم ولا حدود .. أنتم أنفسكم لا تعرفون حدودا .. هل هى أرض داود .. أم كل أرض وطقتها قدم جندي إسرائيل .. أو هى الأرض التى تتيح لرأس المال اليهودى في أمريكا أكبر حد من الاستغلال ؟

— لقد استقررنا فى أرضنا بطريقة أو بأخرى .. وعجلة الزمن لا يمكن أن تعود القهقرى .. والواقع هو الواقع . فلماذا لا تدعوننا فى أمان ؟
— إنكم .. وأنتم مستقرون فى بيوتنا وفى أرضنا . لا تتركونا نعيش فى أمان .. فكيف تريدنا أن نفعل .. ونحن سجناء معسكرات اللاجئيين .. بلا بيت .. ولا عمل .. ولا هوية .
— إن البلاد العربية يمكن أن تتسع لكم .. إنها مليئة بالأراضى الواسعة وبفرص العمل .

— ويضيع وطننا ببساطة .. يذوب كما تذوب قطعة الجليد فى وهج الشمس .. إذا كنتم أنتم تحاولون استعادة وطنكم بعد آلاف السنين .. بعد أن ذبتم فعلا بين شعوب العالم وأصبحتم جزءا منها .. فكيف تريدون منا أن نلغى وطننا .. ولم يمر علينا سوى عشرين عاما من التشريد .. ودوى رصاصكم مازال فى آذاننا وجراح خناجركم ما زالت تدمى قلوبنا .
— نحن أيضا قاسينا آلاما لم يقاسها أحد .. ساقونا بالملايين إلى معسكرات التعذيب .. لنحرق فى أفرانها كأكوام القمامة .. وسلخت جلودنا لكى يعمل منها ضباط النازى دفوفا وأباجورات .

— وورثتم أنتم لعبتهم .. أليس عجيبا أن يرث القتل .. مواهب القاتل .. لماذا تحملوننا عبء ذنب النازية .. لماذا نحن من دون العالم نتحمل وزرهم .. وتوقعون بنا ما أوقعوه بكم .
— نحن لم نقصدكم بالذات . ولكن كنتم فى طريقنا إلى هدفنا .. ولا بد من أن نفسح الطريق ..

— فدهستمونا !! أزحتمونا من الطريق .. كما يزج البلدوزر أكوام التراب والحجارة .. بلا إنسانية .. اقتلعتمونا من أرضنا حتى تسووها لأنفسكم ..
— لقد زرعنا الأرض وخضرناها .
— بدمائنا .. وبأشلائنا .

— لماذا تتكلم عن الماضي ؟

— هل الحاضر أفضل من الماضي .. أنتم تطلبون الأمان بالقوة .. تريدون العيش فى سلام بقتل من حولكم .. وتلغون طبيعة الإنسان .. والتاريخ .. والمنطق .. كيف يمكن أن يستقر شعبكم .. وفى كل مكان يئذ من حوله بذور الكراهية والحقد .. فى كل يوم .. عدوان جديد .. رؤوس تتهاوى ودماء تراق .. وأرض تنزع .. وبهذه الوسيلة .. تسألون الأمان .. وتبحثون عن السلام .. وكل نقطة دم تراق .. هى وقود لإشعال نار الكراهية لكم .. والأمان لا يرجى بالكراهية .. إن القوة قد تكسب الأرض .. وقد تخضع الجيوش .. ولكن ما تطلبونه من أمان واستقرار .. وسط جيران أصدقاء .. تمارسون معهم علاقة جيرة طبيعية .. لا يمكن أن يكتسب بالقوة .. فميزان القوى متغير .. ومقياسها غير ثابت .. وأنتم أنفسكم بلا قوة ذاتية .. إنها قوة غيركم .. أنتم تعيشون على دم صناعى .. وبقاؤكم على المدى الطويل .. لا يكون إلا بوجود أمن طبيعى .. وهذا لا يمكن أن يفرض بالعدوان .. وبالإرهاب .. أنتم بلا قلب .. وبلا عقل ..

— ولكننا على استعداد للتفاهم معكم ..

— التفاهم على أى شىء ؟

— إننا نستطيع أن نحقق لكم كيانكم .. وأن نعيد إليكم وطنكم ..

— كيف ؟

— تمارسون نوعا من الحكم الذاتى فى الضفة الغربية .. على أن تكونوا معنا اتحادا ..

— ونكون بغير جيش ؟

— ولماذا تحتاجون إلى جيش ؟ إن جيشنا سيحميكم .

— جيشكم سيخضعنا .. سنكون إحدى مقاطعاتكم ومارسون فينا كل

أنواع التمييز العنصرى .

(ابتسامة على شفثيه)

— ١٤٦ —

- إنكم ستكونون معنا أفضل حالا مما أنتم مع العرب .. سنحقق لكم ما لم يحققه العرب .. إن العرب لم يفعلوا لكم سوى التشريد .
- إننا عرب ونحن نحمل مسئولية كل ما حدث كجزء من الأمة العربية .. ونحن لا نقبل أن نكون ولاية إسرائيلية .
- ولكننا سنحقق لكم مزايا لا تحلمون بها . انظروا كيف أصبحت الأرض كالبساط الأخضر .
- نحن قادرون على هذا .
- سنحقق المساواة لكم .
- إذا كان الأمر كذلك .. فلماذا لا تقبلون عودتنا إلى أرضنا . ونعيش كلنا في بلد واحد تتساوى فيه جميع الأديان .
- وفكر الرجل برهة :
- ولكن ستكون لكم الأغلبية .. وستمحي الدولة اليهودية .
- أنتم إذن تصرون على دولة عنصرية .. تجمعون فيها كل يهود العالم .. لكي تنضخمو .. وتمددوا .. وتبتلعوا الوطن العربي قطعة قطعة .. وتحققوا حلمكم القديم وإمبراطوريتكم ، الممتدة من النيل إلى الفرات .. أهذا هو العيش الآمن الذي تريدونه معنا ؟.
- ونظر الرجل إلى الشيخ عبد السلام في ضيق وقال :
- أنت غير قابل للمناقشة .
- وفجأة نطق بالعربية في غضب :
- رأسك كالبحر .. لا ينفع معه غير الدق .. أنتم عرب ..
- وسمع من الداخل صوت فاطمة التي كانت ترهف السمع إلى الحديث الدائر في الشرفة فهتفت قائلة :
- تعبتنا الله يتعب قلبك .. لما بتعرف عربى لماذا لم تنطق من الأول ؟.
- ورفع الشيخ عبد السلام رأسه وقال للرجل دون أن تبدو عليه أية دهشة لأنه

يتكلم العربية :

— أنت أيضا عربى .. أنت أقرب لنا من أولئك النازحين من كل بقاع العالم .. من أستراليا ورومانيا وكندا .. أنت تطرب للأغنية العربية كما أطرب لها .. وأنت مستعمر مثلى .. إن فلسطين بلدنا معا .. وهم يحتلون أرضنا .. هؤلاء الغزاة القادمون من كل القارات ليكونوا بلدا .. بلا لغة تجمعهم .. ولا أصل يلم شمله .. لا شيء إلا العنصرية الدينية .. وغدا سيأتى عليكم الدور .. فى التمييز العنصرى .. إنكم .. ستبقون دائما .. جنسا آخر .. جنسا أدنى .. أنت تعرف كم أكرمكم العرب وأنتم بينهم .. كعرب .. كنتم فى كل بلد عربى تعيشون كأهل بلا تفرقة ولا تمييز .. حتى عدوتم على العرب .. وسمتموهم العذاب والتشريد .

ونفض الرجل وقد كست وجهه علامات التجهم قائلا بالعبرية :

— انتبهنا .. لا فائدة منك .

— ولن تجد هناك فائدة من أحد ..

— بل هناك من يفهمونا .

وهتف عمار :

— خونة .. سيلقون مصيرهم .

— الذين سيلقون مصيرهم .. هم الذين سيقاومونا .. إننا بسطنا

لكم يدنا .. فإذا لم تقبلوها .. فلعل وسائل أخرى تقنعكم .

وغادر الرجل البيت .. وخلف وراءه صمتا ثقيلا .

وتتمم الشيخ عبد السلام :

— لعله لا يحاول بعد هذا أن يشرب معى فنجانا من القهوة .

وقالت فاطمة :

— يشرب سم لما يهرى جوفه .. إنه يهددنا .. هل تراه سيفعل معنا شيئا ؟

وسار عبد السلام فى خطواته الثقيلة وهو يتمتم :

— الله يلطف بنا .

— ١٤٨ —

ثم التفت إلى عمار قائلا :

— خذ بالك من نفسك يا عمار .. إنهم لن يرحمونا .

وقال عمار في تحد :

— ونحن لن نرحمهم ..

وبعد بضعة أيام بدأت المنشورات تغمر البلد .. تفضح المناورة الخبيثة التي يحاول العدو أن يحيك أطرافها . وينصب حائلها .

وبدأت حركة الإضراب والمقاومة السلبية . لتقطع كل السبل على محاولات المحتل .. لتثبيت دعائم احتلاله وإشاعة روح الاستسلام بين المواطنين .

وفي ذات صباح استيقظ عمار مبكرا .. وأحسّت به مى وهو يرتدى ملابسه وسألته قائلة :

— مالك قد استيقظت مبكرا ؟

— عندى مشوار .

— إلى أين ؟

— خارج البلد .

— ومن سيفتح الحانوت ؟

— يفتحه أبى على مهله .

— هل يعرف أنك ذاهب ؟

— قلت له بالأمس إن عندى مشوارا .

— وماذا قال ؟

— لم يقل شيئا .

— لعله لم يسمع .

— إذن فقولى له .

— هل ستأخر ؟

— قد أبيت في الخارج .

— ١٤٩ —

- وصمتت مى وهى تنظر إليه فى قلق. ثم تساءلت لتطيل فترة البقاء معه :
- أعد لك الفطار ؟
- ليس لى شهية للأكل .
- أجهز لك ساندوتش ؟
- لا ضرورة ..
- سأعده بسرعة .. انتظر لحظة .
- وفى دقائق أعدت رغيفا ملأته بالجبن ولفته فى ورقة ثم أعطته إليه قائلة وقد بدا عليها مزيد من القلق :
- خذ بالك من نفسك يا عمار .
- ربنا يستر .
- وددت لو أذهب معك .. وددت أن أفعل شيئا مفيدا .
- يوما ما ستفعلين .. إذا تأخرت فقولى لأمى ألا تقلق .
- وأمسكت بذراعه برفق وهتفت :
- كيف لا تقلق ؟ ..
- ثم هتفت فى حنان :
- أنت لا تعرف قدرك عندنا يا عمار .
- وهم عمار بالخروج ولكن كف مى ظلت ممسكة بذراعه .. وهمست
- قائلة :
- ابتسم يا عمار .. أحب أن أذكرك وأنت مبتسم .. حتى أستطيع أن أرسم فى الصورة بسمتك .
- وبدل أن يضع عمار ابتسامته على شفثيه كسا وجهه مزيدا من الصرامة وقال
- لمى وكأنه يحدث طفلة صغيرة :
- أهذا وقته .. أية صورة هذه التى ترسمينها .. قلت لك افعل شيئا أفيد ..
- نحن فى معركة .

— ١٥٠ —

وبدا الخجل على وجهه مى .. وهى تتطلع إليه فى شغف وهتفت قائلة :
— أنا آسفة .. لن أذكرها لك بعد ذلك ..
وصمتت برهة ثم أردفت :
— ولكن قل لى .. ماذا أستطيع أن أفعل .. أى شىء مفيد يمكن أن أؤديه ؟
— ذات يوم سأخبرك ..
وجذب إذراعه من كفها قائلاً :
— دعبنى الآن فقد تأخرت .
وفى رفق عادت تقول فى صوت خافت :
— خذ بالك من نفسك .. ربنا يحملك .
وانطلق عمار .. وضوء الصبح ينشره شعاع أحمر رقيق .. يترامى من الأفق
الشرقى .

ضرورات الحياة

أقبلت أميرة على بيت الشيخ عبد السلام والشمس توشك على المغيب ..
طرقت الباب ففتح لها خالد ومن ورائه أقبلت مى ، تهتف مرحبة :
— أهلاً أميرة .. مساء الخير .

— مساء النور .. خير إن شاء الله .. مضى يومان دون أن نراك فى المدرسة ..
— خالتي متوعدة .. وعمار مشغول .. وعمى الحاج لم تعد صحته تحمل
عبء الحانوت . وكان على أن أذهب هنا وهناك .. لأننى بعض الأعمال التى
لا تتحمل الإرجاء .

— لقد أصابنى القلق لغيبتك فحضرت لأطمئن عليكم .. كيف حال خالتي
فاطمة الآن ؟

— أفضل .. لقد كانت نزلة برد .

— ولماذا لم تطلبوا كمال ؟

— لم نشأ أن نقلقه .. اتخذنا الاحتياطات اللازمة .. ولقد خفت النزلة
والحمد لله .

— كان يجب أن ترسلى فى استدعائه .. أنت تعرفين كم يحبكم .

— نحن أيضاً نعزه كثيراً .. إنه عند خالتي بمنزلة عمار .. وكيف حال
المدرسة ؟

— كحال أى شىء .. يمنحك الإحساس بأننا نجلس على فوهة بركان .. لقد
حضر اليوم مندوب عن سلطة الاحتلال وأخطرونا بتغيير البرامج الدراسية وتغيير
الكتب .

— لماذا ؟

— قالوا إنها تهدف إلى إشاعة العنصرية .. وغرس الكراهية لليهود .
— هكذا !! كأنهم لا يمارسون التفرقة العنصرية .. وكأن كراهيتهم تحتاج إلى كتب .

— من حسن حظك أنك لم تحضرى هذين اليومين إلى المدرسة .
وردت مى فى تحد :

— سأحضر غدا وسأعرف كيف يمكنهم أن يغيروا البرنامج الذى أدرسه .
وأقبل خالد يتساءل :

— هل سنأخذ كتباً جديدة ؟
وردت أميرة :

— أجل .

— هل ستعلمنا كيف نضرب البندقية ؟
— وهل تريد أن تتعلم ضرب البندقية ؟
— طبعاً ..

— ولماذا لا يعلمك عمار ؟

— عمار مشغول دائماً .

— عندما يحضر رؤوف سأجعله يعلمك ضرب البندقية .

— رؤوف من ؟

— رؤوف خطيبى .

— وأين هو ؟

— فى القاهرة .

— وهل يعرف كيف يضرب البندقية ؟

— إنه يعرف كيف يضرب المدفع ويسوق الدبابة .

— وكيف تعلمها ؟

— ١٥٣ —

- إنه ضابط في الجيش المصرى .
- ولكن الجيش المصرى غلب .. لقد ضربه اليهود ..
- وصمتت أميرة برهة وقد بدا عليها الشroud ثم قالت وهى تتحسس شعر خالد فى حنان :
- هناك أشياء كثيرة لم تعرفها يا خالد .. والجيش المصرى قد ظلمته ظروف .
- المعركة .. كل العرب مسئولون عن هزيمة جيوشهم .. فيجب ألا نحمل الجيوش وحدها مسئولية الهزيمة ..
- يعنى هل يعرف خطيبك الضابط كيف يعلمنى ضرب البندقية ؟
- طبعا .
- متى ؟
- عندما يأتى .
- هل سيأتى إلى هنا ؟
- بالطبع لا .
- لماذا ؟
- لن يسمح له اليهود .
- إذن كيف سنراه ؟
- سيأتى إلى عمان .
- وتساءلت مى فى دهشة بعد أن كانت تنصت إلى الحوار فى غير اكتراث :
- أتتكلمين حقا ؟
- أجل ..
- هل سيأتى رءوف إلى عمان ؟
- وهزت أميرة رأسها بالإيجاب .
- وتساءلت مى :
- كيف عرفت ؟

- كتب لى .
— متى ؟
— وصلتنى رسالته بالأمس .. حملها إلى أحد أصدقاء كمال الذى كان فى القاهرة .
— أهى أول مرة يكتب لك ؟
— كتب إلّى قبل هذا بضعة سطور ليطمئن علّى ويطمئننى على نفسه .
— وكيف حاله ؟
— وقلبت أميرة شفتيها ثم تمتمت :
— يعنى ..
— وربت مى ظهر خالد قائلة :
— اذهب يا خالد .. لعل أملك تريد شيئا .
— ولكنها لم تنادنى .
— اذهب وذاكر .
— ألم تقولوا إن الكتب ستغير ؟
— اذهب وافعل أى شىء .. لقد قلت لك مائة مرة لا تجلس هكذا محشورا وسط الكبار .
— وانصرف خالد بخطى متثاقلة وقد بدا عليه الامتعاض . والتفتت مى إلى أميرة متسائلة :
— يعنى ماذا .. هل أخبرك شيئا عن حالهم فى مصر ؟
— وتمتت أميرة وقد بدا الأسى على وجهها :
— قال لى إنهم أخذوا ضربة قاصمة .
— ثم ماذا ؟
— أحسست المرارة تقطر من كلماته .. قال لى إن هواية الناس قد أضحت التنكيث على الجيش المصرى .. وإن إحدى الأغنيات الشعبية قد تحولت لتصبح

على ألسنتهم «قولوا لعين الشمس ماتحماشى.. أحسن الجيش المصرى راجع ماشى».

وببساطة تساءلت مى قائلة :

— وماذا يعنون ؟

— يعنون أنه عاد سائرا من سيناء بعد الهزيمة .

وهزت مى رأسها وردت بغير اكتراث :

— سخافة .

— وقال إن أحد سائقى الأتوبيس عندما سأله ذات مرة أن يقف فى المحطة سبه

وسب الضباط والجيش الذى مرغ أنوفهم فى التراب .

— قلة أدب .

— وقال إن إحدى الفتيات بصقت فى وجهه وهو يسير فى إحدى طرقات

مصر الجديدة .

ورفعت مى رأسها وتساءلت مأخوذة :

— غير معقول ..

— إن حديثه يقطر أسى ومرارة وضيقا بالناس .

— كأنما هذا الجيش ليس منهم .

— يقول إنه يحيا بأمل الثأر .. الثأر لكرامته وكرامة جيشه وكرامة أمته .. ما

أحسست قط أن نفسه الرقيقة يمكن أن تمتلئ بالحقد كما امتلأت الآن .. لقد كنت

دائما أشعر أنه يتحمس للقضية من أجل .. كانت تدفعه مشاعر حبه لى ..

ولكنى الآن أشعر أنه مدفوع بحقد يغلى فى أعماقه .. حقد يملك عليه مشاعره ..

لم تعد القضية بالنسبة له قضية إنسانية أو قومية .. أو وطنية .. وإنما هى قضية

شخصية .

وهزت مى رأسها وتمتعت تتساءل فى دهشة .

— ولكن كيف وقع ما وقع ؟

— إنه هو نفسه فى دهشة .. لقد قال إنهم لم يهزموا فى معركة .. لم يواجهوا

اليهود في قتال .. ودحروهم فيه .

— إذن كيف وقعت الهزيمة ؟

— لم يصف لى شيئا بالتفصيل أو التحديد .. وإنما كان حديثه كأنه زفرات ألم متقطعة .. قال إنهم صدوا قوات إسرائيل عندما هجمت عليهم .. وأن بعض قواتهم تقدمت حتى كادت تصل إلى حدودنا وتقطع الطريق على القوات الإسرائيلية .

— إذن فماذا حدث ؟

— صدرت إليهم الأوامر بالانسحاب ..

— لماذا ؟

— يقول إنه لا يعرف .. وإنهم أصيبوا بدهشة شديدة عندما تلقوا أوامر الانسحاب .. ولكن كان عليهم أن يخضعوا لها .. وبدأ كل شيء مختلطاً متداخلاً .. حتى لكأن الصلة قد انقطعت بينهم وبين القيادات وأن الأوامر تعطى من جانب العدو .. ثم كانت الكارثة الكبرى في الانسحاب .

— كانت مصيبة .

— لم تكن المصيبة في مجرد الانسحاب .. ولكن في الهلاك الذي وضعته فيهم .. كانت شركا كبيرا سحقت فيه قواتهم .. كانت تعدو بغير غطاء جوى لتتصيد طائرات إسرائيل من الجو .. ودباباتهم من الأرض .

وساد الصمت الثقيل برهة .. وقطعته مى فى زفرة مريرة قائلة :

— وبعد ؟!! ما آخرة كل هذا .. ما آخرة الظلمة التي تحيط بنا من كل جانب .. أيكفيننا الحقد والمرارة .. والآهات والزفرات .. أليس هناك بصيص من أمل .

— أحسست بشعاع منه يتسلل من حلقة المرارة التي تشع في خطابه .

— كيف ؟

— قال إنهم يعملون ينجون من أجل إعادة بناء قواتهم المسلحة .. إنها تبنى من

جديد .. بعد أن سحقته المعركة .
 — الطريق شاق طويل .. ومشكلتنا يا أميرة .. قد باتت الصبر .. إن علينا
 أن نخوض مع إسرائيل معركة صبر طويلة .. حتى نقف على أقدامنا .. ونرد
 الضربة .

وسمع صوت بوق عربية في الخارج وقالت أميرة وهي تمسك بحقيبتها وتهم
 بالوقوف :

— كمال قد أتى ليأخذنى .

— دعيه يتفضل .

— لعل الوقت غير مناسب .. أو لعله متعجل .

وقبل أن تجيب مى سمعت طرقات كمال على الباب .. وأسرع خالد يفتح
 الباب .

ونفضت مى تلقى كمال مرحبة :

— أهلا وسهلا دكتور كمال .. تفضل .

وقالت أميرة مقاطعة :

— فرصة .. لترى خالتك .

وتساءل كمال :

— خير .. ماذا بها ؟

وردت مى :

— أثلت بها وعكة برد .

وقال خالد :

— كانت متعبة جدا .. وخشيننا عليها أن تموت .

وضحك كمال قائلا وهو يربت ظهر الصبى :

— بعد الشر عنها .. أنت طبيب مخيف يا خالد .. الأطباء يطمئنون المرضى .

— هى قالت إنها ستموت .

وهتفت به مى :

— كف عن هذه الكلمة السخيفة .. واذهب من هنا .

ونظر كمال إلى مى نظرة فاحصة ثم تتم متسائلا :

— كيف حالك يا مى ؟

— الحمد لله .

— لقد فقدت الكثير من وزنك .. وتبدلين شاحبة .

— ومن الذى لا يبدو شاحبا هذه الأيام .. إن الدنيا كلها شاحبة .

— تحتاجين إلى مزيد من العناية بنفسك .. هل تشكين من شىء ؟

— أشكو مما يشكو منه الناس .

— أزال الله غمتك .. هل أستطيع فحصك ؟

— ليس بى شىء خاص يا دكتور .

— إذن سأعطيك زجاجة أقراص فيتامين .

— لا تحمل همى يا دكتور .. أنا بخير .. وليس بى شىء أكثر مما بالعرب

كلهم .

وقبل أن يجيب كمال .. استطردت تقول :

— هل تحب أن ترى خالتى ؟

— طبعا .. لإننى خجل لأنى لم أرها من قبل .

— تفضل .. تعالى يا أميرة نطل على خالتى .

وردت أميرة :

— أخشى أن نقلقها .

— مطلقا .. إنها تحب أن تراكما دائما .. تفضلا .

وسبقتهما إلى حجرة فاطمة وهى تهتف بصوت مرتفع :

— أميرة والدكتور كمال يودان أن يطلا عليك يا خالتى .

وعلا صوت فاطمة من حجرتها مرحبة :

— أهلا وسهلا ..
 ودخل الدكتور كمال وأميرة حجرة فاطمة تسبقهما مى تحاول أن ترتب
 الغرفة بسرعة .
 وتبذلت التحيات وأجرى كمال كشفا سريعا .. جس النبض والحرارة .
 ثم قال :
 — بخير والحمد لله .
 وتمت فاطمة فى ضيق :
 — أشعر بهبوط وضيق يا دكتور .
 — سأعطيك دواء يريحك ويقويك .
 وتنهدت فاطمة ثم عادت تتساءل :
 — وكيف حالك أنت يا دكتور ؟
 — مرت بنا أيام سود قاسية .
 وتمت أميرة قائلة :
 — أحس فى بعض الأوقات أن الله قد تخلى عنا .
 — ونعم بالله يا أميرة يا ابنتى .. إن الله يILONنا ليختبرنا .
 وتمت مى قائلة :
 — يبدو أن الاختبار قد طال .
 وردت أميرة ساخرة :
 — أو لعلنا فشلنا فيه .
 وقال كمال :
 — كان لابد لنا من التجربة .
 وتساءلت أميرة :
 — ألم تكف تجربة عشرين عاما .
 — لم تعلمنا كثيرا .. لقد كنا فى حاجة إلى ما يشبه الصدمة الكهربائية .. كنا

— ١٦٠ —

في حاجة إلى ضربة تهز كيانتنا لنفيق . ونعرف ماذا نفعل وإلى أين نسير .

وتساءلت مى :

— وهل أفقنا ؟

— أرجو هذا .. إلى أحس أننا بدأنا نتحول من لاجئين إلى مكافحين ..

والعرب قد كفوا عن الكلام الذى لا فائدة منه .. وبدأوا يعرفون مدى حاجتهم إلى الجهد البناء .. والعمل الموحد .

وقالت مى :

— أنت متفائل .

ورد كمال :

— أبدا .. إن شيئا جديدا ينبت فينا .. نابع من أعماق الضمير .

وقالت أميرة وهى تنهد :

— أجل .. إلى أحس أن ألم الصدمة قد أعادنا إلى وعينا .

واستطرد كمال يقول :

— لا تتصورى كيف باءت محاولة إسرائيل النفاذ إلى صفوفنا بالفشل ..

ولقد بت أشعر أن فترة محاولة استرضائنا قد أوشكت على الانتهاء .. وأنهم سيجربون معنا أسلوبا آخر فى المعاملة .

وقالت مى فى أسى :

— ولكن بعضنا منا .. قد اقتنع بخدعتهم .. إن الشيخ جعفر أقى إلى

هنا .. و ..

وقاطعها كمال قائلا فى حزم :

— هؤلاء خونة .. أو جناء .. وسيلقون جزاءهم .. إن هم حاولوا أن

يقدموا على أى عمل يمكن أن يحقق أهداف إسرائيل .

وتمت فاطمة تقول :

— ليهدهم الله .. ولنصرنا على أعدائنا .

— ١٦١ —

ثم نظرت إلى أميرة .. وكأنا أرادت أن تغير مجرى الحديث فتساءلت باسمه :

— كيف حال خطيبك المصرى ؟

وردت أميرة :

— بخير ..

وأردفت مى تقول باسمه :

— وصلتها منه رسالة بالأمس .

وقال كمال :

— وستراه قريباً .

وتساءلت فاطمة فى دهشة :

— هل سيحضر إلينا ؟

— بل سندهب إلى لقائه فى عمان .. إنه سيحضر إلى هناك مع بعثة عسكرية

مصرية .. تقوم بزيارة قيادة الجيش الأردنى .

وتساءلت فاطمة :

— ومتى ستتزوجان ؟

وردت أميرة :

— عندما تسمح الظروف ..

— كشف الله عنا الغمة .. وألهمنا الصبر والصواب .

وعادت فاطمة تنظر إلى كمال فى حنان ثم تساءلت :

— وأنت يا كمال ؟

وقال كمال ضاحكاً :

— أنا ماذا ؟

— متى يهذى الله شرك ؟

وعاد كمال يرد ضاحكاً مقلداً ما قالت أميرة :

— عندما تسنح الظروف .

(ابتسامة غلى شفثيه)

وهزت فاطمة رأسها مستنكرة :

— أى ظروف .. هل تظنون أن هؤلاء الكلاب سيمنعونا من ممارسة ضرورات الحياة .. إن حياتنا يجب أن تسير .. يجب أن نأكل ونشرب .. ونعمل .. وإذا كنتم تظنون أن الزواج نوع من الترف يجب أن نستغنى عنه في هذا الوقت الكئيب .. فأنتم مخطئون... لأن الزواج مسئولية يجب أن نمارسها .. يجب أن نواصل وجودنا .. فالوطن الفلسطيني .. قوامه الأسرة الفلسطينية .. من الذى سيواصل الكفاح من بعدنا .. إذا لم نتزوج وننجب جيلا .. أقدر على القتال .. وأقدر على استعادة الوطن .

وهز كمال رأسه وقال باسم :

— كلام معقول .

ونظر إلى مى ثم استطرد يقول ضاحكا :

— وسأخرج من هنا لأبحث عن الزوجة المناسبة .. التى تقبل المعاونة من أجل خلق جيل جديد يحمل رسالة الكفاح .

وتجاهلت مى نظراته ووجهت فاطمة الحديث إلى أميرة متسائلة :

— وأنت يا أميرة .. متى تتزوجين ؟

— إن مشكلتى أكثر تعقيدا يا خالتى .

— كيف ؟

— إننا لا نعرف كيف نلتقى .

— ألن تذهبي إليه في عمان ؟

— من يدري كيف سألقاه ..

— اذهبي إلى عايذة ابنتى .

— ليس تدبير المكان هو المشكلة .. ولكن المشكلة هي أنى لا أعلم كيف

ستكون ظروفه .. إنه ذاهب إلى هناك في عمل .. ولا أعلم إلى متى سيبقى ..

وإنى أحاول أن أحصل على تصريح بالذهاب إلى عمان أنا وكمال .

- كل هذا يمكن أن يحدث .
- وفي كل مرة ألقاه .. أحتاج إلى كل هذا الجهد .. ويحتاج هو إلى فرصة عمل للحضور إلى عمان .
- ولماذا لا تذهبين إلى القاهرة ؟
- أذهب وأترك البلد في هذه الظروف .. أترك أهلى في هذا البلاء .. وهو أيضا لا يعرف ظروفه .. إنه لا يكاد يستقر في القاهرة .. إلا بضعة أيام عطلة كل شهر أو شهرين .
- وقال كمال وهو يهز رأسه في حيرة :
- إنها حقيقة مشكلة .. ومع ذلك فأنا أستطيع أن أسهل لك أمر السفر إلى القاهرة والاستقرار بجواره هناك .
- وهزت أميرة رأسها في إصرار وقالت :
- كلام غير معقول .. إني سأبقى هنا حتى النهاية .
- وقالت مى متممة :
- نهاية من ؟
- نهايتهم .
- أو نهايتنا .
- وقالت فاطمة وهى ترفع يديها إلى السماء :
- بل نهايتهم بإذن الله .. إنه لا يقبل الظلم أبدا .. وهم قد ظلمونا .. إننا لم نسيء إليهم أبدا .. كانت لنا جارة يهودية .. كنا نعاملها كواحدة منا .. ومع ذلك فقد ذبحونا بلا رحمة .. وشردونا وأخذوا كل مالنا .. الله لن يتركهم أبدا بلا عقاب .. إنه يمهل ولا يمهل .
- وقالت مى وهى تزفر :
- ننتظر من الله كل شيء !! إن علينا نحن أن نعاقبهم .. أو على الأقل نحمل أنفسنا من عقابهم .. يجب أن نهى لأنفسنا القدرة على ذلك .. كان عمار يقول

دائما .. إن المسألة تحتاج إلى جهد بناء .. وتنظيم دقيق .. وليست إلى مجرد حماس .

ولم تلق فاطمة بالا إلى حديث مى واستطردت تقول داعية :
— إن الله لن يخذلنا أبدا .. إنه رحيم بنا .. يا رب الطف بنا .. يا رب
انصرنا .

ونفض كمال يده محبيا وهو يقول :
— أنت مباركة يا خالتي .. وسيستجيب الله دعائك .
واتجه إلى الخارج تتبعه مى .
واستبقت فاطمة أميرة وهى تمسك بيدها قائلة :
— وأنت يا حبيبتي .. لا تتضايقي .
— أبدا يا خالتي .. لست متضايقة .
وخرج كمال ومى .. واستمرت أميرة فى الحجرة مع فاطمة .
وفى الصلاة .. قرب الباب الخارجى وقف كمال ونظر إلى مى نظرة ملؤها
الحب وأمسك بيديها مودعا :

وقالت مى :
— مع السلامة .
ولم يترك كمال يدها بل استبقاها فى كفه .
وأحست مى بالحرج وحاولت أن تخلص يدها من كفه بهدوء ولكن لم تفلح
فقد كانت كفه تطبق على يدها جيدا .
وقال كمال فى صوت رقيق خفيض :
— لم أجد حتى الآن فرصة أستطيع أن أحدثك فيها .
وقالت مى متجاهلة قصده :
— كيف ؟
— أعنى كان الحديث بيننا دائما .. غير مباشر .

— حديث عن ماذا ؟

— عن أنفسنا .. قالت لك أميرة .. ثم نقلت إلى .. وقلت لخالتك .. وقالت لي عنك .

وازدردت مى ريقها وهى نحس بثقل الموقف .
واستطرد كمال يقول :

— المرة الوحيدة التى تحدثنا فيها .. كانت أشبه بالتقديم لموضوع ..
أو بالدوران حوله .. كنت أنا نفسى أشعر .. بالرهبة من المواجهة .

— الموضوع أبسط من ذلك ..

— أبدا .. ليس بسيطا كما تتصورين .

— ولكننى كنت دائما صريحة ..

— ولم أخش أبدا صراحتك .. ولكن المشكلة أنى أحس أن الأمر يحتاج إلى
مناقشة .. وتبادل وجهات النظر .

— لست أشعر من حالتى بشيء يحتاج إلى توضيح .

— لماذا ترفضين الزواج ؟

— لم أرفضه لشيء خاص بك .

— أعرف هذا .. وكان خليقا لى .. أن أنهى الموضوع بالنسبة لى .. لأنى
أدخل فى نطاق الرفض .. وإن لم أقصد به .. ومع ذلك فقد أحسست أن بابل
لم يغلق فى وجهى .. لست أدرى لم ؟ ربما لأنى أضعت فى مرتبة الأمانى ..
والإنسان لا يفقد الأمل فى أمنية .. مجرد أنها مستعصية .. بل هو قد لا يئأس منها
أبدا .. بل يعيش بها كما قال الشاعر : « زمنارغدا » حتى وإن لم يكن هناك سبيل
إليها .

وقالت مى .. وقد ملأها شعور بالحياء والحرج :

— أنت تضعنى فى مرتبة .. أقرب إلى الخيال .. أنا لست كذلك أبدا ..

— أنا أضعت حيث أحس بك .. إنى أضعت فى مرتبة الأمانى .. ومن أجل

— ١٦٦ —

هذا .. لم أشعر أن رفضك لمبدأ الزواج .. يمكن أن يجعلني .. أعرض عنك ..
وأأخذ طريقا آخر .. لقد أحسست أن المسألة تحتاج إلى مناقشة معك .

— نناقش ماذا ؟

— نناقش مبدأ رفضك للزواج .

— هل تظن هذا أمرا يناقش ؟

— لا شيء هناك لا يقبل المناقشة .. إلا التوحيد بالله .

— والإحساس ؟

— هل رفضك الزواج .. مجرد إحساس ؟

— وهل يمكن أن يكون شيئا غير هذا ؟

— بل يجب أن يكون غير هذا .. يجب أن يكون .. أمرا مسيئا بالعقل ..

وبالمنطق .

— هل الزواج .. صفقة ؟

— لا .

— إذن لماذا يناقش بالعقل ؟

— لأنه شركة .

— أنا لا أحس به كذلك .

— ولكنه كذلك .. إنها شركة .. يجب أن يتوافر فيها التوافق والتآلف

والفهم والقدرة على تحمل المسؤولية .

— ولكنه ينبع من الإحساس .

— الإحساس يمكن أن يخلق فيه .. أو يولد منه .

— لم أصل بعد إلى هذا الفهم .. إن الإدراك المسيطر على تجاهه .. هو أنه شيء

يقبل بالإحساس . ويرفض بالإحساس .

— وأنت ترفضين بالإحساس ؟

— بالضبط .

— ١٦٧ —

- ليس بالنسبة لشخص. معين ؟
— أبدا .
— لا سلبا ولا إيجابا ؟
وترددت مى برهة قبل أن تجيب :
— ماذا تقصد ؟
— أعنى هل ترفضينه لأنك لا تريدین شخصا بذاته .. أو لأنك تريدین
شخصا بعينه .. مستعصيا عليك ؟
وتنهدت مى ثم صمتت :
وقال كمال :
— لا أظن من حقى .. الوصول إلى هذا الحد من المناقشة .
وقالت مى :
— لكى أكون واضحة .. لم يبدل من الزواج حتى الآن .. ما يجعلنى أقبل
مبدأه ..
— أأرجو ألا يكون هذا لأن الظروف كما قلنا خالتك لا تسمح .. لأنها هى
ردت على ذلك .. بأن الزواج .. لا تحول دونه ظروف .. لأنه واجب وليس
بمجرد متعة ..
— كل شيء من حولى لا يجعلنى أفكر فى الزواج .. أو أقبل مبدأه ..
وصمت كمال برهة ثم عاد يتساءل :
— وهل يمكن أن تتغير وجهة نظرك ؟
وفكرت مى برهة وقالت :
— لا شيء لا يتغير .. إلا إيماننا بالله .
— وكيف أعرف إذا تغير رأيك .. هل أظل أطرق بابك حتى
أعرف ؟
— لا ضرورة لذلك أبدا .. سأخبرك أنا إذا تغير رأىى ..

— ١٦٨ —

- من ناحية قبول المبدأ أو الشخص ؟
— كلاهما معا .
— هل ستكون لديك الشجاعة الكافية ؟
— أجل .
— لكى تأقى إلى ولتقولى إنى قبلت الزواج منك ؟
— أجل .
— يكفينى هذا القول .. إنى سأعيش بأمله .
— وأقبلت أميرة من حجرة فاطمة فسلمت على مى واتجه كلاهما نحو الباب .
— وقبل أن يبلغا باب الحديقة سمعا صوت ضجة بالطريق وصرخات تتعالى .
— وصاح رجل يعدو فى فرع :
— الشيخ جعفر قتل .. أصابته رصاصة وهو يعود إلى بيته ..
— وهتف كمال بلا إرادة :
— أين هو ؟
— هناك .. أمام باب البيت مخرجاً بدمه ..
— واندفع كمال فى الطريق وفى أعقاب أميرة تهتف به :
— احذر يا كمال ..
— وهتف صوت من الطريق :
— لا تحشى عليه .. إن من أصاب جعفرا لن يصيبه أبدا ..

درس في الرسم

هدأ الضجيج في الطريق .

وبعد برهة سمعت مى وقع خطوات تصعد الدرج متساقطة ..
أنصتت إليها عليها تدرك من الطارق قبل أن تفتح . وتمنت أن يكون العائد
عماراً ، فقد طال غيبته بعض الشيء .. بات ليلته خارج البيت .. ولم يعد طوال
النهار :

ولكن الخطوات لم تكن خطواته .. كانت بطيئة متساقطة .. ولو لم يكن الشيخ
عبد السلام في البيت لظنته الطارق .
وقبل أن تفتح الباب تساءلت « من » ؟ وأجابها صوت عمار ، ففتحت
الباب .

وبدا عمار شاحباً مكدوداً كسير النظرات ، كأثما هو عائد من هزيمة
أخرى .. وهتفت به مى :

— عمار .. ما بالك ؟

— لا شيء .

— أمرض أنت ؟

— كلا .

— وجهك شاحب وجسدك مرهق .. وكأنك محموم .

وأمسكت بكفه تجسها في جزع .

وسحب عمار كفه من يدها وقال في ضيق :

— قلت لك ليس بي شيء .

— ١٧٠ —

وصاحت الأم تتساءل من الداخل :

— من يا مى ؟

— إنه عمار يا خالتى .

— لماذا تغيب هكذا .. سيقضى على يوما فى انتظار أوبتك .

وقال الشيخ عبد السلام يزرها :

— اعقلى يا فاطمة .. لماذا تريد أن تحمليه هنا فوق ما يحمل من هموم ..

نمضى أو نبقى ماذا بهم ؟ قيمة حياتنا قد باتت معلقة بما نستطيع أن نقدمه لهذا

الوطن التمس .. فلا تجعلى من حياتنا عبئا عليه ..

وتهدت الأم وتمتمت فى أسى :

— باتت الحياة عذابا يا عبد السلام .. فى كل مرة يخرج لا أعرف متى

يعود .. ولا كيف .. اللهم اجعل يومى قبل يومه ..

ودخل عمار بخطواته المتثاقلة إلى حجراته تتبعه مى وارتقى على أحد المقاعد

ووضع رأسه بين كفيه .

ومضت برهة صمت ، واهتز جسد عمار كأنه ييكى ..

واندفعت إليه مى تضمه إليها متسائلة فى جزع :

— ما بالك يا عمار .. قل لى .

ودفعها عمار برفق ، ورفع إليها عينين محمرتين بالدموع .

وهتفت مى :

— أتبكى يا عمار ؟ ..

وهز عمار رأسه كأن شيئا يعذبه ، ثم قال :

— هل كان يتحتم علينا أن نقتلهم ؟

— من هم ؟

— الشيخ جعفر .. وعبد الرازق ..

— ولماذا تقتلونهم ؟

— لأنهم خونة ..

وأخذت مى تحملق فى وجه عمار وقد زاغ بصره وهو يهز رأسه فى حيرة وضياح ومدت ذراعها تحاول أن تمسك كتفيه لتهدئ روعه . وقالت فى صوت خافت :

— ألم تؤد واجبك ؟

— هذا هو المفروض .

— لماذا تجزع إذن ؟

— لأنى .. لأنى .. أكره أن أكون جلادا .. لم أشعر أن هذا هو العمل الذى أستطيعه .

— إذن لماذا قبلت القيام به ؟

— لم أكن أستطيع الرفض ..

وصمتت مى برهة وقد أحست هى نفسها بالضياح والحيرة .. وعادت تربت على كتف عمار وهى تهمس :

— اهدأ يا عمار واسترح .. أنت شجاع يا عمار .

— لم يكن العمل يحتاج إلى شجاعة .. كان الرجل بلا حول ولا قوة .

وصمت برهة ثم استطرد قائلاً وكأنه يحاول أن يدفع العزم فى نفسه :

— ولكن كان ممكناً أن يضيعونا يا مى .. كانوا ضعفاء متخاذلين أمام

عدونا .. كانوا يحاولون اختيار الطريق الأسهل .

وعاود الصمت حتى يلتقط أنفاسه .

وقالت مى فى لهجة رجاء :

— استرح يا عمار .. قم واغتسل .. وحاول أن تنام .. سأعد لك طعاما

ساخنا ..

— لا .. لا أريد أن آكل .. ولا أحس أنى سأستطيع أن أنام .. أنت تذكرين

ما قال الرجل لأبى هنا .. وكيف صده أبى وحاول أن يردعه .. ولكنه استمر فى

طريق التآمر .. كان يضيق بكفاحنا ..
— كان يريد الراحة .. ولعله الآن .. أكثر راحة .. ليرحمنا الله جميعا يا
عمار ..

وعادت تتحسس رأسه في حنان قائلة :
— نم يا عمار .. نم واغتسل وغير ثيابك ..
وقبل أن تغادر الغرفة لتجهز له العشاء هتف بها :
— لا تقولى لهما شيئا .. أكره أن يعرفا أنى قاتل .
— إنك لست قاتلا يا عمار .. أنت مناضل .
— لم تكن معركة .. لم أشعر أنى أواجه الموت وأنا أطلق رصاصتى .. كنت
مجرد جلاد يا مى .

— أبدا يا عمار .. أنت بطل .. ولم تفعل إلا ما يفعله الأبطال .
.. ولم ينم عمار ليلته .
ظل يتقلب فى فراشه حتى الفجر ..
وعندما أحس بأبيه قد نهض للوضوء . غادر فراشه واغتسل . وعندما وقف
أبوه لصلاة الفجر أحس بعمار يتسبلل إلى الحجرة وهو يقول :
— أصلى وراءك يا أبى ..؟
— أجل يا عمار .

وكبر الأب وركع وسجد .. والابن يتبعه .
وبعد أن انتهى من التحيات وسلم أقبل على أبيه فجلس بجواره وهو مطرق
صامت .

وسأله الأب :

— مالك يا عمار ؟
— هل يغفر لى الله أن قتلت بعضا منا ؟
— الشيخ جعفر !؟

— أجل .

وتنهذ الشيخ عبد السلام ثم تتم قائلا :

— الحرب عملية سخيصة يا عمار .. والقتل انحدار بشع حقير يفقد الإنسان قيمته كإنسان .. لا تظن أبدا أنى أسعد لقتل إسرائيلى .. إنه قبل كل شىء إنسان .. وإذا دفعته الأطماع والغرور إلى الإقدام على العدوان .. ففى النهاية لن يبقى منه غير الإنسان بكل مشاعره .. ولكن عندما يواجهك إنسان بسخافة محاولة قتلك .. فستكون أكثر منه سخافة إذا لم تحاول درء الضربة وردعه .. ونحن لا نفعل يا بنى سوى محاولة درء ضربة عدونا .. أما ردعه .. فليهبى الله لنا القدرة عليه .. افعل واجبك يا بنى .. ولا تقلق .. وليرحم الله الشيخ جعفر .. وليجزك عن فضل إراحته .. لقد أراح واستراح ..

وضم عمار أباه إليه قائلا وهو يزفر زفرة راحة :

— أرحتنى يا أبى ..

ونفض وهو يقول :

— عن إذئك يا أبى .

— هكذا مبكرا ؟

— كان المفروض أن أبيت هناك .. ولكنى أحسست أنى أود أن أراك .. أنا أعرف أنى أهمل الخانوت ..

— لا عليك يا بنى .. السوق كاسد .. ولا من يبيع ولا من يشتري .. لا تنب علينا .. إن أمك يقتلها غيابك .. سلم عليها قبل أن تذهب .. — أخشى أن ألقها .

— اذهب واجلس معها قليلا .. فإنها لم تنم .

وذهب عمار إلى أمه .. فضمته إليها فى لهفة . وقالت وهى تمسك بيده :
— خذ بالك من نفسك يا عمار .. لا تقض الليل فى الخارج حتى أطمئن عليك .

— ١٧٤ —

- حاضر .. سأحاول أن أحضر .
- وخرج عمار إلى الحديقة .. وشعاع الشمس لم يتصاعد بعد في الأفق ..
- وودعته مى حتى الباب . وهى تشد على يده باسمه :
- لا تحزن يا عمار .. اذكر دائما أنك لا تخطئ .
- من الذى لا يخطئ يا مى ؟
- أنت !! إن ثقتى فيك لا حد لها .. فقط لو أنك تبتسم .
- وتساءل عمار فى شئ من السخرية :
- من أجل الصورة ؟
- يعنى !!
- ظننت أن المعركة علمتك أشياء أهم ..
- علمتنى المعركة أشياء هامة .. ولكنها لم تلغ أشياء هامة أخرى فى حياتى .
- وانطلق عمار ومى ترمقه حتى اختفى .
- وفى نفس الصباح ذهبت مى إلى المدرسة .
- وأحسست فى المدرسة جوا غريبا مشحونا بالقلق .
- كانت الكتب قد جمعت من التلاميذ ومن المخازن .. وتعليمات البرامج الجديدة قد وزعت .
- وكانت حالة الطوارئ قد أعلنت بعد عملية قتل الخونة التى اعتبرتها السلطات الإسرائيلية بمثابة إعلان التحدى لها ولكل من يتجاوب معها .
- وانتشر جنود الاحتلال فى شوارع المدينة وأخذت دباباتهم تتجول فى طرقاتها .
- وأقبلت أميرة على زميلاتها تقطع عليهن صمتا ثقيلا يخيم على رؤوسهن انتظارا لناقوس المدرسة ، وتبادلت وإياهن كلمات تحية قصارا .
- وسألت أميرة مى :
- كيف حال خالتك ؟

- أحسن والحمد لله ..
- وعمار ؟ ..
- وأرهفت الأسماع عندما ذكر اسم عمار وتطلعت الأبصار إليها . ولم تعرف
مى ما إذا كان هذا التطلع عن معرفة بما حدث أم هو مجرد اهتمام بعمار .
- وازدردت ريقها ثم قالت :
- الحمد لله .
- وردت إحداهن فى لهجة إعجاب :
- عمار رجل ..
- وقالت أخرى :
- إن الإسرائيليين فى حالة توتر .
- وهم يحاولون التحرش بالناس .
- هل تعتقدن أنهم سيسكتون على ما حدث ؟
- لقد حدثت بعض حوادث انفجارات ..
- وبدأت عمليات المقاومة الإيجابية فى نابلس .
- بالقطع لن يسكتوا ..
- ماذا تظنينهم سيفعلون ؟
- وماذا يمكن أن يفعلوا شرا مما فعلوا .
- ودق الناقوس ، وتحرك التلاميذ إلى الفصول .. ولم يكن يبدو منهم فى الفناء
غير عدد قليل ، وبقي بعضهم فى دورهم توجسا مما يوشك أن يحدث .
- وسارت الزميلات تجاه الفصول .. وقالت أميرة :
- خير للمدرسة أن تغلق أبوابها .. أنا لا أعرف ماذا أقول للأولاد .
- وردت مى :
- درسى لهم ما تعودت أن تدرسيه .
- والتعليمات الجديدة ؟

— ١٧٦ —

- لا تأبى لها .
- والمراقبون ؟
- ملعون أبوهم .
- لا مبرر لتحذ غير مجد .. إني أكتفى بالصمت وأترك الأولاد يفعلون ما يريدون .
- ولكنى أنا سأفعل ما أريد .
- ليس فى هذا الوقت يا مى .. والنفوس متوترة .
- النفوس لن تهدأ أبداً يا أميرة ..
- وقبل أن تتجه إلى فصلها سألتها وهى تحاول أن تغير الحديث :
- ما هى أخبار رءوف ؟
- سيصل هذا الأسبوع إلى عمان .
- وأنت ؟
- سأذهب بمجرد الحصول على التصريح .
- لعلهم لا يعرفونه فى هذه الظروف .
- ربنا يستر .. إن رءوف يبدل أقصى جهده .
- عندما ترينه بلغيه سلامى ..
- يصل إن شاء الله .
- وقولى له ألا يحزن .. وألا يئأس .. وألا يأبه بسخرية الناس ونكاتهم ..
- إنهم يحاولون أن يجدوا شيئاً يفرغون فيه سخطهم ، ويلقون عليه بهمهم .. قولى له إننا نثق بهمهم .. ونعتمد عليهم .. كما كنا نعتد دائما .. وإنى أمسح بصقة الفتاة القذرة .. بقبلة اعتذار ..
- ستكون له خير عزاء .
- وأقدم له قبلة أخرى .. لـ ..
- وقاطعتها أميرة ضاحكة :

— تكفى قبلة واحدة .. دعى القبلة الثانية لى .. حتى لا يستحلى قبلاتك ..
هيا .. اذهبى إلى تلاميذك ..
— سأراك بعد الناقوس .
— إن شاء الله .
وأقبلت مى على الفصل .. وكان هناك بضعة تلاميذ يقبعون فى مقاعدهم
متطلعين إليها فى نظرات قلقة حيرة .
وكان بينهم خالد .
ونظرت مى إليه فى دهشة وسألته :
— ماذا أحضرك يا خالد ؟
وبراءة رد عليها :
— كرهت أن تفوتنى الدروس .. وأنت تعرفين ..
وقاطعته مى قائلة :
— ألم تطلب أملك منك البقاء بجوارها ؟
— لقد قامت من الفراش .. ولم تعد فى حاجة إلى أحد .
— ولكنى رجوتك أن تبقى لتأخذ بالك منها .
— فضلت أن أحضر لآخذ بالى منك .
— منى أنا ؟
— أجل ..
وردت مى منذرة :
— لا بأس .. عندما نعود إلى البيت لى معك حساب نصفيه معا .
وهز خالد رأسه كأنما يقول .. يحلها ربنا عندما نعود إلى البيت ..
وفجأة سمع صوت جسم صلب يرتطم بالأرض ..
وأخذت مى بالصوت المفاجئ ولكنها اكتشفت أنها ماسورة خالد التى ينوى
أن يحولها إلى بندقية ، وقد سقطت أمامه بعد أن أفلتت من بين ركبتيه ..
(ابتسامة على شفتيه)

— ١٧٨ —

وصاحت مى فى دهشة :

— ما هذا ؟

وأجاب خالد ببساطة :

— بندقيتى .

— ولماذا أحضرتها ؟

— أنت تعرفين الجنود الإسرائيليين يملأون الطرقات .. وهم يحملون سلاحهم .. وقلت لنفسى إنهم قد يتحرشون بى .. وقد أحتاج إليها .

وسرت موجة إعجاب بين الصغار ونهض أحدهم ليرفع الماسورة من الأرض فنهزته مى وأعادته إلى مقعده قائلة :

— دع الماسورة فى مكانها .. ولنبدأ الدرس .

وهمس الصغير لخالد متسائلا :

— هل تفرقع ؟

— يعنى !!

— يعنى ماذا .. هل بها رصاص ؟

— لا .

— إذن ما الفائدة منها ؟

— للترويض ..

— ومتى تفرقع ؟

— قريبا .

— هل تعيرها لى ؟

— طبعا ..

وكانت مى قد استدارت إلى السبورة وكتبت التاريخ وموضوع الدرس ،
وقرأ الصغار :

« ارسم فداثيا يهاجم دورية إسرائيلية »

— ١٧٩ —

وهتف خالد في إعجاب :

— هائل ..

وتتم جاره في حيرة :

— موضوع صعب .. هل تعرف كيف ترسمه ؟

— طبعا .

— وهل تتركني أنقله منك ؟

— ولم لا ؟

وقالت منى :

— هيا يا أولاد .. ابدأوا الرسم .

وتساءل أحدهم :

— ما شكل الدورية الإسرائيلية ؟

وردت منى شارحة :

— مثل هذه العربات المحملة بالجنود التي ترونها تقطع الطرقات .

ورد أحدهم :

— صعبة ..

وقال آخر :

— لا أستطيع رسم العربة .

ورد آخر :

— ولا الإسرائيلي .

— أنا أعرف فقط أن أرسم فدائيا .

وقال خالد وهو منهمك في الرسم :

— هذا يكفى .. ارسم الفدائي وقد ألقى القنبلة .. وأمامه دخان ..

— والدورية الإسرائيلية ؟

— تحولت إلى شظايا وراء الدخان .

— لا .. لا غير معقول .

وتعالت الأصوات قائلة :

— الموضوع صعب .

وردت مى :

— سأريكم كيف ترسمونه ..

وبدأت مى ترسم على السبورة الخطوط الأولية للرسم .

رسمت الفدائى وأمامه مقدمة عربية وضعت عليها نجمة لإسرائيل وقد بدت مهشمة .

وسمعت وقع خطوات تقترب من باب الفصل .

وظهرت الناظرة ومعها رجل غريب .

ووضع الرجل ابتسامة على شفتيه وقال بالعربية : صباح الخير .

ولم يكن قد أبصر السبورة بعد .

ولكن الناظرة لمحتها وعلا الشحوب وجهها وتساءل الرجل :

— درس رسم ؟

وتمتت الناظرة :

— أجل ..

وحول الرجل نظره إلى السبورة وأبصر الرسم .

وبدا الغضب فى عينيه وضغط على أسنانه .. وبدأ عظم فكيه يتلاعب .

وحول نظره إلى مى وأخذ يفحصها من أسفل إلى أعلى .

وتساءل وهو يحاول أن يتالك .

— ما هذا ؟

ولم تجب مى .

وصرخ الرجل متسائلا :

— ما هذا الذى ترسمينه على السبورة ؟

— ١٨١ —

- وكان مصدر مى يعلو ويهبط بطريقة ملحوظة .. ولكنها ردت بهدوء :
- فدائى يهاجم دورية إسرائيلية .
- وانفجر الرجل قائلا :
- كلاب ..
- ورد خالد من بين الطلبة صائحا :
- أنتم كلاب .. وأولاد كلاب ..
- وصرخ فيه الرجل :
- اخبرس ..
- ثم نظر إلى مى قائلا وهو يحاول أن يهدئ صوته :
- هل قرأت التعليمات يا آنسة ؟
- وبهدوء ردت عليه مى :
- أية تعليمات ؟
- إذن فأنت لم تقرئها .
- وحول بصره إلى الناضرة مهددا .
- ولكن مى أسرع تقول :
- إنى أعرف كل ما بها .
- ورغم ذلك تعلمين الصغار أعمال الإرهاب .
- وأطلقت مى زفرة قصيرة وردت بهدوء :
- هذا ليس إرهابا ..
- إذن ماذا تعتبرينه ؟
- بحق الدفاع عن أنفسنا .. حق تحرير أوطاننا .
- إنكم تغرسون فى صغاركم كراهيتنا .
- إنما موجودة فى أعماقنا جميعا .. أنتم الذين غرستموها .
- وتعلمونهم الوحشية .. والبربرية .

— ١٨٢ —

— الوحشية .. والزبورية .. هى ما تفعلونه أنتم .. بالآمنين فى دورهم ..
الذين لا يطلبون أكثر من مجرد الحياة الآمنة على أرضهم .
— أنت مزعجة .
— الحق مزعج للذين اعتادوا ترويح الباطل .. حتى صدقوه .
وصرخ الرجل منفجرا :
— المناقشة لا تجدى معك .. أمثالك يحتاجون إلى أسلوب آخر ..
(ثم أمسك بمرفقها ودفعها أمامه)
وقفز خالد وهجم على الرجل بالماسورة صائحا :
— اتركها .. وإلا قتلتك .
ودفعه الرجل بعيدا وهو يهدد قائلا :
— انظرى .. ماذا علمت الصبية ؟
ونظرت مى إلى خالد قائلة فى هدوء :
— اجلس فى مقعدك يا خالد .
— وماذا سيفعل بك هذا الرجل ؟
— لن يستطيع أن يفعل شيئا .
ودق الناقوس واندفع التلاميذ إلى خارج الفصول .
وسارت مى مع الرجل إلى حجرة الناظرة .
وفى الحجرة حاول الرجل أن يكبت غضبه فقال للناظرة مهددا :
— أنت لا تنفذ التعليمات .. وأنت مسؤولة عن كل ما يحدث هنا مخالفا
لها .

ولم تجب الناظرة .
وعاد الرجل يقول منذرا :
— إني أحملك مسئولية كل ما حدث .
وردت مى، بهدوء :

— أنا المسئولة عما فعلت .
 — أنت وهى .. إلى أوجه إليكما إنذارا أخيرا .. التعليمات يجب أن تتبع بدقة .. لن نتسامح فى هذا مطلقا .. ولا تضطربونا إلى استعمال العنف معكم .
 ثم وجه الحديث إلى الناضرة قائلا :
 — هذه المدرسة توضع تحت المراقبة الدائمة .. يجب أن تكف عن تعليم الصغار .. مثل هذه الوحشية .. إننا نحاول أن نكون طيبين معكم .. فلا تضطربونا إلى غير هذا .
 ونظر إلى مى قائلا فى لهجة حاول أن يكسبها الهدوء والرصانة :
 — نحن باقون .. باقون .. فلماذا لا تروضون أنفسكم على التعايش معنا .. إننا سنمنحكم حياة أفضل .. وسنعلمكم الحضارة والعلم .
 وتساءلت مى فى شئ من الدهشة :
 — أنتم تعلموننا الحضارة ؟
 — ألم نحول صحراء كم الخبرة .. إلى جنة خضراء ؟
 — جنة لكم .. وجحيم لنا .. المسألة نسبية يا حضرة المحترم .
 — ولكننا نملك وسائل العلم العصرية .
 — ونحن أيضا نستطيع امتلاكها .. إذا ما استقررنا فى أرضنا ..
 — ومن يمنعكم من الاستقرار ؟
 — أنتم شردتمونا عشرين عاما .. وسجنتمونا فى معسكرات للاجئين نعيش على الحسنة .

— وأين كنتم قبل العشرين عاما .. لماذا لم تخضروا صحراء كم ؟
 — الزمن يتقلب بالشعوب .. لقد كنا أصل الحضارة .. وشعوب العالم تعيش فى الظلمات .. وفعل الاستعمار بنا ما فعل .. وكنا نخطو نحو الحرية .. وكنا سنفعل ما يفعله الشعب العربى كله — من كفاح من أجل التحرر — والتقدم الاجتماعى .. والبناء الاقتصادى .. هذه مسيرتنا الطبيعية .. ولكنكم

أوقفتموها .. ونزعم الأرض من تحت أقدامنا .. ثم تسألوننا الآن .. لماذا لم تحضروا الأرض .. أى أرض ؟ .. التى سرقتموها .. لقد كانت لنا مزارع وبيارات .. وكنا نعمل بكل ما نملك من وسائل .
— ولكننا كنا نعمل أكثر منكم .

— أياكم .. لكى نجعل من وطننا الفلسطينى وطنا أفضل .. ولكنكم جلبتم الغرباء من كل أجناس العالم .. ليسحقونا فى أرضنا .. وليذرونا من عليها .. كبقايا رماد .

وأحس الرجل أنه قد زج بنفسه فى مناقشة خاسرة فقطب جبينه وقال بلهجة منذرة ..

— أنت كثيرة الكلام .. وأنا أندرک بأن تكفى عن مخالفة التعليمات .. وإلا فسيكون لنا معكم شأن آخر .
وانصرف الرجل ..

وعادت الناظرة إلى مى .. وقبل أن تنطق الناظرة قالت مى يهدوء :
— لن آتى إلى المدرسة بعد هذا .. حتى لا أسبب لك المتاعب ..
— أبدا يا مى .. إني لا أخشى على نفسى .. ولكنى أخشى عليكِ أأنت .. إنهم لا يرحمون .

وتنهدت مى ثم قالت وهى تمد يدها مودعة :
— إنهم لا يرحمون .. وعليانحن أيضا .. ألا نرحم .. لقد سمعت عمى يقول اليوم لابنه بعد أن صليا الفجر .. الحرب عملية سخيصة يا عمار .. ولكن عندما يواجهك إنسان بسخافة محاولة قتلك .. فستكون أكثر منه سخافة إذا لم تحاول درء الضربة وردعه .. ونحن جميعا مشاركون فى هذه السخافة .. إذا لم نتحمل مسئوليتنا فى درء الضربة .. وفى الردع .. كلنا يا خالتى ..
وضمتها الناظرة فى حنان وهى تتمم :

— ١٨٥ —

— أجل يا بنيتى .. كلنا .. ليوفقنا الله .. فالطريق شاق .. والأيام القادمة عسيرة .. والكن علينا أن نتحمل ثقل عبئها .. وأن نتوارثه جيلا .. وراء جيل .. حتى نستعيد حقنا .

وغادرت مى حجرتها .
وفى الطريق إلى الخارج التقت بأميرة .
وأقبلت أميرة عليها تسألها فى لهفة :

— ماذا حدث ؟

— لا شيء .. طلبت من التلاميذ أن يرسموا فدائيا يهاجم دورية إسرائيلية .

— وماذا فعلوا بك ؟

— أئذرونى ألا أعود إلى تعليم الصبية الإرهاب والوحشية .

— وماذا ستفعلين ؟

— قلت للنائظرة إنى سأبقى فى البيت حتى لا أَسبب لها مزيدا من المتاعب ..

وقالت أميرة فى قلق :

— هل تظنين .. أن إيقافنا للدراسة عمل سليم .

— أنا لست على استعداد لأن أدرس إلا بطريقتى .

ودق الناقوس فقالت أميرة وهى تتجه إلى أحد الفصول :

— عن إذنك يا مى .. سنلتقى بعد انتهاء الدراسة .

واتجهت مى إلى خارج المدرسة وسار خالد بجوارها وقد حمل الماسورة على كتفه وهو يتساءل باهتمام :

— اسمعى يا مى .. هل حقيقة يمكن أن تصبح هذه الماسورة بندقية .. وأن

أطلق بها الرصاص ؟

— ألم تقل أنت هذا ؟

— أجل قلت .. ولكنى لا أعرف كيف .. وليس هناك من يستطيع أن

يساعدنى .

— لا تعجل يا خالد .. سيأتى يوم .. تجد كل شىء فى يدك .. البنادق ..
والمدافع .. والقنابل .

— متى ؟. لا تقولى لى عندما تكبر .. فأنا لا أعرف متى سأكبر ..

— مع الأيام .

— يا مى .. الأيام تمر .. وكل يوم يقولون لى .. عندما تكبر .. وأنا
لا أكبر .

ورببت مى ظهره فى حنان وهى تقول :

— أنت كبرت يا خالد .. هل تذكر عندما كنت تتعثر فى خطواتك ..
وكنت أحملك إلى الحديقة ؟

— لا أذكر شيئا .. إبنى لا أذكر نفسى إلا وأنا أسير على قدمى كما أفعل الآن .
وضحك مى قائلة :

— هل تظن أنك ولدت واقفا ؟

— ولم لا ..

— يا عييط .. طالما حملتك على كتفى .

— المهم الآن .. متى ستصبح هذه الماسورة بندقية .. وكيف ؟..

— اصبر .. اصبر يا خالد .. الطريق ما زال طويلا أمامنا .. وسيأتى اليوم

الذى نتلهف نحن على بندقيتك .

ووصل الاثنان إلى البيت .

وكادت مى تجتاز الباب عندما توقفت أمامه وقد لفتت نظرها علامة (×)
بالأحمر ..

وسألت خالدا فى دهشة :

— من رسم هذه العلامة ؟

— ١٨٧ —

— لا أعرف ..

— أكانت موجودة عندما خرجنا ؟.

— لا أذكر ..

— عجيبة ..

ودخلت إلى البيت وهي لا تستطيع أن تمنع رجفة تسرى في جسدها ..

١٢

بعيداً عن صُورنا !

هبط الظلام .. وأقبل الشيخ عبد السلام يتساءل :

— أعاد عمار ؟

وردت مى :

— ليس بعد ..

وكانت مى يساورها قلق منذ أن عادت من المدرسة وأبصرت بالعلامة
الموضوعة على الباب .. ولم تحاول أن تسأل خالتها عنها خشية أن تبعث فى نفسها
الجزع .. لم تفعل أكثر من أن سألت ببساطة :

— هل حضر أحد .

— مثل من ؟

— أى واحد ..

— حضر صبى البقال والمكوجى .

— فقط ؟

— من يمكن أن يزورنا سوى هؤلاء .. هل كنت تتوقعين أحداً ؟.

— أبداً .. مجرد سؤال .

ولم يذكر الأب شيئاً عن العلامة .. مما يقطع بأنه لم يرها .. ولم تعرف مى هل
تخبره أم لا ..

لقد كانت تفضل أن تخبر عمارا .. فهو بلا شك أقدرهم على التصرف .

وقال الأب وهو يستقر على المقعد ويخلع نعليه :

— أنخبار لا بأس بها .

— ١٨٩ —

وتساءلت مى فى شىء من الدهشة :

— ما هى ؟ ..

— كان لقاء الجماعة فى الخرطوم طيبا .

وتساءلت فاطمة فى دهشة :

— أى جماعة ؟

— الرؤساء .. أنهموا حكاية اليمن .. وقرروا تقديم الدعم المادى لكى تواصل

البلاد المعتدى عليها قدرتها على مقاومة أى ضغط اقتصادى والصمود أمام كل أنواع التهديدات .

ولم يبد على أحد من أهل البيت اهتمام بقول الرجل .

وتساءل خالد محاولا أن يجد الإجابة على السؤال الذى يشغله :

— يعنى سنضرب إسرائيل ؟

— ليس بعد ..

— إذن ماذا فعلوا ؟

— المهم أن نقف على أقدامنا .. ولا نخز راكعين .. أنت لا تعرف ماذا

أصابنا .. لقد أخذنا ضربة قاضية .. كان يمكن أن تصرعنا ..

وهز الرجل رأسه فى رضاء ثم استطرد قائلا :

— حسنا فعلوا .. وإلا كانت تصبح مصيبة على العرب .

ولم يبد على فاطمة أنها تعبا كثيرا بما فعل الرؤساء .. كان ما يقلقها هو عودة

عمار ، ولم تلبث حتى تساءلت فى ضيق :

— لماذا تأخر عمار ؟

وتساءل الرجل فى دهشة :

— هل حدد لك موعدا لعودته ؟

وردت مى وهى تجد الأم تطرق صامته :

— عندما قلت له لا تتأخر .. قال سأحاول .

— ١٩٠ —

وكان عمار في ذلك الوقت منحنيا على ورقة يفحصها تحت ضوء مصباح
وبجواره يجيى وأمامهما عبد المجيد .

وقال عمار وهو يشير إلى نقطة في الورقة .

— هنا تقاطع الطريق بين القدس وتل أبيب .

ورد عبد المجيد :

— أجل ..

— والقطار سيصل إلى هنا في التاسعة ؟

— المفروض ذلك .. لقد قال لى صاحبنا إنه سيغادر المحطة في السابعة

والنصف محملا بالمؤن والذخائر .

— إن الوقت قد أزف .

— أرجو أن تحذرا جيدا .. لاتمرا بالملزقان لأن عليه حراسة .. لقد وضعت

حقيبة اللغم في العربة ..

وصمت برهة ثم استطرد يقول :

— وسأترك لكم العربة بما فيها .

ومضت فترة صمت ونظر عبد المجيد إلى ساعته .

— سأترككما الآن حتى أعود إلى القيادة ..

— ومتى سيحضر مصطفى ؟

— المفروض أنه في طريقه إليكم ..

— ألدیه معلومات كافية ؟

— لقد درس الموقع على الطبيعة .. واحد منكم يقف على الربوة للمراقبة ..

.. وواحد ..

وقاطعه عمار :

— سنعرف كيف نوزع العمل بيننا .. قم أنت حتى لا تضيع الوقت .

وتسلل عبد المجيد في الظلام ، ومر الوقت بطيئا وحاول يجيى أن يقطعه

بالحديث فقال :

— سمعت أخبار الخرطوم ؟

— أجل ..

— ما رأيك ؟

— شيء يبعث على الأمل .. إنها جرعة تعيننا على الصمود .

والقوات المصرية قد وقفت على ساقها .. إنها تحتل مواقعها على طول القناة في مواجهة العدو .

— وفي الوقت نفسه بدأت عمليات الإرهاب والتعذيب في الأرض المحتلة .

— إنهم يحاولون إرغامنا على أن نترك بيوتنا .

ورد عمار في حزم :

— لن تتكرر مأساة ٤٨ أبداً سنبقى حتى ندفن في أرضنا .

— إنهم يحاولون إقامة المستعمرات وينزعون الملكية العربية في بعض المناطق من أجل توطين اليهود ..

— لن نتمكن من هذا .. سنجعلها جميعاً من حولهم .

ونظر ليحيى إلى الساعة في قلق ثم قال :

— تأخر مصطفى .

— لننتظر بضع دقائق أخرى .

وأرهم السمع لعله يسمع وقع أقدام .. ولكنه لم يسمع سوى دقات الساعة

تقطع الصمت في رتابة وإصرار .

وأطبق عمار الورق ودسه في جيبه ثم قال في ضيق :

— ما العمل ؟ ..

— إننا لا نستطيع العمل بدونه ..

— ولا نستطيع الانتظار أكثر من هذا .. وإلا ضاعت الفرصة ..

وفجأة نهض عمار قائلاً ليحيى :

— ١٩٢ —

- لا بد أن أمرا خطيرا قد عاقه ..
— مثل ماذا ؟
— ربما قد اعتقل .
— أعتقد هذا ؟ ..
— كل شيء جائز .. فلست أظنهم سيغفلون عنا .. إنهم يراقبون كل شيء
وسينكلون بنا . .
— وصمت يحيى برهة ثم تساءل :
— هل نؤجل العملية ؟
— ورد عمار في إصرار :
— هذه عملية لا تؤجل .. إما أن تتم الآن .. أو يمر القطار بسلام لتفرغ
ذخيرته في صدورنا .. ونحن لا نستطيع أن نصطاد كل يوم مثل هذا الصيد ..
والجماعة لن يغفروا لنا مثل هذا الإهمال ..
— وماذا نستطيع أن نفعل .. هل هناك وقت للرجوع إليهم ؟
— لا .
— وليس أماننا أحد نعتمد عليه .
— وصمت عمار برهة ثم اتجه إلى الخارج قائلا :
— تعال .. أسرع .
— إلى أين ؟
— إلى البيت .
— بيت من ؟
— بيتنا .
— لماذا ؟
— أعتقد أن هناك شخصا يمكن الاعتماد عليه .
— من ؟

— ١٩٣ —

— مى .

وتساءل يحيى وهو يجلس بجواره :

— أظن مى تحتل مشقة العملية ؟

— مى صبور .. وشجاعة .. ولها جلد على العمل كالرجال .

وساد الصمت برهة ثم عاود يحيى الحديث :

— إننا سنحدث ضجة تثير الريبة .

— ستقف بالعربة بعيدا وسأهبط أنا وأعود بها معى .

— أى إزعاج ستوقعه بأمك وأبيك .. ماذا ستقول لهما ؟

— سأقول إننا نحتاجها لتريض أحد الجرحى .

وتنهى يحيى ثم قال :

— أمعقول هذا ؟

— ليس أمامنا سواه .

وانطلقت العربة تشق الظلام .

وعلى ناصية الشارع توقفت وهبط منها عمار وكان يبدو فى الميدان بعض

الجنود الإسرائيليين .

وأحس يحيى بالقلق فقال لعمار :

— لن أقف بالعربة حتى لا أثير الشبهات .. سأدور دورتين ثم أعود إلى هنا ..

لا تتأخر ..

وأسرع عمار إلى البيت .

وقبل أن يطرُق الباب كانت مى تفتحه وتهتف به وهى تنهد بارتياح :

— عدت يا عمار ..

وأفسحت له الطريق ولكنه لم يدخل بل قال فى لهجة مقتضبة :

— إني أحتاج إليك يا مى .

— خير يا عمار .. ماذا حدث ؟

(ابتسامة على شفثيه)

— ١٩٤ —

- ليس هناك وقت للشرح .
وصاح صوت الأم من الداخل متسائلا :
— عمار ؟ ..
— أجل .
— الحمد لله .
وأقبل الأب في خطواته المتثاقلة وقد علت وجهه البشاشة وفي أعقابهِ
خالد .
— ادخل يا عمار .
ورد عمار في عجلة :
— لقد عدت لآخذ مى .
وتساءل الأب في دهشة :
— تأخذ مى .. إلى أين ؟
— أحد رفاقنا جريح ويحتاج إلى تمرىض .
— من هو ؟
— صديق لا تعرفه .. اسمه مصطفى .
— وماذا جرى له وأين هو ؟
— ليس هناك وقت لكل هذه الأسئلة يا أبى .. تعالى يا مى .
— حاضر يا عمار .. فقط أضع معطفى على كتفى وألبس حذائى .
وتساءلت الأم وهى تقبل جزعة :
— ماذا حدث ؟
وسحب عمار مى من يدها للخارج وهو يقول لأبيه :
— قل لها يا أبى .
وصاحت الأم فى ضيق :
— ألا أعرف ماذا يجرى فى هذا البيت ؟

— ١٩٥ —

وهتف بها عمار :

— لا تصرخي هكذا .. سنعود بعد قليل .

وانطلق من الباب تتبعه مى ..

وفي الطريق تساءلت مى :

— أين هو ؟

وتساءل عمار بذهن شارد :

— من ؟

— الجريح .

— أى جريح ؟

— الذى قلت عنه .

— آه .. إنه ليس جريحا ..

— ليس جريحا .. هل ..

— أعنى ليس هناك جريح .. وإنما هناك عملية نحتاج إليك فيها ..

— أية عملية ؟

— سأخبرك بها عندما نركب العربة .

وعلى الناصية أقبل يحيى بالعربة فدلف إليها عمار ومى ، وانطلق بهما فى الظلام .

وجلست مى متوترة الأعصاب تمحلق فى ظلمة الطريق وهى تنتظر كلمات شرح من شفتى عمار المغلقتين تفسر لها هذا الخروج الخاطف المفاجئ .

ولم تطق الصبر طويلا لهذا الصمت المقلق فسألت فى حيرة :

— إلى أين ؟

وباختصار رد عمار :

— سننسف قطار السكة الحديد القادم من تل أبيب .

وترددت مى برهة قبل أن تتساءل فى شيء من الدهشة :

— وأنا سأشارك معكما ؟

— أجل .

وصمت برهة ثم أردف في لهجة مقتضبة حازمة :

— انتظرنا مصطفى حتى آخر لحظة .. والعملية لا تحتل التأجيل .. لأن
القطار لا ينتظر ..

وأردف يحيى يقول :

— ووقعنا في ورطة شديدة .. فقد كان علينا إما أن نلغى العملية وتضيق علينا
فرصة نادرة .. لتدمير أسلحة وذخائر .. كانت حتما ستوجه إلى صدورنا ..
أو نبحث بسرعة عن بديل لمصطفى يمكن أن نثق في قدرته .. وفي شجاعته ..
وصمت وهو ينحدر يمينا ليتفادى دورية إسرائيلية تقف في نهاية الطريق .
وعندما أحس بأمان استطرد يقول :

— وكنت أول من خطر ببال عمار .

ولم تملك مى من أن تتساءل في فرحة ودهشة :

— أنا ؟

ولم يجب عمار ، كان يتطلع إلى الطريق في شرود وقلق :

وعاود يحيى حديثه قائلا :

— وخشيت ألا تحتل مشقة العملية .. ولكن عمارا .. قال عنك كلاما
مطمئنا .

وابتسمت مى رغم التوتر الذى يشد أعصابها ، وقالت وهى تنظر إلى
عمار :

— ماذا قلت عنى يا عمار .. لم أتوقع قط أنك يمكن أن تثق بى فى أمر كهذا .
ولم يجب عمار . ورد عنه يحيى قائلا :

— قال إن لك جلد الرجال على العمل .. وإنك صبور وشجاعة .

وازدردت مى ريقها وهمست وهى تنظر إلى ظلمة الطريق :

— ١٩٧ —

— أرجو أن أكون عند حسن ظنكما .. ماذا أستطيع أن أفعل ؟
وتكلم عمار دون أن ينظر إلى مى محاولا شرح المهمة :
— ستقفين عند نقطة للمراقبة .. وتعطين لنا إشارة ضوئية عندما يقترب
القطار من شجرة الكافور القائمة على الجسر .. حتى تعطينا الفرصة الكافية
لإشعال اللغم .. بحيث يضبط الانفجار في اللحظة التي يمر بها القطار .
وصمت عمار . وانتظرت مى أن يتم حديثه ولكنه لم يقل شيئا أكثر
مما قال .

فتساءلت مى فى شيء من الحيرة :

— وبعدين ؟ ..

— تعودين إلى العربية .

— فقط ؟

— أجل .

— أهذا كل ما فى الأمر : أجلس لأعطى إشارة ضوئية ؟

وصمت يحى ورد قائلا :

— وماذا تريد أن تفعل أكثر من هذا ؟

— وأى شجاعة .. أو جلد .. يحتاج إليه هذا ؟

— يحتاج إلى أعصاب قوية .. أن تنتظري حتى يقترب القطار وتعطى إشارة
فى اللحظة المضبوطة .

— أى إنسان يمكن أن يفعل هذا ..

ورد عمار :

— ليس فى كل ما نعمل شيء يستحيل على أى إنسان .. إنها كلها أعمال

بسيطة يا مى .. ولكنها فقط تحتاج إلى من يفعلها .

وصمت لحظة ثم استطرد قائلا فى استخفاف :

— نحن مثلا لن نفعل أكثر من أن نضغط على مفجر اللغم .. عندما تعطينا

الإشارة ..

وقال يحيى ضاحكا :

— وأى إنسان يمكن أن يفعل هذا .

وقال عمار وهو يطلق ضحكة قصيرة ساخرة من أنفه :

— والطلقة التي تستقر في قلب العدو .. لا تحتاج إلا لسبابة تضغط برفق على زناد البندقية .. أو زر الرشاش .. وأى سبابة يمكن أن تفعلها .

واستمر في ضحكته الساخرة وهو يقول :

— البطولة ليست مستعصية .. إنها مجرد ضغطة سبابة .

وقال يحيى متمما :

— أو إشارة بطارية .

ورذت مى :

— كان يحيل إلى .. أن هناك .. أشياء أشق .. وأصعب .

وقال يحيى :

— أبدا .. كلها أشياء بسيطة .. ولكن المهم في أن نقدم عليها .

واستدرك عمار قائلا :

— وفي أن نكون على استعداد لتحمل عواقبها .. فقد لا تكون الصورة بمثل هذه البساطة التي نرسمها .. إشارة تعطى ولغم يفجر .. وقطار يدمر .. ثم نعود ببساطة إلى العربية .. كأننا في نزهة .. إن هذا هو ما نأمله ..

وضحك يحيى قائلا :

— ولكن من يدرى .. ماذا يمكن أن يحدث .. البطارية في يدك مثلا قد

لا تعطى إشارة .. تتوقف .. ينفد الحجر .. واللغم قد يرفض الانفجار .. مفاجآت غير سارة تثبت فجأة .. وقد نفاجأ بكمين ينتظرنا .. وقد .. وقد ..

هنا المشقة .. وهنا يصبح علينا أن ندفع الثمن .

وابتسمت مى قائلة :

— ١٩٩ —

— الثمن لن يكون أكبر من حياتنا .. وسندفعه ببساطة .
— يمكن أن يكون اعتقالا وتعذيبا من أجل أن يمسكوا بخيط يجرون به عددا أكبر .

وفجأة ضحك يحيى قائلا :

— ما هذا الذى نفعله .. إننا ندفع بالرعب إلى قلبك بلا مبرر .. سيكون كل شيء على ما يرام .. ستعطين إشارة .. وسيفجر اللغم . ونعود إلى بيوتنا لنغتسل وننام .

وردت مى بابتسامتها الرقيقة فى صوت هادئ النبرات :
— ربنا ينصرنا .. دعونا نقرأ الفاتحة .. إنها دائما تفتح لى الطريق .
وتتم الثلاثة بالفاتحة .

ثم مد عمار يده إلى حقيبة بجواره فأخرج منها إحدى القنابل التى تملؤها ثم سلمها إلى مى قائلا :

— ضعى هذه فى حقيبتك .. لو حدثت أية مفاجأة غير متوقعة .. لو اكتشف العدو أمرنا .. وهاجمنا فانزعى طابة الأمان .. هكذا .. ثم ألقها عليهم .. وهذه هى البطارية .

ثم وجه الحديث إلى يحيى قائلا :

— أظن من الأفضل أن نتوقف ...

وتوقفت العربة .. وهبط الثلاثة منها يحملون معدات النسف ..
وقال عمار :

— اذهب أنت يا يحيى باللغم .. حتى أصحب مى إلى نقطة المراقبة .
وتساءل يحيى :

— وسنعود للنتقى بعد العملية فى العربة ؟ ..

ورد عمار :

— أفضل ألا نعود إلى العربة .. سأرفع عنها الرقم .. ولتخذ كل منا

— ٢٠٠ —

طريقه .. إلى البيت .. فهذا خير من أن نسير متجمعين .. أو نركب العربة
معا ..

ثم وجه الحديث إلى مى قائلا :

— هل تستطيعين أن تعودى وحدك يا مى ؟

— طبعا ..

— إن عودتك وحدك .. أكثر أمانا لك .. والقنبلة معك استعمالها وقت

الحاجة .

وردت مى :

— وكيف أطمئن عليكما ؟ ..

— عندما تسمعين الانفجار .. اعرفى .. أن الأمر قد انتهى ..

وقال يحمي ضاحكا :

— أمرنا نحن .. أو أمر القطار ..

وسارت مى تتبع خطا عمار .. وضمت ياقة معطفها إلى عنقها .. لتتقى ريح
الليل الباردة التى تتسلل إلى صدرها .. وكانت يدها تطبق على القنبلة البيضاوية
بسطحها المجعد أشبه بقشرة السلحفاة وفى يدها الأخرى البطارية .
ووصلا إلى منطقة السكة الحديد .. وصعدا الجسر وهبط عمار على الأرض
وهبطت بجواره مى .

وقال عمار مشيرا إلى الشريط المنساب فى الظلمة كالأنفى :

— من هنا سيأتى القطار .. عندما تعبر مقدمته هذه النقطة .. أعطى

الشارة ..

ثم أشار إلى الاتجاه الآخر :

— إننا سنكون هناك .. فى بقعة ما وراء إحدى هذه الأشجار .. أعطى

الشارة .. ثم انسحبى من مكانك فورا .. وعودى إلى البيت .

وردت مى فى قلق :

— ٢٠١ —

— وأتر ككما ؟..

— سيعود كل منا في طريقه بعد أن يفجر اللغم .

وهبط عمار من فوق الجسر تاركاً مـى .

وهمست مـى :

— مع السلامة ..

وجلسـت مـى على الجسر بجوار الشجرة . وبدت النجوم تـبرق من خلال السحب وريح الليل الباردة تسرى فى أوراق الشجرة فتصدر صوتاً أشبه بالفحيح وصفير صرصور يفـح فى عناد كأنه يتحدى الصمت . ونباح كلب يعلو من بعيد . وأضواء المدينة تخفق مرتجفة شاحبة .

وشدت مـى أصبعها على البطارية واضعة إبهامها على الزرار استعداداً لضغطه . وأطبقت بكفها الأخرى على البيضة الصلبة المجعدة السطح . وثبتت عينها فى الأفق المظلم الذى ينساب فيه الشريط الحديدى وبدأت أذناها تلتقطان أصواتاً موهومة .. لطرقات قطار لا تلبث أن تتبدد .

« إنها شجاعة وصبور .. ولها جلد الرجال .. » ألم يقل عنها عمار هذا ؟ . لم يخطر لها ببال أن هذا يمكن أن يكون رأيه فيها . فهو دائماً لا يمنحها غير الصمت والتجهم والسخرية ..

ولقد ودت أن تفعل شيئاً تستحق عليه هذا التقدير .. شيئاً أكثر من ضغط زر البطارية .

ولكن هذا هو ما يحتاجونه منها .. كم ودت لو كانت بجواره تفجر معه اللغم وتفديه بنفسها وتحميه من كل سوء .

وعادت قبضتها تشد على البطارية .. والصرصور يصفر فى إلحاح .. والريح تنفخ فى الشجر .. ونباح الكلب يعلو .. تأخر القطار ..

لا يسمع له حتى صفير من بعيد .

لماذا لا يأتى قبل أن يحس بهم أحد ؟ ..

— ٢٠٢ —

بوق سيارة يسمع من بعيد .. لعلها لا تكون دورية إسرائيلية .. وأطبقت يدها على القنبلة .. وتحسست طابة الأمان . وأصابتها على الرغم منها رجفة .. إذا اقتربت العربة .. فسيكون مصيرها الدمار .. سترفع الطابة .. وستنفذ بها على طول ذراعها .. وخفت صوت البوق وتباعدت العربة . وفجأة سمعت صفيرا يدوى ..

وبدا ضوء القطار في المنحنى وطرقاته تتواتر منتظمة متلاحقة ، والتصقت في الشجرة كأنها تجذبها نوعا من الوقاية ..

واقترب القطار .. وازدادت الطرقات وضوحا .. وأخذت أنفاسها تتلاحق .. وأصابها إحساس بالخوف لا تدرى سببا له .. كل ما عليها هو أن تنتظر حتى يصل القطار إليها .. فتضغط زر البطارية .. وزاد ضجيج القطار .. واقترب شبحه الأسود حتى بدا كأنه يوشك أن يدهمها .

وضغطت بإبهامها زر البطارية .. مرة .. بعد مرة .. ومرت بها عربات القطار بسرعة .. وهي تنظر إليها مشدوهة وتذكرت مى أن عليها أن تهبط بسرعة من فوق الجسر .. وتنطلق .. ولكنها أحست بجسدها يتسمر مكانه . حتى جاوزها القطار .. وفجأة سمعت صوت دوى عنيف .. وأبصرت وهجا يخطف الأبصار .. وأخذت الانفجارات تتوالى .

واندفعت تهبط من الجسر تعدو بعيدا عن الانفجار . أين عمار ويحيى ؟ ..

هل يمكن أن يكون الانفجار قد أصابهما ؟ هل يمكن أن تكون دوريات العدو قد أطبقت عليهما ؟ .. لماذا لم تذهب إليهما .. لتكون معهما .

ولكنهما قالان وجودهم معا .. سيبعث على الرية فيهم . وأن على كل منهم

أن ينطلق في طريقه .
وسمعت أصوات أبواق عربات تقترب من مكان الانفجار .. وتعالى الضجيج .
ودلفت هي وسط المباني القائمة في طرف المدينة . وكفت عن العدو حتى تلتقط أنفاسها وحتى لا تثير الشبهات .
وكان الناس قد استيقظوا على صوت الدوى والانفجارات التي تلاحقت بعده . وأخذ الوهج يضيء دائرة كبيرة حول شريط السكة الحديد .
وبدأت مى تعرج من طريق إلى طريق حتى وصلت إلى الحى الذى تقطن به .
وكانت السيارات الإسرائيلية المسلحة لا تفتأ تمر بها بين آونة وأخرى وكلما مرت بها سيارة أطبقت يدها على الجسد البضاوى لتحسس طابة الأمان ..
ولكن أحدا لم يستوقفها .. إلا فى بعض محاولات للعبث .. أشاحت عنها بوجهها .. وواصلت السير فى هدوء حتى بلغت البيت .. وطرقت الباب .
وبدا كأن الشيخ عبد السلام يقبع خلفه فقد صاح متسائلا ويده على الرتاج :

— من ؟

— أنا .

وفتح الباب ونهض ليلقاها فى لهفة متسائلا :

— تأخرتم علينا .. أين عمار ؟

— قادم .

— وكيف الحال ؟

ونظرت مى إلى الشيخ عبد السلام وأطلقت تنهيدة فرحة وغمغمت قائلة :

— نسفناه يا عمى ..

وتساءل الشيخ عبد السلام فى دهشة :

— ما هو الذى نسفتموه ؟

— ٢٠٤ —

- القطار . بكل ما فيه من ذخائر وأسلحة .. لو كنت رأيت الوهج ..
وسمعت الدوى .. لارتاح قلبك ..
وردد الشيخ عبد السلام كلامها في ذهول :
— نسفتم القطار .. أذهبت معهم لهذا ؟
— أجل ..
— أهذا الدوى الذى سمعناه .. كان من صنعكم ؟
— أجل .. لقد فجرناه فى الهواء .. بدل أن يفجروه فى صدورنا .
— ولكن أين عمار ؟
— لا بد أنه قادم ورأى .
— هل هو بخير ؟
وأخذ قلب مى يدق فى خوف وقالت تحاول أن تبعث الطمأنينة فى نفسها قبل
أن تبعثها فى قلب عمها :
— أجل .. أجل .. إنه بخير .
وعلا صوت الأم من الداخل متسائلة :
— ماذا هناك يا عبد السلام .. هل حضر الأولاد ؟
— أجل ..
— والجريح بخير ؟
— أجل .. أجل .. كل شىء بخير إن شاء الله .
وقبل أن يتجه إليها الشيخ عبد السلام .. سمعت وقع أقدام تعلقو الدرج .. وطرق
الباب .. وسمع صوت عمار يقول فى عجلة :
— افتح يا أبى .. أنا عمار .
وأقبل عليه الشيخ عبد السلام يتحسسه فى لهفة قائلاً :
— أنت بخير يا عمار .. ؟
— أجل يا أبى .. ولكنهم الآن قد بدأوا يهاجمون البيوت ليفتشوا عن

— ٢٠٥ —

الأسلحة .. وعن الفدائيين .

ثم سأل مى :

— أين القنبلة التى كانت معك ؟

وأخرجت مى القنبلة من جيبتها قائلة :

— ها هى .

— هاتيها لأدفنها فى الحديقة .. مع بقية ما فى الحقيقة . لقد أبصرت على خارج

الباب علامة × .. ولا بد أنهم سيفتشون بيتنا ..

وأقبلت الأم من حجرتها على ضجيج الحديث متسائلة فى دهشة :

— ماذا هناك ؟

ومن ورائها بدا خالد والنوم فى عينيه . ولم يكديقع بصره على القنبلة فى يد مى

حتى هتف فى فرحة :

— هذه قنبلة .. إنى أعرفها .. هل يمكن أن أمسكها ؟

.. وهتفت الأم فى فزع :

— قنبلة .. أبعدوها .

وصاح عمار فى غيظ :

— ما كل هذا الضجيج .. اذهبوا وناموا .. ودعونى أخفيها فى الحديقة .. فلا

أحد يعلم متى يقبلون ..

واندفع بالحقيقة إلى الحديقة ووراءه خالد والأم تمسك به من عنقه وترده إلى

حجرة النوم :

— اذهب يا مجنون .. ونم .

وهتف خالد فى إعجاب :

— إنها قنبلة حقيقية ..

ثم صاح بعمار :

— ضعها عندك بجوار بندقيتى .. سيصبح لدينا مخزن سلاح .

لن يهجروه ..

استلقت مى على فراشها بعد أن آوى الجميع إلى مضاجعهم .
حاولت أن تغمض عينيها ولكن الوهج كان يلوح مضيئاً وراء أجفانها المطبقة
والدوى يملأ مسامعها .

وعندما أثقل الإعياء جفونها .. جرها إلى أحلام مليئة بالصراخ .. والدماء ..
وعربات الإسرائيليين تنشر الدمار حولها .. تهدم البيوت وتقتلع الأشجار .
وما لبثت أن استيقظت على حركة الشيخ عبد السلام المشاقلة استعداداً
للوضوء وللصلاة فأدركت أن الفجر قد أقبل وتملكها إحساس بالراحة أن الليل
قد ولى ..

وزادت الحركة في الدار فلم تشك في أن عماراً هو الآخر قد استيقظ ..
ونفضت بقايا النوم عن جفونها لعل عماراً يحتاج إلى شيء قبل أن يغادر الدار .
وقبل أن تترك الفراش سمعت بوق عربة ووقع أقدام تصعد الدرج ثم طرقات
عنيفة متواصلة على الباب .

وأصابها رجفة وتسمرت في مكانها برهة ثم آتجهت إلى غرفة عمار ووقف
عمار ينصت مأخوذاً والطرقات تتوالى في عنف ثم خطا إلى الباب فهتفت مى :

— لا تفتح .. لأنهم هم .

— لا فائدة .. سيحطمون الباب إن لم نفتح .

وعلا صوت الشيخ عبد السلام من حجراته بعد أن ختم صلاته قائلاً :

— انتظر يا عمار .. سأفتح أنا .

ولكن عماراً كان قد وصل إلى الباب وفتحه .

— ٢٠٧ —

واندفع من الباب بعض جنود إسرائيل يحملون مدافعهم ودفع أحدهم عمارا في صدره بفوهة مدفعه صائحا :

— افسح الطريق ..

ثم صاح بالآخرين :

— فتشوا البيت .

وبدت فاطمة في باب البهو المؤدى إلى حجرتها وقد وقفت تنظر إليهم وبدا عليها جزع ممزوج بالحقد وهتفت بهم وهى تحاول أن تمسك بخالد الذى هم بأن يخرج إليهم متحديا ..

— ماذا تريدون ؟

وصاح بها أحدهم وقد تسرب الباقي بأسلحتهم إلى بقية حجرات البيت :

— سنفتش البيت .

وتساءل الشيخ عبد السلام :

— لماذا ؟

وصرخ به الرجل في عصبية :

— سنعرف كيف نؤدبكم .. إنكم تخزنون الأسلحة وتؤوون الإرهابيين .

وتتم الشيخ عبد السلام :

— إرهابيين ..

وصرخ فيه الرجل :

— أجل ..

— إنهم أبناؤنا .. إنهم نحن .. إننا نمارس حقنا الشرعى في مقاومة احتلالكم ..

إننا نريد حريتنا .. لماذا لا تقبضون علينا جميعا ؟

— سنفعل .. لن يفلت منكم أحد ..

وكان الجنود قد أخرجوا كل ما فى الدواليب والصناديق .. وبدا البيت كأنما قد

هب عليه إعصار قلب كل ما فيه رأسا على عقب .

— ٢٠٨ —

وصاحت فاطمة :

— ربنا ينتقم منكم ..

وعندما انتهى التفتيش صاح قائدهم :

— ليصعد بعضكم إلى السطح وليفتش أحدكم في الحديقة .

ورفع خالد عينيه إلى عمار . ونظر إليه عمار نظرة صارمة .. فلم ينطق بكلمة .

وبعد برهة عاد الجنود يؤكدون :

— لا يوجد شيء .

وهتف قائدهم بعمار :

— اخرجوا .

وسأله عمار في دهشة :

— إلى أين ؟

ودفعه الرجل بفوهة المدفع في صدره وصاح به غاضبا :

— أستحقق معنى ؟ .. قلت لكم اخرجوا .. يعنى اخرجوا .

وأمسك عمار بماسورة المدفع يلويها بعيدا . وقال له في حقد :

— سأخرج أنا معكم .

— بل ستخرجون جميعا .

— إن أبى رجل كبير ومريض .

— الجميع سيخرجون للتحقيق ..

— التحقيق في ماذا ؟

— في نصف القطار .. وفي الهجوم على إحدى الدوريات .

وأشار عمار إلى مى وإلى أمه وخالد :

— والمرأتان والطفل سيحققون معهم ؟

وصاح الرجل وهو يتأمل في نظرة فاحصة :

— لتبقى العجوز والولد .

— ٢٠٩ —

وهتفت فاطمة في إصرار :
 — بل سأذهب معكم .
 وقال الشيخ عبد السلام راجيا :
 — ابقى يا فاطمة .. ابقى مع الولد ..
 ولم تشرق الشمس إلا وقد سيقّت الجموع إلى الأرض الخلاء التي تقع وراء
 الدور بفوهات المدافع في ظهورهم .
 ومرت الساعات الثقيلة .. والناس في العراء .. والمدافع مسلطة عليهم ..
 وبين آونة وأخرى يساق بعض منهم إلى إحدى العربات حيث تنطلق بهم إلى
 حيث لا يعلم أحد .
 وقبل العصر .. سمع دويّ شديد .. ثم توالى الانفجارات وعلا الدخان من
 وسط البيوت .
 وعندما انقشع الدخان .. بدا الحى .. كله مجموعة من الخرائب والأطلال
 ونظر الشيخ عبد السلام إلى الجدر المنقضة من بعيد وهتف في ارتياح :
 — فاطمة ..
 وصاحت مى في جزع :
 — خالد .
 ورد عليها عجوز جلس على الأرض بجوارها :
 — خير لنا أن نرحل .. أن ننجو بأعمارنا .
 ورد الشيخ عبد السلام وقد تصلبت عضلات وجهه :
 — بل سنبقى .
 — فوق الأنقاض ؟!
 — بل وتحتها .
 وبدا الجنود الإسرائيليون يخرجون الشبان من بين الصفوف وأمسك أحدهم
 بعمار يحمله بعيدا :

— ٢١٠ —

فصاحت مى بالرجل :
— إلى أين ستأخذه ؟
— إلى التحقيق .
— تحقيق فى ماذا ؟
— فى الحوادث التى وقعت .
— ألم يكفكم بيوتنا التى هدمتموها على رؤوسنا .. ألم يكفكم كل ما فعلتموه
بنا من تعذيب وتشريد ..
وقال الرجل ساخرا :
— إننا نريد الأرض خالية .
وهتف الشيخ عبد السلام :
— لن نتركها أبدا .
— لن نبقى لكم فيها شيئا .
— ستبقى الأرض .. أرضنا .
— لن تجدوا فيها غير الدمار .
وصاح الشيخ عبد السلام :
— ولن تجدوا فيها أنتم غير الهلاك .
وسيقت جموع الشباب بمدافع الجنود إلى السجون .. ومن بينهم عمار .
وأحست مى بقلبها يعتصر فى صدرها .. وودت لو استطاعت أن تفديه
بنفسها .
وسار الشيخ عبد السلام متاثلا وقد هذه الحزن والأسى وسارت مى وقد
أطبق عليها اليأس متجهين صوب الدار .
وقال عبد السلام كأنما يحدث نفسه :
— ليتنى تركتها تخرج .. أنا الذى قلت لها ابقى مع الولد .
وردت مى فى لوعة :

— لينجها الله ..

ودخل عبد السلام قرب البيت .

كان الشارع كله يبدو أطلالا وأنقاضا والدخان يتصاعد وانفجارات مازالت تدوى بين آونة وأخرى وأصوات صراخ وأنين تتعالى من بين الأنقاض . وعربات الإسعاف تقبل لرفع الحجارة والأتربة وإنقاذ الضحايا .. وعربات الحريق تخترق الطرقات بسرعة لإطفاء الحرائق .

وأحس عبد السلام أنه لا يكاد يقوى على السير .. واستند على ذراع مى وهو يقترب من البيت .

ولم يكذ يصل إلى الباب حتى أبصر خالدا مندفعا إليه باكيا وهو يصيح :
— أمى ..

وهتفت مى مندفة تجاه البيت :

— أين هى ؟

— فى حجرتها .. كنت أقف فى الحديقة بجوار كومة الحطب .. عندما سمعت دويا فظيعا .. وسمعتها تصرخ .. وأبصرت الجانب الآخر من البيت يتهاوى .. والسقف ينقض واندفعت إليها .. فوجدت الدماء تسيل من رأسها ..

وكانت مى قد اندفعت فوق الأنقاض يتبعها الشيخ عبد السلام . كان الجانب الشرقى من البيت الذى به حجرة عمار قد انقض وهوى سقفه وبقيت الصالة سليمة مع الجزء الغربى من البيت حيث كانت ترقد فاطمة .. واستطاعت مى أن تصل إليها وكان أحد جدران الحجرة قد تشقق وانهارت بعض حجارتها والنافذة قد حطمت .

وكانت الدماء قد غطت وجه فاطمة .. وأخذت تن أنينا موجعا .

وتهاوى الشيخ عبد السلام على الأرض وهو يأخذها بين ذراعيه وهو يهتف فى أنين موجع :

— مالك يا فاطمة .. سلامتك يا حبيبتي .

وتمت فاطمة :

— أين عمار ؟

— إنه بخير ..

— أين هو ؟

وقالت مى :

— ذهب مع إخوانه ليتعاونوا فى رفع الأنقاض وإطفاء الحرائق .

— أريد أن أراه قبل أن أموت .

وصاح عبد السلام :

— أنت بخير يا فاطمة ..

وأسرعت مى إلى الحمام تحضر فوطة مبللة بالماء وأخذت تمسح الدماء عن وجه فاطمة .

وتكشفت الدماء عن جرح فى رأسها .

وحاولت مى أن تسحب جسد فاطمة من أسفل الحجارة ولكنها صرخت فى ألم ، وهى تهتف متوجعة :

— ساقى .

وأدرك الشيخ عبد السلام أن الساق كسرت .. وضمها إليه فى أسى ويأس وهتف وهو يرفع رأسه إلى السماء :

— يا رب .. الطف بنا يا رب ..

وأحست مى بالعجز وهى لا تعرف ماذا تفعل .

الحى كله قد أضحى أطلالا لا يسمع منه سوى أنين وصراخ .. ولا يصرفه

سوى الغبار والدخان والكل فى حاجة إلى إنقاذ ..

ووضعت الفوطة المبتلة على رأس خالتها .. التى ما فتئت تردد أسماء أبنائها :

— أين عمار .. لماذا لا يحضر ؟ ..

— ٢١٣ —

ويتمتع عبد السلام :

— حالا .. سيأتي .. إنه يؤدي واجبه يا فاطمة .

وتعاود فاطمة أنينها :

— عايدة .. ابنتى .. حبيبتى ..

وترد عليها مى :

— إنها بخير يا خالتي .

ولا تلبث أن تهتف :

— خالد :

ويقترب منها خالد مجيبا والدموع فى عينيه :

— أنا هنا يا أمى ..

وهتفت مى :

— هذا الاستسلام لن يجدى .. لا بد أن نفعل شيئا .

وقالت للأب :

— سأذهب لأرى طبيبا ..

وتمتع الأب :

— اذهبي إلى كمال ..

والتقط أنفاسه اللاهثة ثم أردف يقول :

— عسى ألا يكون قد أصابه شيء .. أو اعتقلوه هو الآخر ..

واندفعت مى وسط الأتربة والأنقاض .. وانطلقت تعدو فى الطريق ..

وعندما وصلت إلى عيادة كمال ..

وجدت البيت خاليا والعيادة مظلمة ..

وقالت لها عجوز تقبع وراء الباب :

— الدكتور فى المستشفى ..

ثم صاحت فى غضب وحقد .. خربوا البلد الله يحرقهم بنار جهنم ..

وأحست مى بعجز عن التفكير .. شدت الأحداث المتلاحقة أعصابها ..
ولم تعد تعرف كيف تتصرف .

إذا كان كمال فى المستشفى .. وطبعى أن يكون هناك فإن عليها أن تذهب
بخالتها إليه .. فالكسر والجرح لا يمكن علاجهما فى البيت بل إن البيت نفسه لم
يعد يصلح للإقامة .

وعمها لم يعد يقوى على شيء .. لقد بات إنسانا محطما ..
والمطلوب نقل الأم إلى المستشفى .. وإيجاد مكان للشيخ والولد يأويان
إليه ..

إنها هى تستطيع أن تقضى كيفما كان ..
بل إن عليها أن تفعل شيئا من أجل هؤلاء الذين يئنون تحت الانقراض .
وعمار !!

تشعر كلما ذكرته فى زحمة الأحداث أن شيئا فى صدرها يتمزق .
ماذا يفعلون به ..
الأنذال الجبناء ..

إن ظفره .. بعشرة منهم ..
هل يضربونه .
هل يعذبونه .

ولم لا ؟ .

لماذا لم تذهب معه .. لتعذب كما يعذب .. فلعل هذا يريحها بعض الشيء ..
أجل .. سيخفف عذابها أن تشعر بما يشعر .. وأن تلاقى ما يلاقى .. وتحمّل
ما يحتمل .

ولكن حتى هذا بات أمنية مستعصية .
إن عليها أن تؤدى ما يجب أن تؤديه .. بدل أن تحلم بأمنية قد استعصت
عليها .. حتى ولو كانت عذابا .

اجرى يا مى إلى المستشفى .
 ليس هناك وقت لتتركى خالتك فى رقدتها هذه .
 أو التقطى أية عربة من الطريق .. فلعل بها صديقا يعاون فى نقل خالتك ..
 والشيخ عبد السلام .. لن يترك فاطمة .
 وقبل أن تنطلق إلى المستشفى لمحت عربة كمال تقترب من البيت فهتفت
 صائحة :

— كمال .. دكتور كمال .
 ولكن كمال لم يكن بها ..
 كانت تقودها أميرة .. ولم تكذب تراها حتى هتفت بها :
 — مى إلى أبحث عنك .. لقد ذهبت إليكم .. فقال لى عمك إنك ذهبت
 لإحضار كمال ..

— أجل وعرفت إنه فى المستشفى .
 — لقد طلب منى أن أحضر إليكم لأرى ماذا يحتاجون إليه ولأنقلكم معنا إلى
 البيت .. بعد أن عرف أن خيكم قد نسف .
 — لننقل خالتى أولا .. إلى المستشفى .
 — أجل .. هيا بنا .

وانطلقت العربة عائدة إلى البيت .
 ونقلت فاطمة فى حالة إغماء إلى المستشفى .. ولقيها كمال وقد بدا عليه
 الإرهاق والقلق وقام لها بالإسعافات الأولية العاجلة .. واستقرت مى فى
 المستشفى ترعاها وتعاون كمال فى عمله المضى .

وذهبت أميرة بالشيخ عبد السلام وخالد إلى بيتها ..
 وحاول الشيخ الاعتراض قائلا :
 — ألا أستطيع أن أبقى مع فاطمة ؟
 — ليس هناك أمكنة يا عمى .. أنت تعرف المستشفى مزدحم بالمصابين .

- إذن أعود إلى البيت .
- كيف .. إن البيت لا يسكن .
- أستطيع أن أمضى الليل في حجرى ..
- لقد تشقق جدارها .. ويمكن أن تنهار في أية لحظة .
- سأعيد بناءها .
- يا عمى .. إن بيتنا بيتك .. ومى أختى .. ويجب أن يسع بعضنا بعضا .
- وتنهّد الشيخ عبد السلام وتتمّ قائلاً :
- لن نتركهم يطردوننا من بيوتنا يا أميرة .. سنمد جذورنا في الأرض .. كما تمد شجرة الكافور جذورها .. لن نقتلع إلا بالأرض نفسها .. أو ندفن فيها .. حتى نختلط بترابها .
- أبعد الله الشر عنك يا عمى .. لنقضى الليلة في بيتنا .
- وقاطعها الشيخ عبد السلام قائلاً في عناد :
- وغدا سأعيد بناء البيت .. بيدي هذه ..
- ومضى الليل ..
- ليل لم يغمض فيه جفن لأحد ..
- العيون مفتوحة .. والدوى ما زال صدهاء .. يطرق الآذان .
- خالد .. يفكر في مخزن السلاح المدفون في الحديقة .
- متى تصبح الماسورة بندقية ؟
- عندما يعود عمار هذه المرة .. لا بد أن يستقر معه على أمر .. إما أن يصلح الماسورة .. أو يمنحه بندقية أو مدفعا .. أو .. ليعطيه بعض هذه القنابل المدفونة .
- والشيخ عبد السلام .. يفكر في رفيقة العمر الراقدة بشج في رأسها وكسر في ساقها .. ولولا لطف من الله لقضى عليها .
- هؤلاء .. الكلاب .. متى تحين خاتمتهن .. طال بغيهن وظلمهن وعدوانهم .

— ٢١٧ —

لقد ركبهم الغرور .. وباتوا يتعاملون بصلافة الغزاة ..
استأسد الكلاب .. وتجبروا ..
هل كان العالم على حق حين سامهم سوء العذاب ..
هل بهم ما يثير الغل .. ويدفع إلى الغضب .
هل هؤلاء هم المساكين الذين يطلبون الاستقرار والأمان والسلام ..
الذين بقروا بطون الحبالى فى دير ياسين والذين اصطادوا الفلاحين المسالمين
عند عودتهم من أرضهم فى آخر اليوم بالرصاص فى كفر قاسم .
أهو غضب ينفثونه من صدورهم المليئة بالحقد .
أهو انتقام من البشرية التى حصدتهم بالملايين وألقت بهم فى أفران الحريق
كالقمامات .
ولكن .. أيا كانت مشكلتهم ..
فليس العرب .. أصحابها .. ولا أسبابها .
ومشكلة العرب قد باتت الأرض .. المسلوقة .. والوطن المنهوب .
مشكلتهم باتت فلسطين .. المقضى عليها .. والتى لا بد أن تعود .. شعبا ...
وأرضا .. ووطنا .
ومن أجل هذا لن يترك البيت ..
هدموه .. دمره .. ذكوا جدرانها ساووه بالأرض .
ولكنه سيبقى فيه ..
سيقم جدرانها .. وسيرفع سقفه .
إنه لا يشكل له مجرد بيت .. ولكنه هو وغيره .. يكون وطن .. لا يجب أن
يهجر مرة أخرى ..
إذا دفنوا فيه .. فهو وطنهم .
ليس من لوم عليهم .. إذا اختلطت أجسادهم بترابه .. ولكن اللوم أن
يهجروه .. أن يتركوه وحده .

وغدا .. سيرباً صدعه .. ويرم ما بقى منه ..
سيبقى فيه .. ولو كان حجرة واحدة .
وفاطمة ترقد فى المستشفى .. بساق فى الجبس .. وبرأس تلفه
الضماطات .. وجسد مكدود محطم .. ونفس مرهقة .. وذهن .. يطارد
عمارا ..

— أين عمار ؟

دائما يتركها ويختفى .. لا تعلم إذا كان سيعود أم لا .. إنه يعمل أعمالا
خفية .. إنها تعلم هذا .. ولا تستطيع أن تمنعه .. فهو رجل .. وهو يعرف
ما يجب عليه أن يفعله .. إنه لا يضحك .. ولكن النور فى عينه والإشراقة .. فى
وجهه .

وعبد السلام .. رفيق العمر .. إنه فى حاجة إلى رعاية .. وهى قد كبرت
ولا تستطيع أن تفعل له ما تعودت فعله .

ومى الرقيقة الطيبة .. أعانها الله على كل ما أمامها من مشقة .

وكانت مى تجلس على مقعد أمامها ..

مفتوحة العين .. دون أن ترى أمامها شيئا .. سوى صورة عمار ..

ابتسم يا عمار .. ابتسم يا حبيبي .. يا أعز الناس .

لن يجسر أحد على أن يمس شعرة منك ..

سأقتلهم جميعا .. لو امتدت إليك يدهم ..

هذه القنابل المدفونة فى الحديقة .. سأحفظها جيدا .. سأعرف كيف أفنك

بهم إذا لم تعد إلى .. إلى أملك الراقدة تهتف باسمك .. إلى أبيك الطيب الذى

يشرق وجهه عندما يلقاك ..

إلى خالد .. لكى .. تقلب له الماسورة إلى بندقية .

ومضى الليل ..

وفى الصباح كان الجميع يتحركون إلى البيت .

إلى الأنقاض والأطلال ..

تسللت مى من المستشفى لتبحث بين الأتربة عن شيء خطير ..
عن صورة عمار التي يأبى أن يتسم فيها .. والتي رفض أن يجلس أمامها والتي
قال لها عنها في كل مرة « كفى سخافة .. وافعل شيئا أفيد » .
ولكنها تحس الآن . بأن شيئا تحت الأنقاض .. لا يمكن أن يعادل في الأهمية
هذه السخافة .. لم تفكر في ثياب أو حلى تنقذها من تحت الركام ..
وأخيرا عثرت عليها ..

الحمد لله .. لم يصبها تلف كبير ..

هشم البرواز .. وخدش طرفها .. ولكن الوجه كله سليم .
عابس كما هو .. ولكنه جميل .

لو عرف أنها تقول عنه « إنه جميل » لزاد عبوسه .. وأشاح عنها بوجهه ..
فقد كان يكره من أمه أن تقول عنه هذا ..
ولكنه في نظرها كذلك .. بل ليس هناك من هو أجمل منه .. وسحبت
الصورة في يدها .

وكان الشيخ عبد السلام يدور ويلف حول البيت .. هدم هذا الجانب
وهوى سقفه .. لم يعد يصلح منه شيء .
وهذا الجدار قد تشقق .. والنوافذ قد تحطمت كلها ولكنه مع ذلك ..
سيعيد بناءه .

وخالد يحوم حول كومة الحطب .

قالت مى وهى تقرصه في ذراعه :

— إياك أن تقترب منه .. أو تخرج ما به .. وإلا أخذونا جميعا إلى السجن .
ولكنه في شوق إلى تحسس القنابل .

بالليل عندما يأوى الناس إلى مضاجعهم ويسود السكون .. وينقطع صوت
عربات اليهود .. سيتسلل إلى الحديقة ويخرجها ..

— ٢٢٠ —

وفجأة سمع بوق .. ووقفت عربة أجرة أمام سور الحديقة المهدم .. ونزلت منها عايدة تنظر مشدوهة إلى البيت الذى تحول إلى أنقاض .. ولم تلبث أن رأت خالدا يقبل عليها هاتفا :

— عايدة .. ماذا أحضرك ..

وردت عايدة تسأل فى لهفة :

— أين أمك .. وأين أبوك ؟

— أمى فى المستشفى .. وأبى هنا .

وأقبلت مى على الصوت ووراءها الشيخ عبد السلام وهتفت فى دهشة :

— عايدة ..

وأقبلت عايدة على أبيها تضمه باكية وهى تهتف :

— ماذا حدث ؟

وقال الأب وهو يربت ظهرها فى حنان :

— نسفوا البيت .

— وأمى ؟.

— بخير .. أوشك أن يقضى عليها .. ولكن الله لطف بنا .. كانت الوحيدة التى بقيت فى البيت .

وهتفت عايدة والدموع تنهمر من عينيها :

— لن تبقى هنا بعد ذلك .. سأأخذكم معى .

ونظر إليها الأب وهو يهز رأسه وقال فى إصرار :

— إنهم يريدوننا أن نرحل .. إنهم يشيعون فى البلد أنهم سيواصلون عمليات

الإرهاب والتفتيش والنسف .. لكى ينشروا الذعر فى البلد .. ويدفعونا إلى الهجرة .. أبدا لن نفعل ذلك .

وتساءلت عايدة فى دهشة وجزع :

— ولكن أين ستبتون ؟

— لقد نمنا الليلة الماضية في بيت الدكتور كمال .. وسيأوينا .. حتى أعيد بناء البيت .

— غير معقول يا أبى أن تسكن فيه ثانية .

— بل غير معقول أن أتركه ..

— قد يدمرونه ثانية .

— وسأبنيه ثانية .

— قد يدمرونه فوقكم .

— أغريب أن ندفن في أرضنا ؟

— إن حياتكم ..

— حياتنا لا قيمة لها بلا وطن .. ووطننا لا قيمة له بلا أرض .. سنبقى هنا ..

حتى نموت .

وأصر الشيخ عبد السلام على البقاء ..

وخلال أيام قلائل .. كان قد رم الجدار المشروخ واستطاع أن يعد إحدى الحجرات للسكنى .. واستقر ثانية في البيت .. وسط الركام والأتربة ..

وعادت عائدة إلى عمان بعد أن اطمأنت على أمها وبعد أن عجزت عن إقناع أبيها بالرحيل .

وفي الليل عندما ساد السكون جلست مى أمام صورة عمار ترمقها .. وتضع بالفرشاة .. مزيدا من الظلال .. والألوان .. وترهف السمع لعلها تسمع وقع أقدام حبيبة .. تصعد الدرج .. وتعيد السكنى إلى قلبها .

واجبٌ خاص

مرت الأيام والمقاومة الشعبية المسلحة تزداد اشتعالا في الأرض الفلسطينية ..

ليفى أشكول يعلن أنه قد تم القضاء على خمسة وتسعين في المائة من الفدائيين في الوقت الذى تتوالى ضربات الفدائيين في كل مكان وتشتعل نيران المقاومة في كل القرى والمدن .

والقوات العربية المسلحة يزداد تدعيمها يوما بعد يوم .. حتى باتت قادرة على توجيه الضربات الرادعة المرة بعد المرة .. فلم تعد إسرائيل تتسلى بضربها وقتما شاءت وأينا شاءت ثم تعود آمنة وكأنها في نزهة .. ولم تعد تحاولاتها الاستمرار والتحصين بمنجاة من الضرب والتدمير .

وضربت البحرية المصرية المدمرة الإسرائيلية إيلات .. فغاصت في قاع البحر منذرة لإسرائيل بالحقيقة المزعجة أن العرب لم يركعوا ولم يستسلموا وأنه قد أصبحت لديهم القدرة على تسديد الضربات الموجعة إليها فحاولت الرد بتدمير خزانات البترول في السويس لردع العرب ولكن الضربات العربية تزايدت في كل الجبهات .

واستطاع الصراع السياسى في الأمم المتحدة أن يصل إلى قرار مجلس الأمن والذى يحتم انسحاب إسرائيل .. وحل مشكلة اللاجئين ، ولكن يارنج مندوب المجلس ظل يتأرجح بالقرار دون جدوى وإسرائيل ترى أنه رسول يفاوض بينها وبين العرب وأن القرار الذى يحمله ورقة عمل للبحث . والعرب يصرون لا مفاوضة.. لا صلح .. لا اعتراف بإسرائيل .

وأقبل الشتاء على أسرة الشيخ عبد السلام تضمها أطلال بيت تصفر الريح الباردة في نوافذه المحطمة .. التي حاولت مى أن تسدها بعلب كرتون أحضرها الشيخ عبد السلام من الدكان ..

والبيت يسوده صمت ثقيل فى انتظار أوبة عمار من سجنه .
فاطمة تجلس مطرقة وقد أسندت رأسها على كفها وهى تتطلع إلى الباب كلما سمعت وقع خطوات تخطو فى الطريق .
والأب يعود متاثلا من الحانوت بعد أن ظل قابعا فيه لعله يسمع خبرا عن عمار ..

ومى تتسلل من البيت لتعاون فى أعمال المقاومة .. تحمل رسالة أو تنقل حقيبة .. أو تستطلع خبرا .. ثم تعود إلى البيت لتخلو إلى الصورة ، تتطلع إليها .. وتجربى خطوطا بالفرشاة عليها .. كأنما تتحسسها فى حنان ولهفة .
وكال يبدل جهده من أجل الحصول على معلومات عن عمار ويزور الأسرة بين آونة وأخرى محاولا طمأننتها ..

وفى ذات يوم جلست الأسرة تتناول العشاء فى صمت حزين ..
وقال خالد فجأة وهو ينظر إلى أبيه :

— ألم أكبر يا أبى ؟

وربت عبد السلام ظهره فى رفق قائلا :

— بل كبرت يا خالد .

— إذن لماذا لأحصل على بندقية .. بدل هذه الماسورة التى لا فائدة منها ..
أو على الأقل أعطونى بعض هذه القنابل المدفونة .

وتساءل الأب وقد بدا عليه الشرود وهو يلوك اللقمة بين شديقه :

— وماذا تصنع بها ؟

— أضرب دوريات اليهود .. أو أذهب لأخرج عمار من السجن ..

— اصبر يا خالد .

— ٢٢٤ —

- إلى متى .. ألم تقل لى دائما .. عندما تكبر .
— أجل ..
— والآن قلت لى لى كبرت .
وقالت مى محاولة إسكاته :
— عندما يأتى عمار .. سيعطيك بندقية .
— ومتى سيأتى عمار ؟
وساد الصمت .. وعادت فاطمة تتطلع إلى الباب مرهفة السمع .
واستطرد خالد يقول :
— لن يأتى عمار حتى يخلصه أحد .. إنهم يسجنونه ..
وسمعت وقع أقدام فى الطريق تقترب من الباب ثم تصعد درج الحديقة
وعادت الأم ترهف السمع وهتفت فى عصبية :
— من ؟
وطرق الباب وقفز خالد ليفتحه .
وقال عبد السلام لفاطمة زاجرا :
— اهدئى يا فاطمة .. أكل طريقة على الباب تفزعك هذا الفزع ..
وفتح الباب وبدأ منه كمال .
وهتف الشيخ عبد السلام مرحبا :
— تفضل يا بنى .
وأقبل كمال وفى قسماته بشاشة .. وعلى شفثيه ابتسامة مطمئنة ..
وسحبت مى مقعدا وقربته من المائدة قائلة :
— باسم الله ..
— شكرا ..
وقال عبد السلام :
— تناول لقمة معنا .. على ما قسم .

— ٢٢٥ —

— تغديت متأخرا ..

— فنجان من الشاي .

— لا داعى للتعب أنا لست غريبا .

وقالت مى :

— سأصنعه فى ثانية ..

— أرجوكم لا أريد أن أقطع طعامكم .

— أو شكنا على الفراغ منه .

وسحب عبد السلام مقعده بعيدا عن المائدة قائلا فى لهجة اعتذار :

— المكان ضيق لم أستطع أن أرم سوى حجرتين ولكنى أبذل كل جهدى

لأكمل الحجرة الشرقية .. لقد أوشكت أن تتم .. إنها حجرة عمار ..

وأطلقت الأم زفرة حارة ..

وقال كمال :

— لدى أنباء مطمئنة ..

وتساءلت الأم فى لهفة :

— خيرا ..

— خيرا إن شاء الله .. لقد رأيت رجلا أبصره فى السجن .. قال لى عنه إنه

بخير .

وانهمرت الدموع من عيني الأم وقالت وهى تنشج بالبكاء :

— أحقا هو بخير .. أم تريدون طمأنتى ؟

— لقد أقسم لى الرجل .. وهو صادق .. أنه رآه بعينه .

وتساءلت مى فى لهفة :

— ومتى سيخرج ؟

— يعتقد الرجل أنهم سيطلقون سراحهم قريبا .. لقد بدأوا فعلا يخرجون

البعض .. بعد أن أسفر التحقيق عن لا شىء .

(ابتسامة على شفثيه)

وتتممت الأم في حنان :
— لو أراه .. قبل أن أموت .. يا رب اجعل يومى قبل يومه .
ورد كمال :
— أطال الله عمرك ..
— كرهت عمرى وأيامى يا بنى .
— سترين عمار بإذن الله .. إنه بخير .
ويجيب عبد السلام :
— سمع الله منك ..
وأقبلت مى بفنجان الشاي .
ورشف منه كمال رشفة .. وهو يشعر بلسعة سرسوب من الهواء البارد في
قفاه .
— من أين يأتى هذا الهواء ؟
وقالت مى في خجل :
— يبدو أننى لم أستطع أن أحكم الكرتونة على النافذة ..
وتساءل كمال في عتاب :
— ولماذا لم تخبرينى لأرسل عامل يضع فيه الزجاج .
وتتم عبد السلام قائلا :
— سأركب الزجاج في البيت كله مرة واحدة . إننا نضعه مؤقتا .. لا تكلف
نفسك .
قال كمال :

— إنه بينى يا عمى .. أنت لا تعرف قدرك في نفسى .. بل نفوسنا جميعا ..
ألا يكفي أنك شيدته وأقمت به .. لقد أوقفت موجة من الهجرة كادت تحل
بالبلد .. لقد قرر أهل الحى كلهم البناء بعد أن بنيت أنت .. ولم تفلح إنذارات
الإسرائيليين في إرهابهم .. لقد هم البعض بالنجاة بأنفسهم .. ولكن ..

وقاطعه عبد السلام قائلا :

— لم يبق من العمر يا بنى ما يستحق النجاة به .. ليتنى أستطيع أن أفعل .
بسنواتى الباقية .. شيئا أكبر .. ولكنها للأسف .. سنوات عجاف ..
قاصرة .. عاجزة ..

— لا تقل هذا يا عمى .. إنك تلهمنا الصبر .. والمقاومة .. إن أماننا أياما
مزعجة .. تحتاج إلى كفاح شاق .. وصبر طويل .

وصمت كمال برهة ثم تساءل :

— هل سمعت آخر ما فعلوه ؟

وتطلعت مى متسائلة فى جزع :

— ماذا ؟

— لقد أعلنوا ضم القدس إليهم .. وقرروا نقل السفارات إليها من تل
أبيب .. حتى يؤكدوا تهويدها .

وهز عبد السلام رأسه فى أسى ورد قائلا :

— إن نواياهم بنا خطيرة يا بنى .. لقد سمعت اليوم فى السوق .. أنهم غيروا
اسم نابلس إلى سميريا الإسرائيلى .. لقد قضموا قطعة كبيرة من لحمنا وهم
يحاولون ابتلاعها .

وتمتت مى قائلة :

— وهم ينزعون ملكية العرب من مناطق كثيرة لتوطين اليهود .

وقال كمال :

— ولقد ألغوا القرار الخاص بعدم شراء اليهود للأراضي فى غزة .

ورفعت فاطمة كفيها إلى السماء متممة :

— يا رب .. أنت قوى على الظالم .

واستطرد كمال يقول :

— إن سياستهم الآن هى قتل المدنيين وإرهابهم وتهديم بيوتهم لإرغامهم

إما على ترك ديارهم لإحلال اليهود محلهم أو البقاء مع الخضوع للسلطة غير الشرعية وخلق موقف يتسم بالشرعية في مناطق الاحتلال .

وتنهذ عبد السلام قائلا :

— سنبقى في أرضنا .. وسنقاوم يا بني .. حتى ندفن فيها .. أليس من حق هذه الأرض العزيرة .. أن تضم رفاتنا .

وقال كمال :

— أبقاك الله يا عمي .. لتشد أزرنا ..

ونفض مودعا وهو يقول :

— إذا احتجتم إلى شيء .. أرجوكم أن ترسلوا إلى .

ثم نظر إلى خالد :

— أنت تعرف البيت والمستشفى يا خالد .

ورد خالد :

— أجل أعرفه .

— في أي شيء .. اجري واطلبنى .

ثم انتظر قائلا وهو يرمق مي قائلا :

— وسأزورك بين آونة وأخرى .. إذا كانت زيارتي لا تثقل عليكم .

وردت مي قائلة وهي تنهذ :

— إنها تسعدنا ..

وأوصلته حتى الباب وشد على يدها مودعا وهو يقول :

— إنها تسعدني أكثر .. ولكني لا أريد أن أثقل بها .. حتى لا تظني أنني

أحاول طرق الباب من جديد .. لأنني أكره أن أزعجك .

وتنهذت مي قائلة :

— أنت لا تزعجني أبدا .. أنت إنسان رقيق .. كريم .

وعادت مي لتنظف المائدة .. وذهب كل إلى مضجعه .. وخاولت مي أن

ثبتت الكرتونة التي يتسرب منها الريح .. ومن خلال النافذة أبصرت جانب الشرفة حيث تعود عمار أن يجلس ماداً قدميه على حافة السور .
هدم سور الشرفة .

وذهب عمار ولم يعد ..
ولكنها لا تحس أبداً أنه ذهب .
إنه موجود في كل مكان ..

في كل ركن من أركان البيت .. ما تهدم فيه وما بقى .. قدماه على سور الشرفة المهدم .. وظيفه يجول في الحديقة . واستقرت مئ أثيراً في فراشها ، مفتوحة العينين . تنصت إلى عبث الريح بما أبقاه الشتاء على الشجر من أوراق . ولم تعرف .. إذا كانت قد نامت .

فقد اختلطت أحلامها .. بتصوراتها ..
وبدا لها كأن يدا تطرق الباب .
وأنصتت ..

وعادت الدقات تتعالى ..
ترى كم الساعة !!؟

إن الضوء لا يبدو بعد من خلال النافذة .. الفجر لم يحن .
إذن من الطارق ؟
جنود الاحتلال !!

إنهم يدقون في كل وقت .. يمكن أن يكون الدق مزعجاً .. ولكنهم لا يدقون بهذا الهدوء .. ولا بهذا الصبر .

ونفضت من فراشها .
كان الكل نياماً .
وأحست بخوف ..

هل توقظ الشيخ .. أم توقظ خالد ؟

— ٢٣٠ —

لو أن معها سلاحا .
كان يجب أن تبقى معها إحدى القنابل المدفونة .
وعادت الدقات تطرق الباب في هدوء وصبر .
واقتربت مى من الباب وتساءلت في صوت خفيض :
— من ؟
وسمعت صوتا يهيب بها :
— افتحي يا مى .
من ؟ ..
إنه صوته ..
صوت عمار ..
أمعقول أن يكون قد عاد ؟ ..
وفي هذا الوقت من الليل .. ؟
وبدا لها كأن صوت عمار وطرقاته على الباب نوع من أحلام اليقظة التي
تعودت أن تستغرق فيها خلال شرودها .
وعاد الصوت يهتف :
— مى .. لماذا لا تفتحي ؟
واندفعت نحو الباب تفتحه هاتفة :
— عمار ..
وخلال فتحة الباب بدا لها شبح لم تستطع أن تميز فيه عمارا بسهولة .
كان شبحا هزيلا شاحبا مكدود الوجه مرهق النظرات .. وتقدم من الباب
متناقل الخطى .
وتلقت مى بين ذراعيها تضمه في لهفة ضمة أم لوليدها .. وتتحس رأسه كأنها
لا تصدق أنه عاد سليما .
وأخذت تتمم والدموع في عينيها :

— عمار .. أنت بخير يا عمار .
ولم يحاول أن ينتزع نفسه من بين يديها .. أو يرفض — كما تعود دائما — مظهر
الحنان الذى تحيط به .. واستسلم إليها لتحسس رأسه ووجهه ثم تساءل فى
صوت حاول جهده أن يمنحه رنة التماسك والجلد ..
— كيف حالكم يا مى ؟ ..
— بخير ..
— وأنى وأمى .. وخالد ؟
— كلنا بخير .. المهم أنت ..
واستيقظ عبد السلام وفاطمة على صوت اللغظ وهتفت فاطمة متسائلة :
— ماذا بك يا مى ؟
وصمتت مى برهة ثم همست لعمار :
— أخشى عليها المفاجأة .
وعادت الأم تتساءل فى دهشة :
— من تحدثين يا مى ؟
ورد عمار وهو يتجه إلى الحجرة التى رقدت فيها أمه .
— أنا عمار يا أمى .
وعلا صوت الأم والأب يهتفان مأخوذين :
— عمار ..
وصاحت الأم كأنها تحدث نفسها :
— لا تعذبني بالحلم يا رنى .
ولكن عمار انحنى يأخذها بين ذراعيه وهو يضمها إليه متمتا :
— لقد عدت يا أمى ..
وضمته فاطمة إليها كأنها تحاول ألا ينتزعه أحد منها ثانية وأخذت الدموع
نسابة من عينيها وهى تردد :

— ٢٣٢ —

— عمار .. ابني .. أنت بخير يا حبيبي ..

ورفعت يديها إلى السماء قائلة :

— يا ما أنت كريم يا رب ..

وأمسك عبد السلام بكتفي ابنه يتأمله في شوق وهو يقول :

— الحمد لله ..

ثم أخذ يرقب جسده الناحل ووجه الشاحب وتساءل في جزع :

— قاسيت كثيرا يا عمار ؟

ورد عمار وهو يتنهد :

— ومن الذى لم يقاس ..

وتلفت حوله في نظرة خاطفة للجدار المرمم والنوافذ التي سدت بالكرتون

ولبقايا الأثاث الذى حطمه النسف واستطرد يقول :

— كان قلقي عليكم أسوأ من كل ما قاسيت .. كنت أحاول أن ألتقط

أخباركم ..

وقالت مى :

— نحن بخير ..

وقال الأب :

— لقد رمنا البيت . وواصلنا الحياة ..

وتساءلت الأم وهي تحاول أن تنهض من فراشها :

— أأعد لك طعاما ..؟

وقالت مى :

— سأعده أنا يا خالتي .. استريحى أنت .

وقال عمار :

— لا أريد طعاما .. أريد فقط أن أستريح .. لقد مضى على ليلتان لم أتم .

وقالت مى :

— ٢٣٣ —

— سأعد فراشك حالا .. سأنام أنا وخالد في الصلاة .. وأخلي لك الحجرة حالا .

ورد عمار :

— ابقوا كما أنتم .. سأرقد في أى مكان .

وقال عبد السلام :

— ولم لا تنام هنا .. إنى أفضل النوم على الأريكة .

وجرته مى من ذراعه قائلة :

— تعال يا عمار .. أنا أعرف عادتك جيدا ، إنك تحب أن تنام في فراشك .

وهز عمار رأسه وأجاب :

— لم يعد لنا خيرة في عاداتنا يا مى .. لقد تعودت أن أنام حتى واقفا ..

وعادت الأم تضمه إليها وتتحسسه كأنما تحاول التأكد أنه قد عاد فعلا .

واتجه عمار إلى الحجرة ليبدل ثيابه .

ولم يستطع أحد من أهل الدار .. أن يعاود النوم ..

نهض الأب للوضوء والصلاة .. بعد أن أذن الفجر . ونهضت الأم إلى المطبخ تعد طعاما لعمار .. يتناولوه عندما يصبحو .

ووقف عمار يتأمل خالده وهو مستغرق في نومه . انحنى عليه يضمه

ويقبله .. والتفت ليجد صورته على الحامل في ركن الحجرة .

ونظر إلى مى متسائلا في دهشة :

— أما زلت ترسمين الصورة ؟

— لقد أنقذتها من بين الأنقاض .. مارأيك فيها الآن .. لقد حاولت أن أضع

عليها الابتسامة عبثا ..

ونظرت إليه فى حنان وتمتمت قائلة :

— لا تقل لى .. افعل شيئا أفيد .. فأنا أحاول أن أفعل كل ما أستطيع ..

ولا تقل عن الصورة (سخافة) .. فهى عزيزة لدى .. أعز ما تتصور .. لقد

— ٢٣٤ —

كانت ذات فائدة كبرى لى خلال غيبتك .

ونظر إلى الصورة فى غير اكتراث ثم قال وهو يهز رأسه :

— المسائل نسبية .. إذا كنت ترينها مفيدة بالنسبة لك .. فاحتفظى بها .

— ولكنى فعلت أيضا أشياء .. أعتقد أنها مفيدة .. بالنسبة لنا جميعا .

— أعرف ذلك .

— كيف ؟ ..

— قال لى الزملاء .

— متى ؟

— قضيت معهم طوال الليل .. وحدثنى يحى عن كل ما فعلته ..

— ولكن لماذا لم تأت لطمأنتنا أولا ؟

— كانت عندى رسالة لا بد من تبليغها .. وكنت أريد أن أعرف كيف يسير

العمل .

— وكيف وجدته يسير ؟

— على خير ما يرام .. لقد دخلنا مرحلة جديدة .. وغدا سيمر على يحى ..

وسنذهب معا إلى الضفة الشرقية .

— ألا تستريح غدا ..

— سأحاول أن أستريح الآن .

وخلع عمار قميصه فإذا بعلامات جراح على ظهره وذراعيه .

وروعت مى وأحست برجفة تسرى فى بدنها وهتفت متسائلة :

— ماذا بك يا عمار ؟

وأسرع عمار يغطى جسده قائلا :

— لا شىء .

— وهذه الجراح ؟

وتنهذ عمار ولم يجب .

— ٢٣٥ —

وتساءلت مى وهى تحاول أن تكتم دموعها :

— عذبوك يا عمار ؟

— كما عذبوا الجميع .

— الكلاب ..

— إنها معركة يا مى .. ليس فيها رحمة .. لقد حاولوا أن يبتزعوا منا اعترافا بأى شئ .. ولكننا صمدنا .

— سأنتقم لك يا عمار .

— المعركة يسيرها التخطيط الهادئ يا مى .. لا الثأر المنفعل .. لا وجود للمشاعر الخاصة فى عملنا ..

وردت مى فى إصرار :

— لا أستطيع أن ألغى مشاعرى يا عمار .. لن أستريح حتى أنتقم لك .

— نحن نعمل لفلسطين كلها .. لا لشخص بذاته .

وفى حزم أجابته :

— هذه مسألتى الخاصة .. تماما كالصورة .. لن ينعنى إصرارى عليها من أى واجب أكلف بأدائه ..

ومدت يدها لتحسس كتفه برفق هامسة :

— آذوك يا عمار ؟

— الإيذاء البدنى أبسط ما فى الأمر .. مذلة النفس هى القاتلة .. مرت لى هنيهات كنت أكره الحياة فى بدنى .. فسطان المستعبد المذل .. مستمد من هذه الحياة .. من كل ما تشكله من مشاعر وأحاسيس .. وعندما تنتهى .. يفقد كل سلطانه .. وفى بعض اللحظات .. تمنيت أن تنتهى .. حتى أخلص من سلطانهم المذل على .

ورفعت مى كفها تخفى عينيها كأنما تبعد عنها منظرا ألما وهتفت بعمار :

— لا تقل هذا يا عمار .. لا تفقدنى إنسانيتى .. لا تجعلنى أتحول إلى مخلوق

بلا قلب ..

— لقد فقدوها هم .. طالما ساءلت نفسى .. كيف تحول الشعب
الذليل الطريد .. الذى قاسى مرارة التعذيب والتشريد .. إلى عتاة
قساة .. برابرة .. يمارسون كل ما أوقع بهم من ضروب التعذيب والقسوة ..
هل يمكن أن تكون قد استهوتهم وحشية النازية واستبدت بهم الرغبة فى الثأر
مما أوقعته بهم بنفس أساليبها .

واستقر عمار على فراشه وهمت مى بمغادرة الغرفة عندما سأها فجأة :
— أما زالت حقبة القنابل مدفونة حيث هى ؟
— أجل .. إنها مخفاة أسفل كوم الخطب .. ومن حسن الحظ لم تصل إليها
آثار النسف .

— سأخرجها عندما أستيقظ لأخذها معى .

— كلها ؟

— ماذا تعين بكلها ؟

— أعنى أن تبقى منها شيئا .

— لا أعتقد أننا سنحتاج إليها هنا .

— ولكنى قد أحتاج إلى بعض منها .

— لست أظن الواجبات التى ستكلفين بها .. ستحوجك إليها .

— إنه واجب خاص .

وصمت عمار مفكرا ثم تتمم قائلا :

— أكره أن تورطى نفسك فى عمل لا جدوى منه .. لمجرد الانفعال .

وردت مى فى إصرار :

— إنى مصممة .. ولست منفعلة .

وبدا التردد على وجه عمار فاستطردت تقول :

— على الأقل دع لى القنبلة التى أعطيتنى إياها يوم نسف القطار .

وهز عمار رأسه وقال :
 — خذى ما تريدين .. ولكن تذكرى أننا لا نملك حياتنا .. وأن فقدنا
 بلا مقابل .. يعد ذنبا فى حق وطننا ..
 وردت مى متسائلة :
 — ومن الذى يفقد حياته بلا مقابل ؟
 — أقصد بلا مقابل يحقق شيئا فى المعركة .
 وتهدت مى ثم ردت فى غير اقتناع :
 — مفهوم .
 ورقد عمار ..
 وذهبت مى لتساعد خالتها فى المطبخ .. وكان البيت يبدو وكأنه فى فجر يوم
 عيد .
 الأب مستغرق فى الصلاة بوجه مشرق .
 والأم منهمكة فى المطبخ تروح وتغدو وقد ملأت الطمأنينة قلبها ..
 وحاولت مى أن تشارك خالتها فرحتها وأن تساعد فى معاونتها فى الطهى .
 ولكن آثار الجروح فى جسد عمار كانت تسيطر على تفكيرها .
 وكلمات عمار الموجهة ما زالت تتردد فى مسامعها « مرت بى لحظات كنت
 أكره الحياة فى بدنى » . « مذلة النفس هى القاتلة » .
 لقد أدركت مى كيف يمكن أن يتحول الإنسان إلى وحش .
 لن يكفها أن تلقى قنبلة لتدمر إحدى العربات ولكنها تريد أن تنشب أظافرها
 فى أعناقهم .. وأن تمزق جلودهم .
 هؤلاء الذين أذلوا عمارا .. حتى جعلوه يتمنى أن يخلص من الحياة .. هؤلاء
 لا تكفيهم مجرد قنبلة تدمر إحدى دورياتهم .
 ليس قذف قنبلة .. أو الضغط على زناد .. هو الذى يشفى غليلها . فإنها
 تود .. لو استطاعت أن تذيقهم نفس المذلة التى أذاقوها عمارا .

— ٢٣٨ —

ولكنها لا تملك سوى هذه القنابل تفجرها في وجوههم .. تدمر بها
 عرباتهم . وتحطم بها أسلحتهم .
 وأشرق الشمس وتسلسل شعاعها من فتحات النافذة .
 وتقلب خالد ثم فتح عينيه .
 ولم يجد مى في فراشها .
 ولكنه وجد فراش عمار الخالى .. قد رقد عليه إنسان .
 ظنه مى قد استعملت الفراش ولكنه وجد جسدا آخر .. ظنه الأب ..
 ولكنه أنحف .
 وفجأة اكتشف أنه عمار .. فقفز من فراشه صارخا ..
 — عمار .
 وكان عمار قد أغلق عينيه .. ففتحهما وضم إليه خالدا في حرارة وسأله :
 — كيف حالك في المدرسة ؟
 — زفت .
 — كيف ١١ ؟
 — أغلقوا المدرسة فترة .. ثم فتحوها .. ليعلمونا أشياء سخيفة .
 وأخذ خالد يتأمل وجه عمار ثم تساءل قائلا :
 — متى عدت ؟
 — بالليل .
 — ولماذا لم تخبرنى ؟
 — كنت نائما .
 — كان عليك أن تصحبنى .. ماذا فعلوا بك ؟
 — لا شيء .. أيام مرت على خير .
 — هل السجن متعب ؟
 — يعنى .

— ٢٣٩ —

- ليس أتعب من المدرسة .. قطعاً لم يعطوك واجبات .
- وهز عمار رأسه ثم تتمم قائلاً :
- أعطوني ما هو أسوأ .
- وفجأة تساءل خالد :
- اسمع يا عمار .. هذه المرة لن تغفلت ..
- من ماذا ؟
- من البندقية .
- أليس عندك الماسورة ؟
- هل تصدق أن الماسورة يمكن أن تصبح بندقية ؟
- ألم تقل أنت هذا ؟
- كنت طفلاً .
- والآن ..
- قال أبى إنى كبرت .. وأستحق بندقية .
- ألا تتدرب أولاً على استعمالها ؟
- أهى مشكلة ؟
- ليست مشكلة إذا تعلمتها .
- إذن هاتها وعلمنى .. أؤكد لك أبى سأتعلم بسرعة .
- عندما أعود فى المرة القادمة سأحضر لك واحدة صغيرة .
- لا أريد لعبة .. أريد بندقية حقيقية .
- وإذا رآها اليهود ماذا ستفعل ؟
- سأضربهم بها .. ألم يدمروا بيتنا .. لقد كادوا يقتلون أبى .. سقط عليها
- السقف فجرحها وكسر ساقها .
- ولم يطل بقاء عمار فى البيت طويلاً ..
- قبل الضحى حضر إليه يحيى .. ووقفت مئامه بالحقية وهى تتمم قائلة :

— ٢٤٠ —

— أخذت اثنتين .
وهز عمار رأسه وهو يقول :
— لم يكن العناد من طباعك .
— أتستكثرهما على ؟
— بل أخشى عليك .. إن لحياتك قيمة .
— من أجل المعركة ؟
ونظر عمار في عينيها ثم تنهد قائلاً :
— من أجل كل شيء .
ولم تفهم ما يعنى عمار بكل شيء .. ولكنها أحست في نظراته شيئاً .. وددت
لو يطول .. شيئاً ممتعاً .. لذيذاً .. لا تدركه إلا المحبة . من عيني من تحب ..
وسرعان ما اختفى الشيء .. كأنه ومض البرق .
ورحل عمار .. تلاحقه دعوات أمه وعبراتها ..
وهز الشيخ عبد السلام رأسه وهو يودعه بنظرة لهفى حزينة وتتم قائلاً :
— أعادك الله بالسلامة .. فمعزتك تجعل التضحية بك شاقة .. حتى في
سبيل الوطن ..

شاي بلا سُكر !

قبيل العصر في بيت عايذة في عمان وقد انتهى ضيوفها من تناول الغداء ووقفت أميرة وخطيبها رعوف بثيابه العسكرية يداعبان الصغيرة ليلي ووقف عمار ينظر إلى ساعته في قلق وبدأ عبد الكريم يزور سترته استعدادا للرحيل ، وأقبلت عايذة تودع ضيوفها وتحاول استبقاءهم فترة أطول بقولها في إلحاح :
— على الأقل .. حتى تشربوا الشاي .

ورد زوجها عبد الكريم :

— لا تحملى هم الشاي .. سأسقيهم عندي في الموقع .

وقال عمار وهو ينظر إلى الساعة في قلق :

— لا بد أن أكون في الجبل قبل الرابعة .

وقال رعوف ضاحكا :

— لا نريد أن نفعل كالضيف المجنون .. الذي يأكل ويقوم .. ولكن ما باليد

حيلة .

ثم مد يده بمسك يد أميرة في رفق قائلا :

— سأنتظرك في القاهرة ..

وتنهدت أميرة قائلة :

— سأحاول .

— بل ستحضرين .. إنك تستطيعين إتمام الدراسة العليا .. وتستطيعين

العمل إذا شئت .

وضحك عبد الكريم وأردف قائلا :

— ٢٤٢ —

— وتستطيعين الحصول على منحة تفرغ لتربية الأولاد .. كما تفعل عايدة .
وهزت أميرة رأسها قائلة :

— ليست المشكلة ما أفعله في القاهرة .. وإنما المشكلة هي واجبى في
القدس ..

وقال عبد الرؤوف مؤكدا :

— القدس كالقاهرة .. كعمان .. كدمشق .. كبغداد .. إننا نؤدى واجبنا
في كل مكان .. إن القدس عزيزة على المصرى .. معزة القاهرة للفلسطينى
ولكل عربى .. ونحن نخوض المعركة في كل جبهة .. لا تظنى أنك تفرين من
المعركة عندما تحضرين إلى القاهرة .

— لست أقصد هذا .. ولكن القدس تحتاج إلى كل فرد فينا .. إنهم يخططون
لتهويدها في إلحاح وإصرار .. لقد استولوا على البلدية وهم يعملون بكل ما في
وسعهم من أجل تبعيتنا للإدارة الإسرائيلية في كل مرافق حياتنا .. إنهم يدمرون
بيوتنا .. وينزعون ملكيتها وهم يشيدون البيوت لليهود حول المدينة العربية ..
ومن أجل هذا يجب أن نبقى جميعا .. وأن نرفض التعاون معهم .. وأن نقاوم
كل محاولاتهم لتهود القدس العربية العزيزة وتذويها في عاصمتهم .

وقال عبد الكريم ضاحكا :

— إذن فلا مفر من أن تلتقيا هنا عندنا .. لكن في المرة القادمة أحضرا
طعامكما معكما ..

وهتفت عايدة تقول :

— كف عن هذا المزاح السخيف .. إن البيت يتيهما .

وقالت أميرة باسمة :

— إنه لكذلك ..

وعاد عمار ينظر إلى ساعته ويقول :

— هيا بنا .

وقالت عايذة ناهرة عمارا :

— يا أخى اصبر ..

— قلت لك لا بد أن أعود قبل الرابعة ..

— طول عمرك كالشريك المخالف .. اذهب أنت وحدك .

وقال عبد الكريم :

— لا تقلق يا عمار .. سأوصلك بعربتى .. وستكون هناك قبل الرابعة .

ومد عمار يده مودعا أميرة .. وأمسكت ليلى برجل بنطلونه تشده قائلة :

— قل لخالد إلى سأحضر إليهم ..

ثم التفتت إلى أمها متسائلة :

— أليس كذلك يا ماما ؟

وتساءلت عايذة :

— متى تعود إليهم يا عمار ؟

— لا أعرف ..

— إذا عدت إليهم قبلى .. قل لأُمى إلى أعددت لها ما طلبت .. وسأحضره

معى .. لقد شغلت بمرض ليلى .. ولكن سأتى إليهم فى أقرب وقت .. وقل لأُمى

إلى أوصلت رسالته إلى الشيخ عمران .. وعسى أن يكون قد أرسل رده إليه ..

وأبلغ تحياتى الحارة إلى مى ..

وهزت رأسها ثم استدركت قائلة فى سخرية :

— ولكن لا .. أنت لا تعرف كيف توصل التحيات الحارة .. سأرسل لها

التحية مع أميرة ..

ثم تساءلت قائلة :

— أما زالت تحاول أن ترسم وجهك العبوس ؟

— أظن هذا ..

— وما زالت تحاول أن تضع الابتسامة على شفثيك ؟

— ٢٤٤ —

وهز يدها مودعا وهو يقول في عجلة :
 — هيا يا عبد الكريم .. ليس لدينا وقت لهذه الثثرة السخيفة ..
 وهتفت عايذة ضاحكة :
 — أنا سخيفة .. على رأى المثل المصرى .. « يعطى الخلق لى بلا ودان » ..
 وضحك رءوف متسائلا :
 — ومن الخلق .. ومن الذى بلا آذان ؟
 وسار عمار تجاه الباب يتبعه عبد الكريم وهو يمسك بإحدى أذنى عمار
 ضاحكا :
 — كل هذا .. وليس له آذان .. والله خسارة فيه الخلق .
 وهتفت عايذة مودعة :
 — مع السلامة .. خد بالك من نفسك .. يا عمار .
 وركب الثلاثة عربة عبد الكريم وانطلقت بهم من المدينة منحدرية إلى الوادى
 الأخضر .. وبدت السفوح خضراء ندية ونظر رءوف حوله فى إعجاب وتمتم
 قائلا :
 — أحب هذه السفوح الخضراء والمياه تنحدر فى شقوقها .
 وأشار عبد الكريم إلى عين تتدفق منها المياه بين الصخور قائلا :
 — هذه العين مياهها مثلجة فى عز الصيف .. دعونا نأخذ منها جرعة .
 وقال عمار فى قلق :
 — لا داعى لمزيد من التأخير .
 ورد عبد الكريم فى سخرية :
 — الدنيا لم تطر يا رءوف .. ودوريات اليهود ستبقى فى انتظارك .. حتى
 تضربها .. فلا داعى لكل هذا القلق .
 وهبط عبد الكريم ومعه رءوف وانحنى كل منهما يرفع المياه المتدفقة بكفه إلى
 فمه .. وبدا على مقربة مبنى مدمر انهارت جوانبه .

— ٢٤٥ —

وتساءل رعوف :

— ما هذا ؟

— مقهى فى الطريق كان يشرف على العين دمره اليهود .

وهز رعوف رأسه وتمتم قائلاً :

— فى السويس والإسماعيلية .. دمروا المدارس والكنائس والمساجد والمستشفيات .

واستطرد يقول وهو يتجه إلى العربية :

— يفعلون هذا لأنهم يعرفون أنهم بمنجاة من العقاب .

ورد عبد الكريم متسائلاً :

— إلى متى ؟

وأجاب رعوف وهو يتخذ مكانه فى العربية :

— إلى أن يزول تفوقهم الجوى .

وتساءل عمار :

— وهل هناك أمل فى هذا ؟

— ولم لا .. لقد حققنا خلال هذا العام ما لا يصدق عقل .. لقد اعتقد القادة

الإسرائيليون أننا أمامنا على الأقل عشر سنوات حتى نقف مرة ثانية على أقدامنا .

وانطلقت العربية تنحدر فى الطريق الأخضر .

واستطرد رعوف يقول :

— إننا نستفيد من درس الماضى .. لقد تغيرت خامات المحارب .. أصبح أقرب

إلى فهم آلية الأسلحة الحديثة .. المدفع والدبابة .. أقدر على استعمالها

وصيانتها .. وأصبح الجيش متفرغاً للتدريب وللقتال .. ولم يعد قادته يشعرون

أنه وسيلة إلى الانطلاق إلى مناصب الحكم .. أو للسيطرة على مراكز القوى ..

وفوق كل هذا .. أصبح الجيش فى خدمة البلد .. ولم يعد البلد فى خدمة

الجيش ..

وتمتم عمار قائلا :

— إنهم يحاولون إشاعة الرعب فينا .. بنشر الوهم بأن القوة الإسرائيلية المسلحة لا تقهر .. وأن العربى محارب غير قادر ..
وقال رعوف وهو يزفر فى أسى :

— عندما بدأ هجومهم فى خمسة يونيو وقبل أن يكتشف أحد الطرفين أن الجزء الأكبر من طائراتنا قد دمر على الأرض ، لاقت الدبابات الإسرائيلية دمارا محققا عندما بدأت هجومها على خان يونس، لقد قتل ما يربو على الثلاثين من قواد دباباتهم واستمر اللواء المصرى رابضا فى مواقعه حتى أقبل الظلام .. وعندما حاول اللواء الإسرائيلى الهجوم على المواقع المصرية جرت معركة فى الظلام لمدة ساعتين حاربنا فيها ببسالة وصفوها بأنها وحشية واعترفوا بخسائرهم التى جاوزت المائة قتيل .. وظلت مدفعيتنا الخفيفة فى كئيبان الرمال تضرب دباباتهم بعنف حتى بدأ التفوق الجوى الكامل يتحقق .. لقد كان التفوق الجوى الذى حققه الطيران الإسرائيلى هو العامل الوحيد الذى ضمن تقدم القوات الإسرائيلية من رفع إلى العريش .

قال عبد الكريم فى مرارة :

— وما زالوا يملكون التفوق الجوى حتى الآن .. إن أمريكا تزودهم بالطائرات .. وهم يستطيعون استيراد الطيارين المدربين .. من أمريكا ومن جنوب إفريقيا .

وأردف عمار يقول :

— ومازلنا نعتثر فى سبيل العمل العربى الموحد .. ومازلنا نتردد فى وضع كل إمكانياتنا فى معركة المصير التى نخوضها .. وكأنها لا تهدد مصيرنا جميعا .. وكأنها ليست معركة الحصار العربية .. والمصير العربى .

وكانت العربة قد بدأت تخرج من الوادى إلى المنطقة الجبلية الجرداء .. وعند مفترق طرق قال عمار :

— إلى اليمين ..
وانحدرت العربية يمينا ثم عبرت بقعة مرور .. حتى وصلت إلى خص من
القش فهتف عمار .
— هنا ..
— ألا ندخل بك ؟
— لا داعي .. يكفي هنا .
ومد يده يشد على يد رعوف وهو يهتف في حرارة :
— شدو حيلكم ..
وقال رعوف وهو يشد على يده :
— على الله ..
ثم أردف قائلا وهو يهز يد عمار الذي أطبق عليها بكفه في قوة وحرارة :
— وأنتم .. اجمدوا .
— أرخص ما لدينا .. هو أرواحنا ..
— ولكنها بالنسبة لنا .. غالية .
— لن نضيعها سدى .
وقال عبد الكريم مودعا عمار :
— مع السلامة .. خذ بالك من نفسك .. وعندما ترجع إلى البيت .. بلغ
أشواق لعمى وخالتى .. والصغير خالد ..
ثم صمت برهة وأردف ضاحكا :
— وللحلق الذي لا تستحقه أذنالك الكبيرتان .
واستدارت العربية عائدة .
وانطلق عمار يستحث الخطا تجاه الجبل .
ومن أحد الأوكار .. أقبل يحیی يهتف به :
— أهلا عمار .. قلقت عليك .. وخشيت أن يكون قد أصابك شيء .

— ٢٤٨ —

وهز عمار رأسه وأجاب دون أن يتنسم :
 — لا تخف على .. « عمر الشقى .. بقى » .. كان على أن أمر على عايده ..
 وألحت على أن أبقى للغداء .
 هل حان الوقت للتحرك ..
 وقال يحبى وهما يدخلان إلى الكهف الذى بدا فيه ضوء مصباح خافت :
 — ما زال أمامنا فسحة من الوقت نشرب الشاى ونسترجع الخطة مع
 الرفاق ..
 وأقبل الرفاق يصافحون عمارا فى شوق وهتف به الطبيب المصرى رشاد
 مرحبا :
 — أهلا عمار .. سمعت عنك كثيرا من الرفاق .
 وقال يحبى مازحا :
 — سماعت بالمعيدى .
 وقال رشاد معرفا بنفسه :
 — أنا الدكتور رشاد .. أعمل معكم منذ شهرين .. ولقد حدثنى الإخوان
 عنك كثيرا .. ولا سيما يحبى .
 وتساءل عمار :
 — وماذا قال يحبى :
 — قال عنك إنك عبوس .. ولكنك رقيق فى باطنك .
 وتمتم عمار قائلا :
 — أحيانا أكره هذه الرقة فى باطنى ..
 ونظر إلى الرفاق متسائلا :
 — هل نبدأ العمل ؟
 وقال عباس قائد الجماعة وهو يضم إليه عمارا :
 — تعال يا عمار .. استرح قليلا .. لقد روى لنا يحبى ما قاسيت .. روى لنا

— ٢٤٩ —

ما فعله بك الكلاب .. ولكننا سنعرف كيف نؤدبهم ..

وتلفت حوله متسائلا :

— من سيعمل لنا الشاي ؟

ورد حمزة :

— هذه شغلتي .. لم يعد عندنا شاي سوى بقايا « تفل » في البراد .. ولكنى

سأغليه جيدا .. حتى أخرج كل ما بقى فيه ..

وتتم عمار فى أسف :

— لو علمت لأحضرت علبة شاي .

وقال عباس :

— لا عليك .. لقد تعودنا على « تفل الشاي » .. اذهب يا حمزة وأوقد النار

وتعالوا حتى نسترجع الخلطة .

وبدا حمزة فى عمل الشاي .. فى براد من الصاج الأسود علاه الهباب والتف

الرفاق على عباس وقد فرد خريطة كروكية قرب الحجر الذى وضع عليه

المصباح .

ووضع عباس القلم فوق نقطة على خطين متوازيين يحددان مجرى النهر قائلا :

— سنعبّر النهر من هنا .. استكشفنا المكان جيدا .. العبور ليس سهلا ..

ولكنه ربما كان أكثر أمانا .. أقرب دشمة إسرائيلية تقع على بعد كيلو .. وعلى

الجانب الشرقى توجد بقايا مخفر دكتة القنابل الإسرائيلية .. ومن هناك ..

وقاطعه صوت حمزة صائحا :

— لا يوجد سكر ..

واستطرد يقول وهو ينزل البراد الأسود من فوق النار :

— لا عليكم .. أمى كانت تحبه دائما بغير سكر .

وتتم الدكتور رشاد قائلا :

— لا بأس .. المهم أن يكون عندنا ماء .. فلا أظن السيدة والدتك .. كانت

تجبه بدون ماء .

وضحك عباس وقال لحمزة :

— اصنعه كما تشاء يا حمزة .. وكما تحب أمك .. ولكن أرجوك لا تقاطعنا ..

وتساءل عمار :

— ألن يخرج معنا حمزة ؟

وقال عباس :

— طبعا ..

— لماذا لا يحضر لدراسة الخطة معنا ؟

— الخطة لا تعنيه .. لأنه تعود أن يسير معنا .. يحمل الذخيرة .. والمؤن ..

ويضرب حينما نريد منه أن يضرب .

وقال يحيى :

— إنه يكره استعمال الرصاص .. والقنابل .. ويفضل الالتحام وجها

لوجه .. رأيت ذات مرة يواجه جنديا إسرائيليا في أحد المواقع .. وكان الإسرائيلي

قد أصاب أحدهما بمدفعه .. وقفز حمزة على كتفيه .. بعد أن رمى بندقيته جانبا ..

وكانها تعوق حركته .. وطرح الإسرائيلي على الأرض .. ونزع مدفعه من

يده .. ثم أطبق على عنقه بكلتا يديه .. وأخذ يضغط عليه ببطء وهو يحدق في

عينيه .. ثم يرشخ أصابعه .. ليدع الرجل يلتقط أنفاسه .. ويعاود الضغط عليه

مرة ثانية .. حتى يكاد يكتمها .. ثم يعيد الضغط ثانية .. وهو يقول في أسف :

« وددت لو قتلتك مائة مرة .. بعدد النساء والأطفال الذين سفكتم

دماءهم » .

وعندما صحت به وأنا أجدّه رابضا على الجندي دون أن يخلص منه قال

ساخرا :

— الموت خسارة فيه ..

ثم قضى عليه وانطلق معنا .

وشرد عمار وهو يتذكر قول أبيه :
 « الحرب شيء سخي يا عمار .. سخافة أن يحاول إنسان أن يقضى على
 حياتك .. ولكن أسخف منه أن تترك محاولته بلا درء .. ولا ردع » .
 والقسوة تنبت القسوة .
 وليس أبعث على الأسى والأسف .. من أن يجد الإنسان نفسه وقد ضمرت
 إنسانيته .
 واستبدت به القسوة والوحشية كوسيلة لا بديل لها إلى فرض السلام وتحقيق
 العدل .

وأفاق عمار من شروده على صوت عباس يستكمل الشرح قائلاً :
 — سنسير على الطريق الرئيسى حتى نصل إلى مفترق الطرق .. ومن هناك
 سيتخذ كل منا طريقه إلى الجبل حتى نلتقى قرب المخفر المهدم .. ثم نبدأ العبور ..
 وفي نفس الوقت ستكون هناك محاولة تمويهية للعبور بواسطة جماعة أخرى في
 نقطة الشمال حتى تجذب التفات القيادة الإسرائيلية .
 وأقبل عباس ببراد الشاي ومعه بضعة أكواب زجاجية .. وأخذ يفرق الشاي
 على الجماعة .. وهو يغنى :
 « اتفضل شاي » .

ورد عليه بكر وهو يتساءل ضاحكا :
 « شاي بسكر .. أو كما تحبه أمك ؟ » .
 وهز خزة رأسه قائلاً في حنين :
 — قرأت لى الفاتحة .. ورقنتى آخر مرة .. ولقت لى الزاد والزواد .
 وتهد وهو يرتشف رشقة طويلة واستطرد يقول :
 — امرأة طيبة .. إنها نقطة الضعف الوحيدة فى حياى .. التى تجعلنى
 أحيانا .. أشعر أن لحياى قيمة .. وأنى أكره أن أخذلها .. بعدم عودتى إليها .
 وتذكر عمار أمه وهز رأسه وكأنه ينفض عنها مشاعر الحنين ثم عاد يسائل

عباس :

— وبعد العبور .

— سنتجمع .. وراء تبة منخفضة تشرف على النهر . والمفروض بعد ذلك أن نلتفب حولها ونسير جنوبا بغرب .. لنلتف حول الموقع الإسرائيلي .. ونطبق عليه .

وقال الدكتور رشاد :

— موفقون بإذن الله .

ونظر عباس إلى ساعته ثم قال :

— أعتقد أن الوقت قد حان لكي نبدأ التحرك .

وبدأت الجماعة في الاستعداد واستطرد عباس يقول متسائلا :

— لست في حاجة لأن أكرر تعليمات المعركة ؟

وقال حمزة كأنه يسمع قطعة محفوظات :

— لا ثقاب يشعل .. ولا فرقة .. ولا إطلاق نار بدون أوامر .. إلا لدرء

تهديد أكيد .. و .. و .. إلخ .. إلخ .

وقال يحيى :

— تحفظ التعليمات جيدا يا حمزة ..

وقال عباس :

— ولكنه لا ينفذها أبدا .. فتشوا جيوبه وخذوا السجائر والثقاب منها ..

ووضع حمزة يده على جيبه ثم أخرج علبة السجائر قائلا :

— سيجارة .. أخيرة .. إذ من يدري .. ربما كان آخر نفس ..

وقال رشاد :

— تف من بلك يا شيخ .. إن شاء الله ستخرج طلقائنا آخر نفس في الموقع

الإسرائيلي .

وقال يحيى :

— إن شاء الله .. دعونا نقرأ الفاتحة قبل أن نخرج .

وخرجت الجماعة .. تنطلق من الوكر ملتزمة طريقها في دروب الجبل .
وكان الظلام قد سقط تماما .. وحلوة الليل قد أطبقت على التلال ..
والسحب السوداء قد غطت بريق النجوم في السماء والريخ الباردة تصفر من
خلال أغصان أشجار الكافور المتناثرة على الطريق وأذهان الرفاق شاردة تخطط
قتامة الماضي بإشراق المستقبل المرتجى .. وتأرجح بين دماء تروى الأرض
وأزهار تبث منها موشاة متألقة .. وبين دخان أسود وحمام يرفرف بأجنحته
البيضاء .. بين شظايا القنابل .. وأغصان الزيتون .

وعند أنقاض المحضر المتهم بدأت الجماعة تتسلل واحدا بعد واحد وجلس
عمار على حجر أسفل جدار مشقوق قد هوى السقف من فوقه وضم ياقة السترة
حول عنقه وأطبق بركبيه على مدفعه وأخذ يفرك كفيه محاولا أن يبعث فيهما
الدفع ، وأقبل حمزة يلتقط أنفاسه المتلاحقة وهو يقول :

— اشتد البرد فجأة .

وقال عمار :

— لقد أعاننا المشوار على الدفء .

ووضع حمزة يده في جيبه بغير إرادة يبحث عن سيجارة . وأعادها خالية وقال وفي صوته رنة أسي :

— سيجارة تعمر الرأس .. ولكن ماذا تفعل مع عباس .. لا ثقاب .. لا فرقة .. لا .. لا ..

ثُمَّ بَدَأَ يَغْنَى .. « يَا بَا لَا .. لَا .. لَا .. لَا .. بَتْرِيدَ تَحَاكِينَا أَمْ لَا » .
وَأَقْبَلَ عَبَّاسٌ يَهْتَفُ بِهِ :

— يا حمزة .. أنا في عرضك .. أهدأ وقت غناء ؟

— لم تقل لنا إن الغناء ممنوع يا ريس .

— لم يخطر ببالى أنك فائق ورائق .. إلى الحد الذى ترفع عقيرتك بالغناء ..

— ٢٥٤ —

— يعنى باختصار ممنوع الغناء ؟

— أجل ..

ووضع حمزة كفه على فمه فى محاولة لإغلاقه قائلاً :

— هب .. بناقص غنوة .. ماذا سنفعل الآن ؟

— هل وصل الجميع .. عمار هنا .. ويحيى .. وبكر ..

وأخذ يعدد الأسماء .. ثم تلفت حوله متسائلاً :

— والدكتور رشاد .. أين هو ؟

وسمع الجميع صوت أقدام تتعثر بالحصى .. وقال يحيى :

— لا بد أن يكون هو القادم .

ثم هتف :

— رشاد .. دكتور رشاد .

وعلا صوت رشاد من الظلمة :

— نعم .. أين أنتم .. كدت أن أضل الطريق .

وبعد لحظة أقبل رشاد وهو يهتف :

— الظلمة مطبقة .. والبرد لاسع .

وساد الصمت برهة ثم قال عباس :

— جاهزين .. هل نبدأ العبور ؟

وتتم الجميع .. أجل ..

وجاء عباس موجها القول إلى رشاد :

— سنتنظرنا هنا يا دكتور ..

وتساءل رشاد مأخوذاً :

— لماذا ؟

— إننا نحتاج إلى نقطة إسعاف متقدمة ..

— ولماذا لا أتقدم معكم ؟

— ٢٥٥ —

- المعركة لن تكون سهلة .. وسيسقط منا جرحى ..
وأردف بكر قائلا :
— أو قتلى ..
وقال عباس :
— المهم أن يجد الجرحى من يسعفهم ..
— ولكنى سأكون معكم .
— أنت نفسك قد تجرح .
— وماذا فى ذلك .. أنت أيضا قد تجرح ..
— إذا ما جرحت أنا .. فسأجذك لتسعفنى .. ولكن إذا جرحت أنت ..
فلن نجد من يسعفك .. ولن أجد أنا من يسعفنى .
— ولكنى خرجت معكم من قبل .
— لم تكن عملية كبيرة كهذه .. كانت عمليات نفس .. أو استكشاف ..
ولكن هذه معركة كبيرة .. وسنحتاج إليك فيها كطبيب ..
وقال رشاد فى إصرار :
— إذا كانت معركة كبيرة .. فمن باب أولى أن أتقدم معكم .. لا أن
أترككم وأتخاذل فى الخلف ..
— ليس تتخاذلا يارشاد .. أرجوك افهمنى .. إننا حقيقة نحتاج إليك .. إنك
تستطيع أن تنقذ الكثير منا إذا بقيت فى أمان .. ولكنك إذا تعرضت للخطر فلن
يستطيع أحد منا أن ينقذك .. وسيقضى على كل جرحانا .. هل فهمت ؟
وهز رشاد رأسه وقد بدا ضائقا بكل ما قيل :
— اسمع يا عباس . لقد أتيت إلى هنا لأشارككم المعركة ..
— أنت الآن تشاركنا المعركة .. أنت أهم من أى واحد منا .
— لا أريد هذه الأهمية .. أرجو أن أكون مجرد فرد منكم ..
ونظر عمار إلى ساعته وبدأ يضيّق بالمناقشة وتمتم قائلا :

— الوقت يسرقنا .

وتهد عباس والتفت إلى الجماعة متسائلا :

— ما رأيكم يا جماعة .. رشاد مصر على أن يعبر معنا ؟

وقال يحيى :

— دعه يعبر .. ولنعتبر أنفسنا زدنا مقاتلا .. وفقدنا طبيبا ..

وتم عمار قائلا :

— وليرعنا الله جميعا .

والتفت عباس إلى حمزة قائلا :

— كان المفروض أن تبقى مع الدكتور رشاد .

وقال حمزة ضاحكا :

— لماذا .. هل منحتني شهادة الطب ؟

— المفروض ألا يبقى أحد وحده ..

— الحمد لله أنه لم يبق .. هيا بنا .. إن بي شوقا إلى أن أخنق أحدا .

ونظر إليه عباس وقال مهددا :

— كف عن عملية الخنق هذه .. أنت تعرف كيف تستعمل المدفع .

— قتل المدفع لا يمتنع .. إنه يقتل مرة واحدة .

وقال عمار :

— نحن لسنا في مشوار متعة يا حمزة .. إنما في معركة ..

وتهد حمزة وقال :

— لو رأيتم كيف كانوا .. يستمتعون بقتل أبي وزملائه في كفر قاسم ..

كانوا يتسلون بقتلهم كأنهم يصطادون العصافير .

وصمت برهة ثم أردف بصوت متحشرج كأن به رنة بكاء مكتوم :

— هل عرفت لماذا أستمع بقتلهم ؟

وأصابت عمار رجفة .. القسوة تنبت القسوة .. والوحشية تخلق

الوحشية ..

وعاد صوت أبيه يرن في أذنه :

« القتل سخافة يا عمار .. ولكنك تكون أكثر سخافة إذا لم تدرك الضربة .. وتردد صاحبها » .

وقال عباس وهو يمسك بمدفعه :

— هيا بنا .

وبدأ التسلل نحو النهر ..

وانساب الرجال إلى الماء واحدا .. بعد واحد ..

وأصاب عمار رجفة من لسعة الماء .. وأطبق على مدفعه جيدا وهو يخوض

وسط النهر .. لا يكاد يبصر أمامه سوى أكداس من الظلمات .

وسمع دوى من بعيد . ثم أصوات على الشاطئ الآخر .

وتلاحقت الأنفاس .. ولكن الحركة لم تتوقف عبر النهر ..

حتى وصلت الجماعة إلى الشاطئ الآخر .

وصعدوا متسللين .. والماء يقطر من ثيابهم .. وأخذوا في التسلل ينقلون

أقدامهم في الظلمة المطبقة في بطاء وحذر .

بجير يا مئى ..

تسللت الجماعة حول الموقع وهم يتحسسون موقع أقدامهم فى هدوء شديد . وأحس كل منهم كأنه يوشك أن يسمع نبض عروقه .
الظلمة حالكة .. إلا من أضواء خافتة تبدو فى الموقع من خلال الدشم ..
والصمت مطبق .. إلا من همسات تتعالى من هنا وهناك بين آونة وأخرى .
ولفح الريح الباردة تدفع جنود الموقع إلى الانطواء فى مخابثهم .
وهمس عباس لبكر قائلا :
— الخط التليفونى ينحدر يسارك .. استمر فى السير حتى تعثر عليه ..
واقطعه .

وتقدم بكر فى الظلام صامتا دون أن يجيب بكلمة .
وعاد عباس يهمس بتعليماته المقتضية :
— عمار ويحىي .. تقدا إلى الدبابتين وحاولا أن تدمراهما قبل أن نقتحم الموقع ، وبعد ذلك دمرا موقع اللاسلكى قبل أن يتمكن من طلب النجدة .. بقية الجماعة تلف حول الموقع وتنتظر منى إشارة الهجوم .
وقال حمزة متسائلا بصوت غليظ حاول أن يخفضه قدر ما يستطيع :
— وأنا يا ريس ماذا أفعل ؟
وأجابه عباس فى ضيق :

— اذهب مع عمار . وكف عن هذا الضجيج الذى تحدثه بصوتك الغليظ .
وتقدم كل من عمار ويحىي يزحفان تجاه الدبابتين فى حذر شديد .. وخيم الصمت على الجماعة وهم يرقبون تقدمهما .. وقد أوشكوا أن يكتموا

أنفاسهم .

وطال الترقب والصمت .. وبدأت الجماعة تحس بالقلق . وأخذ كل منهم يتحسس سلاحه وذخيرته من القنابل .

وفجأة سمع دوى شديد .. وبعد ثانية .. دوى آخر .. وتعالى صراخ .. واشتعلت إحدى الدبابتين واستدارت الأخرى تحاول كشف الميدان المنبسط أمامها بالضوء الكشاف وتهدر بمدفعها في عصبية في كل اتجاه . وفي نفس اللحظة أصدر عباس لإشارته بالهجوم .

واندفعت الجماعة كالصواريخ إلى وسط الموقع .. يحطمون الدشم بالقنابل ويواجهون أفرادها بالمدافع الرشاشة ..

وعلت الصرخات .. وحاول مدفع الدبابة أن يمسح الموقع بنيرانه .. ووثبت الجماعة المهاجمة إلى داخل الدشم وبدأت معركة مواجهة بالرشاشات وبالسلاح الأبيض .

واندفع عمار إلى موقع جهاز اللاسلكي ووراءه حمزة حتى يدمراه قبل أن يعطى إشارة استغاثة لطلب النجدة .

ودمر الموقع .. وقضى على من فيه .. واستدار عمار ليرقب ما حدث في بقية الدشم .

وفجأة تحرك أحد الجنود الإسرائيليين الذي قد بدا ساكنا في مرقده كأنما قد قضى عليه وسحب رشاشا بجواره وصوبه نحو عمار .

وصاح حمزة محذرا وهو يصوب مدفعه نحو الجندي الإسرائيلي :
— احذر يا عمار .

ولكن الرصاصات كانت قد انطلقت فأصاب عمار في ساقه . كما انطلقت رصاصات حمزة فأسكت الرجل .

وبعد برهة أخذ السكون يسود الموقع كله إلا من طلقات متناثرة ساد بعدها صمت مطبق . وانحنى عمار يمسلك بجرحه النازف وأقبل عليه الدكتور رشاد

— ٢٦٠ —

هاتفًا :

— أين الإصابة .. دعنى أضمد الجرح .

وصاح عمار :

— ليس هنا .. دعونا ننسحب الآن .. فلا أحد يعلم متى تأتى النجدة ..

وقبل أن يتحركا دوت رصاصة .. لم يعرف أحد من أين .. وسمعت صرخة

مكتومة من رشاد « آى » ثم هبط فى موقعه :

والحنى عمار فى لهفة وجزع على رشاد يهتف به :

— دكتور .. رشاد .. ماذا بك ؟

وهز رشاد رأسه وهو يتهاوى فى مكانه :

— لا شيء .. اذهبوا أنتم .. آسف يا عمار أن أموت وأترككم بلا طبيب ..

آسف حقيقة فما قصدت أن أموت .

وكان حمزة يرقب حوله .. فأبصر أحد أجساد الجنود الإسرائيليين

يتحرك .. كان الجندى .. صاحب الطلقة الأخيرة التى أردت رشاد . وفى وثبة

واحدة انقض عليه حمزة .. لم يطلق عليه مدفعه وإنما هوى على عنقه بكلتا

يديه .. ثم رفعه واقفا .. وأخذ يتأمل فى شروده وهمهم يقول :

— قتلت الرجل الطيب .. قتلته يا نذل .

وأحس بالدموع تغيم على عينيه .. فنفض رأسه وعاد يهمهم وكأنما يحدث

نفسه :

— قتلت الطيب .. وتركت جرحانا بلا طبيب .. ماذا نفعل بعمار ؟

وأطلق زفرة وعاد يتساءل هامسا وهو يحدث الرجل الذى أخذ ينتفض بين

يديه :

— أقتلك .. وأشرب من دمك .

وهز رأسه قائلا :

— ولكن دمك قدر .. مقى .. وقتلك مرة لا يكفى .. دعنى أقتلك

كما أريد .

وأخذ يضغط عنقه، بأصابعه .. وازرق وجه الرجل وجحظت عيناه ..
وخرج لسانه .

وتساءل حمزة وهو يخفف الضغط على عنق الرجل :
— ما رأيك في الموت .. مزعج .. لقد أذقتمونا إياه بشتى الوسائل .. دعنى
أريحك برهة .

وترك عنق الرجل برهة ثم عاد يطبق عليه قائلا في هدوء :
— ما رأيك في هذه اللعبة .. أليست، مسلية ؟
وكان رشاد يرقد بين يدي عمار يلفظ آخر أنفاسه وهو يتمتم :
— أشهد أن لا إله إلا الله .. وأشهد أن محمدا رسول الله .
وصمت لحظة حتى خيل لعمار أنه قد قضى ولكنه فتح عينيه ثانية وهمس
بآخر كلماته :

— الحمد لله .. الأبيتشهاد نعمة .. ولكن اغفر لى يا عمار .. أن طمعت فيها
وتركتك بلا طبيب .. لديك الغيارات فى حقيتى .. ضمد جرحك .. ضع
القطن أولا .. ثم ..
ولم يستطع أن يكمل قوله ..

وتحسس عمار رأسه وهو يهمس به :
— لا تتعب نفسك .. سأعرف كيف أضمده .. استرح أنت .
وأغمض رشاد عينيه .. وانتهى .
وسمع صوت عجائبات دبابات قادمة من بعيد ..
والتفت عمار فى حيز ليجد حمزة ما زال ممسكا بعنق الرجل فصاح به :
— حمزة .. ما هذا الذى تفعله يا غبى .. نجدة العدو قد أقبلت .
وبضغطة على عنق الرجل أزرق روحه .. قائلا فى أسف :
— لو هناك شىء أكثر من الموت .. يا كلاب .. يا أولاد الكلاب .

— ٢٦٢ —

وبصق على الرجل وركله ثم أقبل على عمار قائلا :

— هيا يا عمار .. هل تستطيع السير أم أحملك ..

وتناول عمار ضمادا من حقيبة رشاد وضمد جرحه بسرعة وهو يقول :

— سأحاول السير .. هيا نتجه بسرعة نحو النهر .

وأقبل عباس ووراءه يحيى وإبراهيم وبكر مربوط الذراع !

وقال يحيى في أسى :

— مات سليمان وعبد الرحيم وجرح بكر .. أين الدكتور رشاد ؟

وأجاب عمار في حزن :

— مات ..

وتتم عباس :

— قلت له ألا يحضر .. إننا في حاجة إليه .

وتتم عمار في حزن :

— لقد اعتذر عن موته .. طلب منا أن نغفر استشهاده .

وسمعت غصة البكاء في حلق عمار ولكنه سرعان ما ابتلعها وقال في حزم :

— يرحمه الله .. عاش رقيقا .. ورحيما .. ومات بطلا .

وتساءل يحيى في جزع وهو يرى عمار يعرج .

— ما بال ساقك .

وقال حمزة :

— أصابه أحد الكلاب برصاصة .

وتساءل عباس في قلق :

— وبعدين .. هل ستستطيع العودة ؟

وقال عمار :

— سأحاول ..

وقال حمزة :

— ٢٦٣ —

- إني أستطيع أن أحمله .
- واقترب منه يحاول أن يساعده .
- ولكن عمار قال في إصرار :
- إننى أستطيع السير ..
- وتساءل يحيى وهم يحاولون الابتعاد عن الموقع .
- كيف يمكنك عبور النهر .. وقطع هذا المشوار الطويل .
- ثم صمت برهة واستطرد يقول :
- لدى فكرة .
- وتساءل عباس :
- ما هي ؟
- أليس من الأفضل أن يعود عمار إلى بيته ..
- وتساءل بكر :
- ألا يكون ذلك مغامرة ..
- وقال يحيى :
- قد تكون .. ولكن عودته هذا المشوار الطويل .. وعبوره النهر
بالرصاصات في ساقه .. تكاد تكون مستحيلة .
- وكانت خطى عمار قد أخذت تشاقل .
- وسأل حمزة عمار وهو يمسك بذراعه ويشده :
- ماذا بك يا عمار ؟
- لا شيء .. أشعر بالألم يزداد في ساقى .
- وقال يحيى وكأنه قد حزم أمره :
- دعونا نستقر على رأى من الآن .. إني أفضل له العودة إلى القدس .
- وقال عباس :
- إذا رأيت ذلك أفضل .. وأأمن .. فاذهب معه .. وخذ معك حمزة ..

وسأعود أنا وإبراهيم وبكر إلى موقعنا .. وسنحاول الاطمئنان عليكم .
وصمت برهة ثم استطرد يقول وهو يسمع صوت الدبابات يقترب :
— ولكن دعونا نطلق بسرعة قبل أن نقع كلنا .. في قبضتهم .. هيا .
وسار عباس ورفيقاه تجاه النهر .
وتقدم عمار ورفيقاه في درب ضيق تجاه الغرب .
وتساءل يحيى وهو يسند عمارا :
— كيف تشعر الآن ؟
وهمس عمار وهو يعرض على نواجذه :
— الألم يتزايد ..
— سنحاول أن نصل بسرعة .. أنا أعرف دربا يمكن أن يوصلنا إلى هناك
مباشرة .. وأرجو أن نصل قبل ظهور الضوء .. وأن يجنبنا الله أية مفاجآت .
وقال حمزة وهو يسحب ذراع عمار على كتفه ويلف ذراعه حول جسده :
— اتكئ على يا عمار .. أنت لست ثقيلا .. إننى أستطيع حملك بسهولة .
وقال عمار وهو يحاول أن يستحث الخطى :
— ليس بعد .. إلى ما زلت قادرا على المسير .
وبدأ المشوار الطويل في حلقة الليل .
وعمار يشعر في كل خطوة كأن منشارا حادا ينشر عظم ساقه .. وبدأ يستند
على ذراع حمزة من جانب وذراع يحيى من الجانب الآخر .
وازداد به الإعياء حتى أحس بالغثيان وتمتم في صوت خفيض :
— أنستطيع أن نستريح برهة .. دقائق قليلة .
واستقر على الأرض وقد تلاحقت أنفاسه .
وأحس بأن الدم الساخن ما زال يرشح فوق الضماد وأمسك جبينه بكفه
يعتصره لوقف ذلك الصداع الألم الذى أخذ يطرق رأسه بعنف .
وبعد هنيهة تحامل على نفسه وهو يهمس :

— ٢٦٥ —

— هيا بنا ..

وعاد حمزة يلح وهو يحاول أن يحيط جسده عمار بذراعه .

— لماذا لا تدعني أحملك ؟

وقال عمار :

— إن منظرنا لو رأنا أحد سيثير الشبهات .. دعنا نكمل .

وعاود عمار مشواره المضني .. يسير بين صاحبيه بكل ما يملك من قوى خائفة .. وأنفاس متقطعة .

ومن بعيد بدأ يلوح ضوء خافت .

وهتف يحيى :

— ها هي المدينة قد لاحت .

وتمتم عمار وهو يحس أن نيرانا تندلع في ساقه :

— الحمد لله ..

وقال يحيى :

— دعونا ننحدر يسارا .. فالجانب الشرقي أكثر أمنا .. ونستطيع أن نتسلل

منه إلى الحى دون أن يشعر بنا أحد .

وأخيرا .. وصلت الجماعة .

وجد عمار نفسه يقف أمام البيت .. وهو يكاد ينهار .

وطرق يحيى الباب ..

ومضت فترة صمت .

وعاد يحيى يطرق الباب طرقات هادئة محاولا ألا يحدث ضجيجا يثير الشبهات .

وسمع صوت الشيخ عبد السلام يتساءل في حذر :

— من ؟

ثم سمع صوت همهمة خافتة .

— ٢٦٦ —

وقال عمار :
 — افتح يا أبى .
 واقتربت خطوات متردد من وراء الباب ثم سمع صوت مى يتساءل :
 — من بالباب ؟
 ورد يحيى فى ضيق وقلق :
 — افتحى يا مى .. إنه عمار ..
 وفتح الباب .. وخطا عمار خطوتين ثم انهار مغشيا عليه ..
 وانكبت عليه مى وهى تهتف مرتاعة :
 — عمار .. مالك يا عمار .
 وانحنى الأب عليه يضمه فى لهفة :
 — ماذا بك يا عمار .. قل لى .
 وقال يحيى فى عجلة يحاول طمأنتهم :
 — لا شيء خطير .. لقد أصيب فى ساقه .. وسيشفى بإذن الله ..
 وعلا صوت الأم من الداخل متسائلة :
 — ماذا هناك يا عبد السلام ؟
 وقالت مى تطمئننها :
 — عمار عاد يا خالتى ..
 وبعد لحظة أقبلت الأم فى خطاها المتثاقلة وقد بدا عليها الإعياء ولم تكذب ترى
 عمار ملقى على الأرض حتى صاحت :
 — عمار .. ابنى ..
 وهتف يحيى منزعجا :
 — خالتى .. أرجوك .. كفى عن الصراخ وإلا أحسوا بنا .
 وقال حمزة الذى وقف قرب الباب يرقب ما يحدث :
 — دعونا نسعفة أولا .. إن حالته لا تستدعى القلق .. فالإصابة فى ساقه

— ٢٦٧ —

ولكن المشوار الطويل قد أنهكه .. وما نرف من ساقه قد أعياه ..

وقال يحيى :

— المهم أن نجد طبيبا بسرعة ..

وتتم حمزة قائلا :

— أغلب الظن أن الرصاصة قد استقرت في ساقه .. ونحتاج إلى عملية

لإخراجها .

وقالت مى وهى تنظر إلى عمار فى لهفة وجزع وقد أطبقت على كفه بكفها :

— دعونا أولا نريحه على الفراش .

وتقدم حمزة قائلا :

— أنا سأنقله إلى الفراش .. ولكن يجب أن نحضر له طبيبا ..

وقال الشيخ عبد السلام وهو يتحسس وجه عمار مناديا إياه فى أسى ولهفة :

— عمار .. عمار .

وتلفت إلى مى قائلا :

— ليس هناك من يسعفنا غير الدكتور كمال .

وبدأ عمار يفتح عينيه وينظر نظرات تائهة وهو لا يكاد يدرك شيئا

بما حوله .. ضمته فاطمة إلى صدرها وهى تنشج باكية :

— سلامتك يا حبيبى ..

وهمس عمار وهو يميز فاطمة :

— أمى ..

واندفعت مى نحو الباب وهى تهتف :

— سأذهب لاستدعاء الدكتور كمال .

وقال يحيى :

— سأتى معك ..

ولكن عبد السلام هتف به :
 — بل ابق أنت .. فيجب ألا يراك أحد بمنظرك هذا .
 وانطلقت مى فى الظلمة إلى بيت كمال .
 ونقل عمار إلى الفراش .. وبدأ يحبى ينزع ملاپسه وأزال الضماد الذى بدا
 ملوثا .. ووضع على الجرح الذى ما زال الدم ينزف منه قطعة قطن جافة ..
 وأخذت فاطمة تمسح وجه عمار ويديه بمنشفة مبتلة .
 ولم يطل غياب مى .. وأقبل كمال يفحص ساق عمار وتمم قائلا :
 — نحتاج إلى عملية لإخراج الرصاصة .
 ونظر إلى يحبى واستطرد قائلا :
 — لقد نرف كثيرا .. ألم تكن هناك وسيلة لإسعافه ؟
 وتمم يحبى وهو يهز رأسه فى أسف :
 — الطبيب الذى كان معنا قتل .. ولم نستطع أن نسهفه بأكثر من ربط ساقه
 بإحدى الضمادات التى كانت فى جربندية الطبيب .
 قال حمزة :
 — رجونا كثيرا أن يلقى عند النهر .. لينقذ جرحانا .. ولكنه رحمه الله ..
 فضل الاستشهاد ..
 — ليس هناك مفر من إجرائها هنا .. فالمستشفى مستبعد تماما .. ونقله إلى
 العيادة قد يكشفنا ..
 وخلع كمال سترته قائلا وهو يفتح حقيته :
 — سأعملها بقدر ما أستطيع هنا .
 وأخرج من الحقيبة بضع أدوات وقال لمى :
 — أرجوك يا مى .. اغلى لى ماء .
 وبدأ الاستعداد لعملية إخراج الرصاصة .
 ونظر كمال إلى الوجوه الجزعة المتطلعة من حوله قائلا :

— ٢٦٩ —

- أرجوكم .. ابقوا في الخارج .. وأرجو أن يتم كل شيء على ما يرام ..
وتمتع يحيى قائلا وهو يهم أن يغادر الغرفة :
— ألا أستطيع أن أساعد في شيء يا دكتور ؟
— شكرا يا يحيى .. تكفى مى .
وخرج يحيى وحمزة وأمسك عبد السلام كف عمار الذى أخذ ين أنينا خافتا
متقطعا وتمتم قائلا :
— سليمة بإذن الله .. ربنا لا يرينا فيك سوءا أبدا .
ثم سحب فاطمة التى بدأت تنهه باكية وأردف يقول :
— لا تبكى يا فاطمة .. إن الله معنا .
وهتفت فاطمة من قلبها :
— يا رب ..
وكان خالد قد استيقظ وأقبل يتساءل فى ذهول وهو يهم بالدخول إلى
الغرفة :
— من هنا ؟
ورد الشيخ عبد السلام وهو يجذبه خارج الغرفة :
— لقد عاد عمار .. تعال يا خالد .. تعال .
وهتف خالد :
— عمار ..
ودفعه الأب أمامه ناهرا :
— قلت لك تعال ..
— أريد أن أراه يا أبى ..
وعاد يهتف :
— عمار ..
— أخفض صوتك .. إنه نائم .

— ٢٧٠ —

— عمار نائم .. وماذا كنتم تفعلون عنده ؟
 وقال يحيى وهو يرت كتف خالد فى رفق :
 — إنه متعب يا خالد .. دعه يسترح .
 ولمح خالد الضماد الملوث بالدماء فصاح :
 — عمار .. أخى عمار .. لقد أصابوه يا أبى .. جرحوه .
 ورد عبد السلام فى غيظ وهو يهز ذراع الصبى :
 — اخفض صوتك يا غبى .
 واندفع خالد فى البكاء وهو يواصل محاولته الدخول إلى الغرفة قائلاً :
 — أريد أن أراه يا أبى .. من فضلك .
 وقال كمال بهدوء وهو يرتدى قفازة :
 — دعه يدخل يا حاج عبد السلام .
 وترك الأب ذراع الصغير الذى اندفع نحو فراش عمار هاتفا وعيناه مليئتان
 بالدموع :
 — عمار .. أخى ..
 وفتح عمار عينيه وتمتم فى صوت خافض :
 — خالد ..
 — ضربك اليهود يا عمار .. لماذا لم تأخذنى معك .. لماذا لم تعطنى بندقية ..
 ألم أقل لك إلى كبرت ؟
 وهز عمار رأسه .. دون أن يستطيع النطق .
 وقال كمال وهو يرت ظهر خالد :
 — كفى الآن يا خالد .. دعه يسترح .
 — لا أحد يريد أن يعطينى سلاحا .
 وبدأ كمال العملية على صوت أذان الفجر .
 ونظر الأب إلى الذين وقفوا يتطلعون إلى الحجرة فى جزع وتمتم قائلاً :

— الله أكبر .. الله أكبر .

والنفت إلى يحيى متسائلا :

— نصلى الفجر يا يحيى ؟

— أجل يا عمى .

وبعد برهة كان الجميع يخرون ساجدين .. وكال منهمك في إجراء العملية .
وفجأة طرق الباب ..

وشدت الأعصاب وكادت الكلمات تتوقف على شفاه المصلين وتوالت
دقات القلوب .

واستمر الشيخ عبد السلام في صلاته يؤم يحيى وحجرة « الله أكبر » .

وركع الاثنان وراءه وكف كل منهما على طهنته الرابضة في جيبه .

وداخل الحجرة توقف كمال في مكانه وهمس في قلبه :

— أظنها أميرة قد أحضرت علبة الغيارات وبقية الأشياء التي طلبت منها أن

تلتحقنا بها من المستشفى .

وردت مى وهي تزفر في أسى :

— أرجو أن تكون هى .. فلقد باتت طرقات الليل قاتلة ..

وقال كمال :

— إنهم يتعمدون أن يجعلوا حياتنا هنا فظيعة .

ومضت لحظات مروعة قبل أن تعود الطرقات ثانية .. ويسمع معها صوت

نسأى يهتف :

— مى .. أنا أميرة يا مى .. افتحى .

وتنفس الكل الصعداء وهتفت فاطمة :

— افتح يا خالد .. إنها أميرة .

وأقبلت أميرة بحقيقية في يدها تتساءل :

— كيف حال عمار ؟

— ٢٧٢ —

وهزت فاطمة رأسها قائلة :

— ربنا يستر ..

وقال الشيخ عبد السلام بعد أن ختم صلاته :

— كمال يجرى له عملية في حجرته .

ودلفت أميرة بالحقيية في يدها .

ومضت لحظات مرهقة أخرى .. قبل أن يخرج كمال والعرق يتصبب من

جبينه وهو يتمم في لهجة مطمئنة :

— الحمد لله .. تم كل شيء على ما يرام .

وتساءلت الأم في جزع :

— أليست هناك خطورة .

— بإذن الله لا .. ربنا فضله علينا .. لقد أصابته الرصاصة بشرخ في عظمة

الساق وتهتك في العضلات .. ولكنه سيشفى تماما بإذن الله .

وتساءل يحيى :

— ألن يحتاج الأمر إلى تجبيس الساق ؟

وقال كمال :

— لا .. إن المطلوب له هو الراحة .. ولقد قلت لى ما تفعله ..

وتتم عبد السلام :

— ربنا يستر .. ولا تحدث مفاجآت ..

ودخل يحيى وحزمة حجرة عمار .. ووقفا برهة يرمقانه وقد أغمض عينييه

وبدت السكينة على وجهه :

وتتم حمزة قائلا وهو يغادر الغرفة إلى الصلاة :

— كانت ليلة مرهقة ..

— ولكننا عملنا عملا طيبا .

— ترى ماذا فعل عباس والإخوان ؟

— ٢٧٣ —

- لا بد أن يكونوا قد عادوا إلى القيادة .
— علينا أن نلحق بهم في أقرب وقت .
— أريد أن أمر لحظة على بيتنا لأطمئن على أمي .
وهمس حمزة :
— ولناكل لنا لقمة .. إني أكاد أموت جوعا .
وقال حمزة وهو يمد يده مودعا :
— نستأذنكم في الرحيل .. وليطمئننا الله على عمار .
وقال الشيخ عبد السلام :
— ألا تستريحان برهة .. أنكما مرهقان .
وقال يحيى :
— أريد أن أمر على بيتنا ..
وقالت فاطمة :
— انتظرا حتى تشربا فنجانا من الشاي .
— سنشربه عندنا .. سنترككم لتستريحوا .
وقال كمال وقد حزم حقيته :
— وسأذهب أنا أيضا .. لقد أوصيت مي بما تفعله .. وسأعود في الضحى
بإذن الله .. هيا يا أميرة .
وقال يحيى :
— دعونا نتسلل فرادى .. حتى لا نثير الشبهات .
ورد عبد السلام :
— معك حق يا بني .. بتنا نؤاخذ على كل همسة .
ومد يده يشد على يد يحيى قائلا :
— مع السلامة .. لا أعرف ماذا أقول لكم .. فالكلام يخرج تافها
وأجوف .. ليرعكم الله .. وليحفظكم .. ولينصركم .

— ٢٧٤ —

وضم عبد السلام يحيى وحمزة إليه وقبلهما ..
وبعد برهة خرج كمال ومعه أميرة ..
ووقفت فاطمة بجوار فراش عمار تتحسس جبينه فى لطفة وتتمتم بآيات من القرآن .

وأقبل عبد السلام عليها قائلاً :
— تعالى يا فاطمة .. دعيه يسترح .
وكان خالد قد تسلل إلى الحجرة يرمى أخاه ويهمس فى لطفة :
— كيف حالك يا عمار .. أنا خالد .. إذا أعطيتنى البندقية .. فسأعرف كيف آخذ بثأرك .
ووقع بصر خالد على طبنجة عمار فوق منضدة صغيرة .. فمد يده إليها قائلاً :

— هذه بندقية صغيرة .. أستطيع أن أضرب بها .. لماذا لا تعطيتها لى ؟
وجذبت مى الطبنجة من يد خالد ناهرة :
— ألقها من يدك وإلا انفجرت فينا .. اذهب الآن ونم ..
— لقد طلع النهار ..
— اذهب ودعه يسترح ..
وخرج خالد ..
وبقيت مى وحدها فى الحجرة ..
نظرت إلى وجه عمار الذى يفرق فى سكينته وقد ارتسم عليه العبوس التقليدى .. الذى أضحى جزءاً من قسماً وجهه ..
وركعت بجواره .. تتحسس يده فى حنان عجيب ورفعت كفه إلى شفتيها ..
وانهمرت الدموع الساخنة تبلل يده وأحست بأصابعه تتحرك وتتحسس وجهها وفتح عمار جفنيه ورمقها بنظرة مميزة وهمس :
— لا تبكى .. أنا بخير يا مى ..

من أجل الحياة

مرت أيام المرض بعمار بطيئة مرهقة .
كل دقة بالبواب تصيب البيت برجفة .
ومى تجلس ساعات الليل الطويلة ترقب عمارا مغمض العينين تعصف به
الحمى وتفلت من شفثيه آهة أو أنة .. تحس بها مى وكأنها سوط يلسع قلبها أو يد
تطبق على عنقها وتكتم أنفاسها ..
والشيخ عبد السلام يسائلها فى إشفاق :
— ألا تريحين جسدك يا مى ولو بضع ساعة ؟
— إلى مستريحة يا عمى .. اذهب أنت واسترح فصحتك لا تحتمل كل هذا
الإرهاق .
وأخيرا بدأت الغمة تنقشع .
وأخذ عمار يتأمل إلى الشفاء واستطاع أن يغادر الغرفة إلى الحديقة .
وكان الربيع قد هلت بشائره .. بزهور البرتقال تتفتح فى أكمامها تنفث أريجها
فى نسمة رطبة ندية .. الأوراق الخضرة تلمع على الأغصان .. وأشعة الغروب
الأرجوانية تنبسط على الأوراق كأنها اليد الرقيقة الحانية .. تلوح بالوداع .
ومى تقبل بفنجان الشاى تحمله إلى عمار وقد جلس أسفل شجرة الليمون
وقد مد ساقه المصابة على مقعد أمامه وبدت نظراته شاردة فى الأفق البعيد كأنها
تتابع ذبول الأشعة الأرجوانية .. فى انسحابها وراء الأفق .
ومدت مى يدها بفنجان الشاى قائلة :
— شاى .. يا عمار .

والتفت إليها عمار عائداً من شروده بنظرة يبدو فيها الحزن ومد يده يتناول
الفنجان قائلاً :

— أرهقتك يا مى .

وابتسمت مى قائلة فى دهشة :

— أنت أرهقتنى ؟! ..

وازدادت ابتسامتها لتتحول إلى ضحكة مرحة وأردفت تقول :

— أنت عبيط ..

وصمتت برهة تعب خلالها شهيقاً من عبير زهور البرتقال ثم أطلقت زفرة
طويلة مريخة واستطردت فى صوت خفيض قائلة :

— لو استبعدنا قلقي عليك وخوفي من أن تحدث أية مفاجآت مزعجة لقلت

لك إن أيام رقدتك كانت من أمتع أيام حياتى ..

ثم تساءلت قائلة فى لهجة خائفة :

— أينطبق على .. « مصائب قوم عند قوم فوائد » ..

ورشف عمار رشفة طويلة من فنجان الشاي .. وأخذ يرقبها فى صمت .

وعادت هى تعب من عبير الزهر الذى يملأ الجو بعطره النفاذ وقالت فى نبرات
الحالمة :

— عبير البرتقال ممتع ..

وصمتت لحظة ثم استطردت دون أن تنتظر إجابة :

— وغروب الشمس جميل .. والربيع مزدهر .. والدنيا رائعة ..

وهزت رأسها وأردفت فى أسى :

— ولكننا لا نستطيع أن نتمتع بشئ مما فيها .. عجيب أن نعرض عن نعمة الله

ونعيش عمرنا نتقاتل من أجلها .. ونمضى محرومين منها ..

ولم يجب عمار .. بل عادت إليه نظراته الشاردة الحزينة .

واستطردت مى تقول :

— ٢٧٧ —

— والعمر يمضى .. ساعة لإثر ساعة .. ويوما بعد يوم .. والحياة الرائعة
تنساب من أكفنا ..

ثم تنهدت وهزت رأسها قائلة فى يأس :

— الإنسان أحق .. أحق ..

وتتم عمار يهز رأسه فى أسى :

— والحرب سخافة ..

ثم زفر من أنفه زفرة مريرة وأخذ يردد قول أبيه :

— سخافة أن يقدم على قتلك إنسان .. ولكن أسخف منه ألا تدرأ ضربته ..

وتردعه .

وقالت مى :

— حررنا من روعة الحياة .. فلعلنا نهديها .. إلى أجيال قادمة من بعدنا ..

ليس أمامنا من عزاء سوى هذا .

ورد عمار فى حزم .. وكأنه يحاول أن يطرد عن نفسه أية محاولة

للاسترخاء .. أو التمهّل فى روضة الحياة الجميلة ..

— كتب علينا القتال يا مى .. فلا بد أن نقاتل .. ليجنى الآتون الثمرة من

بعدنا .. أو لا يجنوها .. فهذا ليس من شأننا .. إن علينا فقط أن نقاتل .. لأن

هذا حق .. وواجب ..

وهبت نسمة باردة أحست مى بلسعتها فقالت :

— قم يا عمار .. حتى لا تبرد .

ومدت مى ذراعها له حتى يتوكأ عليها .. ولكن عمار حاول أن يستند على

ساقه قائلاً :

— إنى أستطيع السير وحدى .

وتمتمت مى وهى مادة ذراعها له :

— إنها متعة لى .. فلا تحرمنى إحدى المتع القليلة التى أحاول أن أختطفها من

— ٢٧٨ —

حياتنا الرائعة المناسبة كالماء من بين أصابعنا المتقلصة .
وسار عمار يتكئ على ذراعها .. متجها إلى داخل البيت .
هذه مخلوقة عجيبة يا عمار !!
لو أن هناك فرصة للإقبال على الحياة الرائعة التي تصفها لكانت هي نفسها ..
أروع ما في هذه الحياة ..
ولكن .. الإقبال على روعة الحياة .. نوع من التسكع السخيف .. ليس من
حقه .. أن يفعله .
شيء واحد .. هو الحق في حياته ..
هو استعادته كرامته التي أهدرها .. براهرة القرن العشرين الذين خدعوا
العالم كله .. بثياب المسكنة الزائفة .
شيء واحد .. هو الحق في حياته .. التي مهما بلغت روعتها .. فهي
بدونه .. مريرة نابية .. هو أن يكون له وطن .. أن تكون له هوية .. ألا يكون
شريدا ضالاً .. لاجئاً ..
روعة الحياة .. مهزلة .. بالنسبة لمن ليس له أرض .. وليس له وطن ..
واستقر عمار على حافة الفراش في حجراته .. بعد أن ترك ذراع مى ..
وأقبل خالد يتوائب من حوله .. قائلا :
— عمار ..
— نعم .
— هل شفيت سافك ؟
— أجل .
— ولكنك كنت تستند إلى ذراع مى ؟
— لأنى .. لأنى ما زلت أعرج قليلا .
— وهل تستطيع أن تحارب وأنت تعرج ؟
— يعنى ..

— ٢٧٩ —

— لقد درسوا لنا في التاريخ أن تيمور لنك كان أعرج .. هل ستصبح أعرج كتيemor لنك ؟

وأقبلت مي تنهر خالد قائلة :

— ما هذا الكلام السخيف الذي تقوله ؟..

وقال لها خالد في تحد :

— إن عمار سيصبح أعرج كتيemor لنك .

— إن عمار ليس أعرج .

— لماذا كنت تسندينه ؟

وترددت مي برهة ثم قالت :

— حتى لا تتعب ساقه .. وهو ما زال في دور النقاهة ..

وأمسكت خالد من ذراعه تحاول إخراجها من الغرفة قائلة :

— تعال معي .. سأستذكر لك .. دروسك .. لقد مضت مدة وأنا مشغولة

عنك .

ولم يتحرك معها خالد بل استمر يجلس بجوار عمار متشبها بطرف الفراش

وقال راجيا :

— والنبى يا مي .. دعينا من هذه الدروس السخيفة .. إني سأتحديث مع

عمار حديثا أهم من الدروس .

وضحكت مي قائلة :

— هكذا .. لعلك ستضع معه خطة الهجوم .

ورد خالد بلهجة جادة :

— ليس الآن .

وخرجت مي :

وعاد خالد ينظر إلى عمار متسائلا :

— عمار ..

— ٢٨٠ —

- نعم .
- متى ستعود إلى الحرب ؟
- قريباً .
- وماذا تنتظر ؟
- عندما يأذن لي الدكتور كمال .
- وازداد خالد اقتراباً من عمار حتى التصق به ثم قال في صوت خفيض :
- إذن لي عندك رجاء قبل أن تذهب .
- ما هو ؟
- هذه الماسورة التي كنت أظن أنها يمكن أن تصلح وتصبح بندقية .. قد اتضح أنها كلام فارغ ..
- وماذا تريد إذن ؟
- لقد رأيت مسدسك .. وهو صغير .. يمكنني أن أخفيه في جيبي دون أن يراه أحد من الإسرائيليين .
- ثم ماذا ؟
- أعطه لي .
- وأنا ..
- أليس عندكم هناك .. أسلحة كثيرة ؟
- ولكنني لا أستطيع أن أسير بدونه .
- ابحث لك عن مسدس غيره .
- وهل تستطيع أن تستعمله ؟
- أضغط على الزناد .
- ليست المسألة مجرد ضغط زناد .. يجب أن تعرف كيف تعمره بالذخيرة .. وكيف تصوب به .. وكيف تصونه ..
- علمني ..

- وماذا ستفعل به ؟
— أنت تعرف أن أبى قد كبر .. وأنا هنا .. الرجل بعدك .. ولا بد أن يكون
معى سلاح .. أدافع به عنهم .
— أستستعمله للدفاع فقط ؟
— يعنى ..
— ماذا تقصد بيعنى ؟
— لو استطعت أن أقتل به أحدهم .. فلم لا ؟
— إذن .. فعندما ..
وقاطعه خالد محذرا :
— لا تقل لى عندما تكبر .. فلقد حملته وضوبت به .. وهو ليس مشكلة .
— هل فعلت هذا ؟
— أجل ..
— دون أن تستأذن منى ؟
— كنت راقدًا .. وقالوا لى ألا أدخل عليك .. فأخذته واختبأت فى الحديقة
وراء شجرة الليمون وأمسكت به هكذا ثم رفعته هكذا .. وكنت أستطيع أن
أضرب به .
— هل تعرف أين هو ؟
— أجل .. إن مى أخذته .. وزغدتنى .. وقالت لى .. لى صغير .. ثم
خبأته فى درج الدولاب .
— إذن اذهب وهاته .
— قالت لى مى ألا أفتح الدولاب .
— وهل تسمع كلامها ؟
— أسمعته بالنهار فقط .. عندما تكون رائحة غادية .. ولكن بالليل عندما
تجلس قبالتك .. لتحملق فيك .. لم أكن أجد هناك داع لكبى أسمعته ..

— ٢٨٢ —

- إذا اذهب وهاته الآن .. وعندما تسألك قل لها إن عمار يريد .
 — هائل .
 وانطلق خالد إلى الحجرة المجاورة .. وفتح درج الدولاب ثم أخرج المسدس وعاد يحمله إلى عمار .
 وأمسكه عمار بكفه ثم قال له :
 — هات كيس الذخيرة ..
 — أين هو ؟
 — كان موضوعا في جيب السترة .
 — لن أطوله لأنها معلقة في الدولاب .
 — خذ هذا الكرسي واصعد عليه .
 — وإذا ضربتني مى ..
 — قلت لك قل لها إني أريده ..
 وانطلق خالد إلى الدولاب وبعد لحظة عاد بكيس الذخيرة ، ومد يده به إلى عمار وقد بدت عليه السعادة المفرطة ..
 وأمسك عمار بالمسدس وضغط على مقبضه فبدت تجاوب الساقية ..
 وبدأ عمار يشرح لخالد طريقة التعمير قائلا :
 — تضع أول طلقة في هذه الفتحة .. ثم توزع الطلقات هكذا .. لأنك عندما تضغط على الزناد .. تتحرك هذه الطلقة لتكون أمام الماسورة .. فيضغط طرف الزناد على الكبسولة فتنفجر وتخرج الطلقة .. وكلما ضغط على الزناد كلما تحركت الساقية .. وانتقلت الطلقة التالية أمام الماسورة .
 وأخذ عمار يرض الطلقات في الساقية .. ثم قال :
 — إذا أمسكت المسدس .. فكن رجلا .. لا تطلقه للعبث .. مفهوم ؟!
 وهز خالد رأسه مؤكدا :
 — مفهوم .

— ٢٨٣ —

— لنفرغه الآن .. حتى أريك كيفية التصويب .

ونزع عمار الرصاص من ساقية المسدس ثم بدأ يشرح لخالد :

— تمسك المسدس بقبضة يدك هكذا .. ثم تفرد سبابتك خارج قنطرة الزناد .. أجل .. هكذا .. فإذا أردت الضرب بالنيشان ارفع المسدس بذراعك ممدودة أمامك .. وانظر إلى هذه الفتحة وحرك فوهة المسدس حتى تدخل هذا البروز بين حافتي الفتحة .. وضع أصبعك على الزناد واضغط هكذا .. وأطلق عمار المسدس على الفارغ .

ثم أخفض ذراعه قائلا :

— فإذا لم يكن هناك وقت للنشان فأطلقه بالتوجيه بمجرد أن توجه الفوهة نحو الهدف ثم اضغط الزناد هكذا .. وهكذا ..

وأمسك خالد بالمسدس يجربه .

ودخلت مي فصاحت به :

— ما هذا الذي تفعله .. ألم أقل لك .

ولكن عمار قال لها في هدوء :

— دعيه يا مي .. إني أعلمه .

— تعلمه ماذا ؟

— أعلمه كيف يستعمله .

وأمسك خالد بالمسدس فرحا وهو يقول لمي :

— سيعطيني عمار المسدس .

وتساءلت مي في دهشة :

— أحقا ستفعل ؟

ونظر خالد إلى عمار مستفسرا :

— أليس كذلك ؟

وقال عمار :

— ٢٨٤ —

- ليس هذه المرة .
وتساءل خالد في خيبة أمل :
— لماذا ؟ ..
— لأنني لا أستطيع السير بدوني .. ولكن عندما أذهب سأحضر لي واحدا ..
وعندما أعود سأعطيك هذا ..
وتساءل خالد في لهجة خذلان :
— ألن تضحك علي ؟
— لا ..
— ولن تقول لي إلى لم أكبر بعد ؟
— قلت لك عندما أعود أول مرة سأعطيك إياه .
ونظر خالد إلى مي وقال :
— شاهدة يا مي ..
وضحكت مي قائلة :
— أجل شاهدة .. ولكن .
وقبل أن تكمل مي حديثها سمعت طرقات على الباب فخطفت المسدس من يد خالد وأسرعت تخفيه تحت مرتبة الفراش .
ثم اتجهت لفتح الباب .
وأقبل يحيى يتساءل :
— كيف حال عمار ؟
وردت مي قائلة :
— بخير .. تفضل .
ودخل يحيى حجرة عمار وحياه في شوق واستقر أمامه على أحد المقاعد .
وتساءل عمار في قلق :
— كيف حالكم ؟

— نشعر بفراغ شديد من غيرك .
 — أرجو أن ألحق بكم غدا أو بعد غد .
 — لا داعي للعجلة .. يجب أن تستكمل الشفاء ..
 — إني الآن أفضل .. ولقد خرجت اليوم إلى الحديقة .
 — إن أماننا مرحلة شاقة .. وخير لنا أن نصبر حتى تسترد صحتك تماما
 وتواصل العمل معنا من أن تنتكس بعد أيام .. وتعاود الرقاد .
 — لقد ضقت بالرقدة .. وبالمرض .
 — من أجل هذا يجب أن تصبر .. إننا نحتاج إليك يا عمار .. فأماننا أيام
 قاسية ..

— بل أيام مشرقة .. لقد وجدنا يا يحيى .. وعلمنا أن نبقي .
 — لقد بدأنا نضرب تجمعاتهم بكل عنف .. ونيران الثورة تندلع داخل المدن
 والقرى .. والحرب الشعبية تزداد اشتعالا يوما بعد يوم .
 — إن علينا أن نتوحد يا يحيى .. لكي نصبح جيشا للثورة .
 — أجل يا عمار .. فالعدو يعد العدة لكي يوجه إلينا ضربة عنيفة .. وهو
 يحاول تحميل الدول العربية مسؤولية تأجيج ثورتنا ويهدد بحملة جديدة على الأردن
 لوجود قواعدها هناك .

— يبدو وكأنه يحاول تهيئة الرأي العام العالمي لقبول مغامرة جديدة .
 — أجل .. منذ أيام عقد الثلاثي المجرم .. موسى ديان وحاييم بارليف
 وأهرون بريف رئيس مخابراتهم مؤتمرا صحفيا في تل أبيب .. وأعلنوا تزايد
 عمليات الإرهاب .. وانضمام الآلاف إلى الثورة .
 — رغم أن أشكول كان قد صرح من قبل بالقضاء على ٩٥٪ من حركة
 المقاومة .

— لقد كشف المؤتمر كذبهم وأوضح فزعهم من المقاومة ولقد أكد هذا
 تصريحات مناحم بيجن في مؤتمر راهات جان .. وتصريحات أشكول في

الكنيست .

— إنهم بلا شك يمهّدون لضربة جديدة .

— لقد بدأوا يحشدون قواتهم أمامنا .

— إنها تتدفق في الطرقات نحو الشرق .

— كما أعلن موسى ديان أنه يعرف كيف ينهى المقاومة .

وصمت يحيى برهة ثم هز رأسه وتمتم قائلا :

— نحن الدين سننتهى منه .

وعاود يحيى الصمت . وتساءل عمار محاولاً أن يعرف ما يعنى يحيى بقوله :

— كيف ؟

وجر يحيى مقعده حتى لاصق مقعد عمار ثم أجاب في صوت منخفض :

— لقد أعدت له عملية خاصة .. فقد قررت القيادة أنه يجب أن يلقي عقابه

كمجرم حرب .. باعتباره مشغولاً عن عمليات التعذيب التي تنزل بنا ..

وأكمل عمار قائلا :

— والدمار الذي حاق بنا .. إنه يشارك بنفسه في نفس بيوتنا .

— ومن أجل هذا .. ورغم أننا لا نستهدف الثأر الفردى .. وإنما نقاوم

الاحتلال والاستعمار الاستيطاني لوطننا فلقد تقرر أن يلقي ديان عقابه المشروع

حسب قانون المقاومة كمجرم حرب .

— وهل أعد مشروع الخطة ؟

ورد يحيى هامساً :

— تقريبا .. لقد كلفت به جماعتنا بناءً على المعلومات التي استطعنا الحصول

عليها .. إنه يتردد على مستعمرة حولون القريبة من تل أبيب حيث يقصد أحد

المباني التابعة لأركان حرب الجيش والتي تعود أن يعقد فيها اجتماعات

عسكرية .. وقد تقرر اصطياذه بالقرب من المستعمرة .

وهز عمار رأسه وقد بدا له الكلام غير مقتنع وتمتم قائلا :

— ٢٨٧ —

- أعتقد أن العمل هناك ممكن ؟
- إنه ممكن .. لأنه يبدو غير ممكن .. ولأن العدو أيضا يعتقد هذا ..
- وتساءل عمار في دهشة :
- كيف .. ؟
- إنه يعتقد أن العملية فوق طاقتنا .. وأننا لا نجسر على الوصول إلى هناك ..
- وأنها بعيدة حتى عن مجرد تصورنا .. ومن أجل هذا فالحراسة على ديان تكون هناك أقل منها في أى مكان آخر .. إنها تخف حتى تكاد تكون معدومة فهو يعتبر نفسه هناك في بيته .. ومن أجل هذا يصبح اصطياذه سهلا ..
- وصمت عمار برهة ثم هز رأسه قائلا :
- إنها مغامرة مثيرة ..
- إنها تعتمد على السرعة والمفاجأة ..
- متى ستم ؟
- لم يحدد لها الوقت بعد .
- ليتنى أستطيع أن أشارك فيها .
- إن شاء الله نقوم بها معا .
- أرجو أن يسمح لي الدكتور كمال بمغادرة البيت .. فليس أثقل على النفس من الإحساس بالعزلة والمعرفة تتأجج .
- وشد يحيى على يد عمار قائلا وهو يبتسم :
- لن تكون أبدا في عزلة يا عمار .. أنت معنا دائما .
- وواصل الصديقان الحديث حتى أقبلت مى تدعوها إلى العشاء .
- وقبل أن يرحل يحيى وقف عمار يشد على يده قائلا :
- سألق بك يا يحيى .. فما عدت أطيق البقاء ولعل العملية إياها .. لا تتم قبل أن أحضر .
- ولم يطل بقاء عمار في البيت .

— ٢٨٨ —

بعد بضعة أيام كان يقف على أهبة الرحيل .
 قال له كمال وهو يرى ضيقه برقدة البيت :
 — اذهب يا عمار . أنت بخير الآن .. وتحتاج إلى بضعة أيام للنقاهة ..
 ولعلها تكون هناك أقدر على منحك الشفاء ..
 وتمت الأم في أسي :
 — لماذا يا عمار تتعجل الذهاب .. أضقت بنا ؟
 وقال لها الأب ناهرا :
 — دعيه يذهب يا فاطمة .. لن نكون عبئا عليه أبدا .
 ورد عمار وهو يشد على يد أبيه :
 — لقد كنت لى دائما .. قوة دافعة ..
 وعادت الأم تقول والدموع تخلق صوتها :
 — قسمتى يارب .. لم أطلب أكثر مما تطلب كل أم .. لم أطلب أكثر من مجرد
 الأمان .. مجرد الإحساس بأن ابني لن أفقده كلما عبر باب البيت .
 وزفر الأب قائلا فى سخرية :
 — وكأنك تأمنين عليه إذا لم يعبره .
 وعلا صوته فى لهجة حازمة :
 — لم تعد الحياة لنا هدفا .. حتى نطلب الأمان والاستقرار .. إنها وسيلة لأن
 نحقق وجودنا .. وجود هذا الوطن المنهوب المبدد .. الضائع .. قيمة حياتنا
 لم تعد فيما تمنحه لنا متعة .. بل فيما تمنحه لهذا الوجود من تأكيد ..
 وهزت فاطمة رأسها وهي تشعر بعجزها عن فهم ما يقول الشيخ ..
 وأقبل عليها عمار ينظر إليها فى حنان ومد ذراعيه يضمها إليه وهو يهمس فى
 رقة لم يعتدها منه أحد :
 — سأعود يا أمى .. ثم أذهب .. لأعود ثانيا حتى لا أخذلك .. إني أذكرك
 دائما .. أذكر نظراتك وكلماتك ونبراتك .. وأحس منها إيمانا وقوة ..

حياتي ، ليست من أجل الوطن فقط يا أمي .. وإنما من أجلك ومن أجل أُنَى ومن
أجل خالد .

ونظر إلى مي فوجد عينيها تتطلعان إليه في نظرة حزينة فاستطرد يقول
هامسا :

— ومن أجل مي .. أنتم جميعا تجسدون الوجود الذي نسعى إلى تحقيقه ..
ليس الوجود .. وهما .. أو فراغا .. وإنما هو نحن .

وعاد يضم إليه أمه قائلا :

— سأعود يا أمي .. ثم أذهب .. لأعود ثانيا .. دائما سأعود .. من أجلكم
جميعا .

ورثب إليه خالد يعانقه قائلا :

— وستحضر إلى المسدس ؟

— أجل ..

— وسأضرب به ..

ثم رفع يده كأنه أمسك بها مسدسا واستطرد يقول :

— بعد أن أعمر الساقية .. أضع يدي على القنطرة وأرفعه هكذا .. ثم أضع

يدي على الزناد .. واضغط .. بم .. بم ..

وجره أبوه ضاحكا :

— كفى .. كفى .. لقد حصدت العدو ..

وسار عمار إلى غرفته .. ليضع سترته .. ويأخذ حقيبته .

وتسللت مي وراءه .

وقبل أن يتناول الحقيبة التفت إليها فجأة والتقت أعينهما .

ومد عمار يديه فأمسك بكفيها .

وأبصر عمار دمعين تترجرجان في مقلتيها ..

وهمس عمار قائلا :

(ابتسامة على شفثيه)

— ٢٩٠ —

— لا تبكى يا مى .. لا دموع ..
وهمت مى بالكلام ولكنه وضع أصابعه على شفتيها هامسا :
— ولا كلمات ..
وعاد ينظر إلى عينيها نظرات مليقة بالحب ثم استطرد يقول :
— سأعود من أجلك أنت .. قبل كل إنسان .. إنك تمثلين كل الأشياء الطيبة
التي أقاتل من أجلها .. أنت أروع ما فى الحياة يا مى .. وأنا أحارب من أجل
الحياة .. ومن أجل كل ما هو جميل فى هذه الحياة ..
ومست مى أصابعه فى قبلة متعبدة ..
وعاد عمار يقول وهو يمسك أصبعها ويرفعه إلى شفتيه فى وله :
— سأعود إليك .. لأضع فيه خاتما .. سأذهب إلى عايدة لتشتريه لى من
عمان .. ولن أعود إلا به .
واندفعت مى تضمه بين ذراعيها .. والدموع تنهمر من عينيها وهى تهتف :
— عمار .. سأنتظر دعوتك يا عمار .. لا تتأخر .

زفة في كهف

استقر عمار مع الجماعة في مقرها في الجبل ويدها تعبثان بخاتمي زواج في جيبه .. يحاول أن يجذب ذهنه من الأوهام التي يجره إليها ملمس الخاتميين السحريين .

عبير البرتقال .. وأغصان الزيتون .. وبيت وسط يابرة ترفرف عليه أجنحة الحمام الأبيض وتتعالى من حوله زقزقة العصافير .. وصغير يعدو في الأرض الخضراء .. ومى الرقيقة تحاول اللحاق به ..

وأشياء كثيرة جميلة .. مما تحويها حياتنا الرائعة .. ومما يمارسها الناس الطيبون في هذه الدنيا .

ويهز عمار رأسه كأنما ينفض عنه الأحلام الوردية التي تجره إلى استرخاء لذيذ ..

وواصل عباس حديثه وهو ينشر ورقة بين يديه والرفاق يحيطون به .. وقال عباس :

— من هنا لا بد أن تمر سيارة ديان .. هنا عنق زجاجة لا بد لها أن تجتازه في الذهاب إلى المبنى العسكري في مستعمرة حولون أو العودة منه .. وفي هذه النقطة يوجد جرف عميق خارج الطريق العمومي .. وهنا في هذه الناحية المقابلة يمكن للقوة المهاجمة أن تكمن بعيدا عن المراقبة .. وتستطيع بعد القيام بعمليات الانسحاب بسرعة قبل أن يفطن إليها أحد .

وصمت عباس برهة ثم استطرد يقول :

— وأهم من هذا كله أن نقط المراقبة .. ودوريات الحراسة تكاد تكون

معدومة .

وتساءل يحيى :

— متى ستبدأ العملية ؟

— المفروض حسب التعليمات أن تبدأ ظهر الأربعاء ٢٠ مارس وسيكون عبد المجيد مع الجماعة مستعدا بالسيارة والعبوة .. خارج القدس قرب الطريق الذهاب إلى تل أبيب . ولديه معلومات دقيقة عن كل شيء والمفروض أن يلحق به اثنان منا ليلقياه مساء الاثنين ..

وقال عمار : أستطيع أن أذهب في هذه العملية .

ورد عباس وهو يهز رأسه :

— إننا نحتاج إليك للعمل هنا . إننا نتوقع أحداثا كبيرة .

وأطرق عمار برأسه ورد قائلا :

— أمرك ..

وقال عباس وهو يطبق الورقة بين كفيه :

— إن قيادتنا ستحاول بكل ما تملك من طرق أن تفضح حقيقة الحشود

الصهيونية وتكشف أهدافها ومراميها للعالم كله ..

وصمت عباس برهة ثم أردف يقول :

— لقد قام العدو خلال الثماني والأربعين ساعة الماضية بحشد قواته على طول

النهر وغطى هذه العملية بحملة دعائية في محاولة لتضليل الرأي العام العالمي وإيهامه

أن الثورة الفلسطينية تنطلق من دولة عربية وقد ساهم في هذه الحملة رئيس

حكومة الصهاينة أشكول أمام الكنيست ووزير الدفاع موشى ديان ..

وشرد ذهن عمار في طريق حولون القائم على الجرف وعربة ديان تجتازه ..

والإشارة تعطى .. والعبوة تنفجر .

كم ود لو كان هناك .. ليفجر العبوة بنفسه .

إنه يكره الانتقام .. يكره أن تحركه انفعالاته الخاصة في المعركة الكبرى

ولكنه يحس أن بعض القساة المفرورين الذين يجرّون العالم إلى الدمار .. والذين يستسيغون الوحشية كأداة لتحقيق أطماعهم .. هؤلاء يجب أن يردعوا ردعا خاصا.. يجب أن يعاملوا كالعقارب والأفاعى ، لأن بترهم يشكل منعا لأذى أو وقفا لدمار ..

وأوقف شرود ذهنه لمنحمة من عباس .. واستطاع أن يسترجع ذهنه لمتابعة حديث عباس بعد أن سرح في جزء منه .. وسمع عباس يسترسل قائلا :
— وقد حملت تصريحات القادة الإسرائيليين في طياتها تهديدا جديدا بشأن غارة عدوانية أخرى على الأردن بنفس الحججة التي طالما كرروها وهي وجود قواعد لفتح في الأراضي الأردنية ..
ورد يجيب قائلا :

— العجيبة أنهم يناقضون أنفسهم .. فلطالما ادعوا أنهم قضوا على مقاومتنا ولكن تصريحاتهم تؤكد إحساسهم بأن الثورة تتصاعد بعد أن تدفق علينا الآلاف من المتطوعين .
وقال عباس :

— إنهم يحاولون إخفاء معالم كفاحنا ونسبته إلى خارج وطننا وأن ينفوا من ذهن العالم أن ثورتنا حرب تحررية تابعة من إرادة شعبنا .
وأقبل حمزة يضرب قاع حلة فارغة بكبشة محدثا ضوضاء أشبه بضوضاء الجورنج قائلا :

— العشاء جاهز .

وقال بكر دون أن يلتفت إلى حمزة :

— إنهم يتوهمون أنهم بمغامرتهم هذه يستطيعون صرف الرأى العام العالمى عن حملات الإرهاب النازية التي يمارسونها ضد المدنيين العزل في الأرض المحتلة .
ورد عباس :

— أو لعلهم يحاولون امتصاص القلق والفرع الذى بدأ يعم الأهالى المدنيين

— ٢٩٤ —

عندهم بعد أن وجهت قيادتنا إنذارها بأنها سترد على عمليات الإرهاب والقمع التي ينزلونها بالمدينين عندنا بإجراءات رادعة تنزل بالمدينين عندهم .

وعاد حمزة يضرب قاع الحلة صائحا :

— العشاء يا غجر .. إذالم تقوموا الآن فلن تجدوا القمة واحدة .. إلى أستطيع

أن ألهف الصينية وحدى .. فأنا أكاد أموت جوعا ..

ولم يجبه أحد .. واستمر عباس يقول :

— يجب أن يفهم الرأي العام العالمى أننا شعب نمارس حقنا فى النضال من أجل

تحرير وطننا .. وأنا لن نهدأ حتى نحرره أو نموت على أعتابه .

وضرب حمزة قاع الحلة ضربة أخيرة قائلا :

— ذنبكم على جنبكم .. لعل السياسة والكلام ينفعكم ..

ثم التفت إلى يحيى قائلا :

— أين صفيحة زيت الزيتون التي وعدتني بها ؟

وقال يحيى :

— هناك بجوار الحقيبة والمدفع .

وانته حمزة إلى الركن الآخر من الكهف وهو مازال يطرق قاع الحلة بالكبشة

وقد أخذ فى الغناء .

ونفضت الجماعة إلى الطعام .

وفى ركن أضواء مصباح خافت التفوا حول صينية مستديرة حوت عدسا

مطبوخا وبدأ كل منهم يقطع من رغيفه ويغمس من الصينية .

وتوقفت عمار عن المضغ برهة وهو يحاول تذوق طعم العدس .

ونظر يحيى إلى حمزة وهو يلوك لقمة العدس بين شذقيه قائلا :

— طعم العدس غريب .

وقال حمزة وهو يهز رأسه فى رضاء :

— لعله يطمر فيكم .

— ٢٩٥ —

وتساءل عباس وهو يمزغ لقمة العدس وقد بدا على وجهه القرف :

— ما هذا الذى يطمر فينا ؟

— لقد هيأته لكم ..

— كيف ؟

— بهزيت الزيتون .

ومضغ عمار لقمته وهو يقول مستنكرا :

— أهذا طعم زيت الزيتون ؟

وتتمم بكر قائلا :

— لعله زيت سلاح .

وقفز يحبى من مكانه صائحا :

— ليلتك سوداء .. إياك أن تكون أخذت صفيحة زيت السلاح بدل زيت

الزيتون .

وتساءل حمزة مستنكرا :

— أهنالك صفيحتان ؟

— ألا تعرف أن لدينا صفيحة زيت السلاح التى نزيث بها المدافع

والبنادق ..

— ولكنك قلت لى إن صفيحة زيت الزيتون بجوار الحقيبة والمدفع ..

واتجه يحبى إلى مكان فراشه حيث وضع حقيته ومدفعه ورفع صفيحة بجوار

الصفحة قائلا :

— هذه هى صفيحة زيت الزيتون يا غبى .

وتتمم حمزة فى ذهول قائلا :

— وماذا تكون الصفيحة التى أخذتها ؟

— من أين ؟

وتلفت حمزة حوله ثم أشار إلى مدفع موضوع بجوار فراش آخر :

— ٢٩٦ —

— لقد أخذتها من هنا .. أليس هذا فراشك ؟

وقال عمار :

— هذا فراشي أنا .. وقد كانت صفيحة زيت السلاح بجوار المدفع .. لأنى كنت أوشك أن أزيته وأنظفه .

وطأطأ حمزة رأسه خجلاً وتتم قائلاً :

— مصيبة .. لقد وضعت زيت السلاح على صينية العدس .

وهز عباس رأسه وتساءل فى أسف :

— وكيف سننظف السلاح ؟

وقال بكر ضاحكاً :

— ننظفه بزيت الزيتون ..

ورد يحيى مقهقها :

— ونأكل العدس بزيت السلاح ..

وقال حمزة ضاحكاً وهو يجد المسألة انقلبت إلى مزحة :

— ونبلعه بقنابل يدوية .. بدل .. الطرشي .

وانهالت الأيدى باللقم فى صينية العدس .. حتى أتت عليها .. ووضع حمزة

آخر لقمة فى فمه وهو يقول مستطعماً :

— كانت أكلة لذيذة ..

ونظر حوله متسائلاً :

— نريد كهنة تنظيف .. لمسح أفواهنا .. وإلا .. أقول لكم ..

ومد ذراعه فمسح فمه فى طرف كفه قائلاً :

— قالت لى أُمى لا تبصق على الأرض .. ولا تمسح أنفك أو شفتيك فى طرف

كفك .. ولكن ما دامت المسألة وصلت إلى زيت السلاح .. فلا أظن نصائحها

تصبح مجدية .

وصمت حمزة برهة ثم قفز صائحاً :

— ٢٩٧ —

— والآن هيا يا أولاد .. ننظف بقايا الطعام .. ثم ننظف السلاح .. هيا ..
فالنظافة من الإيمان .

وغسل حمزة صينية الطعام ..
ثم أخذ يمر على الرفاق .. يعطى كل واحد خرقة بللت بالزيت وأخذ كل منهم
يفك سلاحه بجوار المصباح وينظفه ويزيته ..
وجلس عمار واضعا المدفع بين ركبتيه .
وجلس بجواره يحيى ممسكا بمدفعه ينظف ماسورته وهو يتساءل :
— ترى متى يبدأون الهجوم ؟

— من يدري .. ربما غدا .. وربما بعد غد .
— ترى كيف ستواجه قيادتنا الهجوم ؟
— أعتقد أنها ستقرر الصمود .. فنحن في حاجة كبرى إلى عمل يرفع
معنويات العرب ويحطم معنويات العدو .
— وماذا سيكون موقف الجيش الأردني ؟
— بلا جدال سيتصدى للهجوم .. وسيحقق هذا زيادة التقارب وتدعيم
الثقة بين المقاومة وقوات الجيش الأردني .

— ستكون المعركة لو قررنا الصمود اختبارا كاملا لثقتنا بأنفسنا في مواجهة
العدو في هذه المرحلة الجديدة من مراحل كفاحنا المسلح ..
— وستدعم القوى الثورية داخل صفوف شعبنا ..
وكان عباس قد استدعى إلى مقر القيادة ..

وكانت المعلومات التي وصلت إليها من تجمعات العدو وحشوده وتحركاته
المنتظرة هي أنه سيتقدم في خطين : خط من جنوب الكرامة وخط من شمالها
لوضع الكرامة بين فكي الكماشة .

ويبدأ الهجوم في فجر يوم الخميس بإزالة قوات المظلات شرقي الكرامة لسد
منافذ الانسحاب على الثوار ..

وفي نفس الوقت تقوم القوات المتقدمة من الشمال والجنوب والشرق بعملية تمهيط واسعة لمنطقة الكرامة .

وبعد سرد المعلومات عن العدو وشرح الخطة بالتفصيل تلقى عباس مع بقية القادة الأوامر الخاصة بالصمود والمواجهة .

وعاد عباس إلى الموقع مرة أخرى .

كان حمزة قد أعد الشاي .

وكان البعض قد استلقى في مرقده ببطانيته والبعض يتشاغل بالحلاقة أو بتنظيف السلاح .

وأخذ حمزة يوزع الشاي .. عندما طرقت أقدام عباس الأرض الصخرية .. وقال بصوته الأجش :

— لدى بعض تعليمات من القيادة .

ونفض الجميع عنهم غبار الاسترخاء أو النعاس وتجمعوا حول عباس بالقرب من المصباح .. ووضع حمزة براد الشاي وأقبل يتخذ مكانه وسط الجماعة منصتا .

وقال عباس وهو ينشر الخريطة على حجر وسط الجماعة :

— آخر المعلومات أن العدو قد حشد ثلاثة لواءات مدرعة وحوالي ١٢ ألف

جندى من المشاة جمعهم قرب الجسور في محاولة لتطويق قواتنا من كل الجهات ..

ولقد قررت القيادة أن نصمد أمام الهجوم وأن نصده بكل ما نملك من قوة ..

والخطة العامة هي أن ندع العدو يتقدم دون أن نعترض طريقه .. وعندما يتوغل

داخل الأراضي دون ملاحظة وجودنا نفاجعه بغارات سريعة ومفاجئة بغرض

تدمير قواته المدرعة ونشر الذعر والفوضى في مشاته ومنع طيرانه من تدمير

مراكزنا ..

وبدأ عباس يشرح بالتفصيل دور الجماعة في الخطة .. وواجب كل فرد في

معركة المواجهة الكبرى التي توشك المقاومة أن تخوضها ..

— ٢٩٩ —

وأخيرا صمت عباس والتفت حوله متسائلا :

— أى أسئلة ..؟

وتساءل حمزة فى قلق وهو يهز رأسه :

— هل ستركهم يتوغلون فى أرضنا ؟

— أجل .. يجب أن نترك لهم فرصة التوغل ثم ننقض عليهم لتدمير مدرعاتهم وسياراتهم ..

وتساءل عمار :

— وماذا سيكون موقف الجيش الأردنى ؟

— ستضرب المدفعية إمدادات العدو .. وستدمر خطوط مواصلاته .. وستكون المعركة مشاركة كاملة لتأكيد التعاون والثقة بين قواتنا وقوات الجيش .

وصمت عباس برهة ثم استطرد يقول :

— وستقوم وحدات المدفعية الهاون من عيار ٨١ وعيار ١٢٠ طوال الليلة التالية بضرب حشود العدو فى الضفة الغربية للنهر لمحاولة إنزال أكبر قدر من الخسائر فى منشآته ومواقعه .

وساد الصمت مرة أخرى .

وقال حمزة وهو يهز رأسه :

— لم تعد المسألة لعبا . لم يعد الأمر مجرد إلقاء قنبلة على دورية .. أو نسف قطار .. أو مهاجمة موقع .. إنها معركة بحق .. لم تعد المسألة اضرب واهرب .. بل قف وقاوم .. حتى تقتل أو تُقتل ..

وقال يحيى :

— لو انتصرنا .. فستكون نقطة تحول فى تاريخ كفاحنا ..

ورد بكر :

— سيحولنا من فدائيين يمارسون حرب العصابات .. إلى جيش يقاتل فى

— ٣٠٠ —

معركة كبرى .

وتنهذ عمار وقال في صوت خفيض :

— ستدفعنا خطوة في طريق النصر الحقيقي .

ورد عباس :

— وسنتصر بإذن الله ..

ثم نهض واقفا وهو يقول :

— ليذهب كل منكم إلى فراشه .. وليسترح حتى الغد

واستلقى عمار في فراشه مفتوح العينين .. وبعد لحظة سمع صوت يحیی

يهمس به :

— أئمت يا عمار ؟

— كيف أنام في ليلة كهذه ؟

— أما زلت تفضل الذهاب في مهمة حولون ؟

— طبعاً لا .. لقد كنت دائماً لا أحب المهمات الخاصة .. ولكن هذه

المهمة .. بدت لي ذات قيمة خاصة .. ولكن أحس الآن أننا أمام مهمة أكبر ..

— لو هبأ الله لنا النصر .

— ولم لا .. إننا نقدم كل ما نملكه من أجل تحقيقه .. إلى أتصورهم بعد

التوغل في أراضيها .. كالفيزان في المصيدة. ولا أجد ما يمنعنا من سحقهم

سحقاً .. بعد أن يقعوا في مزارع الموز بين براثننا .

— ولن تتمكن طائراتهم من ضربنا بعد أن نندمج في اشتباك معهم ..

وتنهذ عمار وبدت أصابعه تتحسس الخاتميين في جيبه وقال شاردا :

— أجل .. أجل .

ورد يحيى :

— أين شرد بك الذهن ؟

وتنهذ عمار وتمتم قائلاً :

— ٣٠١ —

- فى بعض أشياء كنت أظنها تافهة .
- مثل ..
- حقنا فى الاستمتاع بالحياة .
- أعتبره تافها ؟
- بدا لى فى أول الأمر .. وفى زحمة الكفاح .. تافها .
- ثم ..
- أحسست فجأة .. أن كفاحنا يكون بلا طعم إذا لم يكن لدينا إحساس بروعة الحياة .. وبكل ما يشكل هذه الروعة .
- وصمت يحبى برهة ثم سأل فجأة :
- أتحب يا عمار ؟
- ومضت برهة دون أن يرد عمار .
- وعاد يحبى يسأله :
- لماذا لا تحب ؟
- ولماذا تسأل ؟
- لأنه لا يدفعنا إلى الإحساس بروعة الحياة .. غير الحب .
- وساد الصمت مرة ثانية وعاد يحبى يسأل :
- هل تحب يا عمار ؟
- ربما ..
- ليس فى هذه المسألة ربما .. إما نعم .. أو لا .
- نعم .
- وهل تحس بروعة الحياة ؟
- أحس بأشياء كثيرة رائعة .. وأجدها تبدو كأنها سراب لا أمل فيه ..
- لماذا ؟
- هل يمكن أن أمل فى بيت هادئ وحياة آمنة .. فى زيتونة وارفة تظل البيت

— ٣٠٢ —

وحمامة بيضاء ترفرف عليه . هل يمكن أن أنجب صغارا .. يعدون حولي ..
يتضحكون .. ويتواثبون .. هل يمكن أن أحلم بها تجلس لتنسج صديريا
للصغير القادم على أبواب الربيع ؟
— ولم لا ؟

— كيف .. ونحن لا نستطيع أن نحلم .. بمجرد الأرض التي نقف عليها ..
والهواء الذي نتنفسه .. والأرض التي سحبت من تحت أقدامنا .. والهواء الذي
فرغ من حولنا .. وبقينا نعيش في فراغ .. بلا أرض ولا هواء .. كيف نأمل في
البيت الآمن والعيش الهادئ وعلى أعناقنا سيف الإرهاب الصهيوني .. الذي يحلم
صاحبه بإمبراطوريته المشيدة على أشلائنا .. تنبسط وتمتد ليحقق أحلامه من
النيل إلى الفرات .

وتنهذ يحيى :

— وهل يمنعنا الكفاح .. من أن نبني البيت .. ونحميه ..
— أمر شاق يا يحيى .. كنت من قبل .. أشعر أن أمامي هدفا .. واحدا .. لا
بديل له .. وكنت أحس أني ولدت من أجله .. وأن حياتي لا قيمة لها إلا أن تبذل
من أجل تحقيقه ..

— والآن ؟

— أشعر أني أريد أن أنتصر .. وأحيا .. إلى أشعر أن انتصاري يمكن أن أهديه
لإنسان ما .. إنسان أود أن أدخل السعادة إلى قلبه ..

— هل بت نخشى على حياتك يا عمار ؟

— أبدا .. ولكنني بت أشعر أن لها قيمة أكثر من مجرد الفناء .. أشعر أن لها
قيمة البقاء .. لكي تحقق الكثير .

وصمت عمار برهة وهو يحدق فيما أمامه ثم استطرد يقول :

— من قبل كنت أدخل المعركة وحياتي في كفى كأنها قطعة عملة لا أحتاج
إليها .

— ٣٠٣ —

— والآن ؟.

— أشعر أنها عملة تستحق الاستثمار .. إنى ألقى بها لأخرج من المعركة بها
وبأرباحها من النصر .. أود أن أعود بعد المعركة .. إلى مى .. لأقدم لها
الخاتم .. كربح من أرباح المعركة .

وتساءل يحى فى دهشة :

— أستقدم خاتما لمى ؟

— أجل .. إنه فى جيبى .. لقد ذهبت إلى أختى عائدة .. وطلبت منها أن
تشتري لى خاتمى خطبة .

— يا مكار .. فعلت هذا دون أن تقول لى .. ومن أجل هذا تتحدث عن
روعة الحياة .. وقعت يا عمار .. دون أن يسمى عليك أحد .. وهل تعرف مى
بذلك ؟

— قلت لها إنى سأحضر لها الخاتم عند عودتى .

— ألف مبروك يا عمار .. إنها مخلوقة رائعة .. رائعة فى كل شىء .. وليس
بغريب .. أن تجعل الحياة فى نظرك تبدو بالروعة التى تراها .
وعلا صوت حمزة يتساءل وقد سمع قول يحى « مبروك » .

— مبروك على ماذا ؟..

وقال يحى محاولا إسكاته :

— نم يا حمزة ولا تعل صوتك هكذا ..

— سمعتك تقول لعمار مبروك ..

— أجل .

— مبروك على ماذا حتى نشاركه الفرحه .

— سيخطب .

— حقا !!؟

وفجأة أطلق حمزة زغرودة دوت فى جوف المغارة .

— ٣٠٤ —

وأخرج عباس رأسه من تحت الغطاء وتساءل في دهشة :
— ما هذا ؟

وصاح حمزة وهو يصفق بكلتا يديه :
— عمار سيتزوج يا ريس .

وهتف عمار بحمزة زاجرا :

— حمزة .. اعقل وكف عن هذا العبث .

— حيرتونا .. ألم يقل يحبى إنك ستخطب ؟
وقال يحبى :

— إنه مشروع .. عندما يعود بعد المعركة .. سيقدم الخاتم .
وتعالت أصوات الجماعة :

— مبروك يا عمار .

وفجأة نهض حمزة من مرقده .. وهو يجد نفسه لا يستطيع أن يقاوم نوبة
الطرب التي أصابته :

— يا جماعة .. دعونا نحتفل .. بعريسنا .

وهتف عمار بحمزة :

— حمزة .. كف عن هذا المزاح .. وإلا دقت عنقك .

ولم يأبه حمزة لتهديده بل أمسك بصينية العدس وأخذ يدق عليها صائحا وهو
يرقص :

« مبروك عليكى .. عريسك الخفة » .

وهتف بعمار قائلا :

— انهض يا عمار حتى نرفك .

— عيب يا حمزة .

— ما عيب إلا العيب .. دعونا نفرح بعمرنا من يدري ما سيأتى به الغد ..

قم يا عمار .. قم .

— ٣٠٥ —

وسرت نوبة المرح من حمزة إلى بقية الرفاق .. فبدأوا يصفقون وينشدون
معه :

« عريسك الخفة » .

وهز عمار رأسه وهو ينظر إلى يحيى في غيظ :

— أيعجبك هذا ؟

وقال يحيى ضاحكا :

— يا أخى .. قم وصهلل معهم .. إنهم في حاجة إلى شيء يفرحهم .

وصاح حمزة متسائلا :

— أعمل لكم شربات ؟

ورد عليه بكر متسائلا :

— أملك تحبه بدون سكر ؟

— لا .. إلا الشربات ..

وبدأ حمزة في تذويب السكر في الماء لعمل الشربات .

نزهة دامية

الطريق إلى مستعمرة حولون .. والنهار قد أوشك أن ينتصف ونسمة رطوبة باردة تهب من الشمال يخفف من برودتها دفء الشمس التي توسطت صفحة السماء .. تتلاحق على وجهها قطع من السحب البيضاء تدفعها الريح بخفة من ناحية الغرب .

والطريق يبدو خاليا .. إلا من عربة تمرق بسرعة بين آونة وأخرى وبحوار أحد الأحرش القريبة من الطريق وقف بكر يرتدى قميصا وبنطلونا وكاسكتة ويتشاغل بإصلاح أحد الموتوسيكلات وعيناه ترقبان الطريق الأسفلت المتجه إلى المستعمرة وتستقران بين آونة وأخرى على الجرف الذى ينحدر رأسيا على جانب الطريق حيث أخفيت العبوة الناسفة وامتد منها سلك كهربائى مدفون بين الأعشاب حتى يصل إلى المفجر حيث اختفى به حمزة وعبد الحميد وراء حرش بعيد عن الطريق وعن المراقبة ووقفا يرقبان إشارة النسف من صاحب الدراجة ووسط الأحرش تفرق بقية الجماعة يرقبون الشارة ويتنظرون الانفجار حتى يشنوا هجومهم على بقية القول يدمرون عرباته ويقضون على أفراداه .

وبدا التوتر على عبد الحميد وهو ينظر إلى ساعته هامسا :

— أوشكت العقرب أن تصل إلى الواحدة ..

وتشاغل حمزة بإشعال سيجارة وقال بهدوء :

— على أقل من مهلهم .. ماذا وراءنا ؟ ..

وسمع عبد الحميد صوت عربة تقترب .. فوضع يده فى عصبية على المفجر .. وكان حمزة يراقب بكرا من بعيد وهو ينحنى على دراجته فقال

لعبد الحميد :

— أثبت .

— أسمع صوت عربة .

— إننا ننتظر الشارة من بكر فهو يرى الطريق جيدا .. وسيعطينا الإشارة عندما يوضع الرأس في الحية .

ورد عبد الحميد في قلق :

— أخشى ألا يعطينا الإشارة إلا بعد فوات الوقت .

— لا تخش شيئا .. اهدأ .. ونخذ سيجارة .

— لا .. لا .. أنت تعرف أن إشعال السجائر ممنوع .

— في الظلام فقط . خذ نفسا يا أخى واهدأ .

ولكن عبد الحميد أخذ يرقب بكرا وقد شدت أعصابه .. وبدت الثواني تمر به بطيئة مرهقة .. بطيئة مرهقة .

وبدا بكر منهمكا في إصلاح الدراجة .. غير ملق أى اهتمام إلى المراقبة . وهتف عبد الحميد في ضيق وعصبية :

— ما الذى يفعله هذا الأحمق ؟

وهز حمزة رأسه متسائلا :

— ماذا ؟

— إنه لا يكاد ينظر إلى الطريق .

— هل تريده أن يجلس متربعا وعيناه على الطريق ليقول لكل من هب

ودب .. يا ناس هنا فداى يرقب الطريق الذى ستمر عليه عربة ديان ؟!

— ولكنه لا يرقب أصلا .

— إنه يرقب بطريقته الخاصة .

— إنه إنسان غير مسئول . ولا بد أن ..

وقاطعه حمزة في غيظ :

— ٣٠٨ —

- اهدأ يا أبو عبده .. إنك تبدو وكأنك تخرج للعمل لأول مرة .. ألم تصطد دوريات إسرائيلية من قبل ؟
- وقال عبد الحميد وهو يلتقط أنفاسه :
- كثيرا .. ولكنها لم تكن بهذه الخطورة .
- وهز حمزة رأسه وتساءل في استخفاف :
- وما خطورة هذه ؟
- إننا سنصطاد الرأس الكبير .
- ليس في الصيد كبير .. كلهم روح آثمة .. تزهقها طليقة .. وجسد شرير تمزقه شظية .. اهدأ .. ودع الأمر لي .
- ولكن عبد الحميد استمر يمسك بمقبض المفجر .. وأذناه ترهفان السمع وعيناه تحدقان في شبح بكر المنحني فوق الدراجة .
- وفجأة سمعت أصوات عربات آتية من بعيد .
- وشدت أعصاب عبد الحميد وهمس في حدة :
- لقد وصلوا ..
- وشد حمزة من سيجارته نفسا وقال بهدوء :
- جائز .
- إنهم هم بلا شك .
- واشدت قبضته على يد المفجر .
- ونظر إليه حمزة وقال في سخرية :
- يا أخى اهدأ .. وارفع يدك عن المفجر .
- كيف .. إنهم يقتربون .. ألا تسمع صوت العربات ؟
- أجل أسمع .
- وماذا ننتظر إذن ؟
- ننتظر الشارة .

- إن هذا الأحق يبدو كأنه ليس هنا .
وجذب حمزة نفسا من سيجارته ولم يجب .
وعاد عبد الحميد يقول فى عصبية :
— غير معقول .
— ما هذا غير المعقول ؟
— إنه منكب على الدراجة .. وكأنه ليس أمامه غير إصلاحها .
— يجب أن يبدو كذلك .
— العربات تقترب .. ألا تسمع ؟
وكان بكر قد انحنى على الدراجة وهو يرهف السمع ويرقب الطريق من أسفل الكاسكتة .
وبدت ثلاث عربات تقبل من الناحية الأخرى تجاه الجرف .. وأخذت العربات تقترب أكثر وأكثر .. حتى استطاع بكر أن يلمح الرجل الأصلع ذا العصاة على عينه .. بجوار سائق عسكرى .. وخلفه أحد الضباط .
وبدا بكر يستعد للإشارة . وهو يرى العربة تقترب من الجرف .. وتوشك أن تصل إلى مكان العبوة الناسفة .
وفجأة وقبل أن يرسل الإشارة .. وقبل أن تصل العربة إلى المكان المحدد .. دوى انفجار شديد .. وأبصروا العربة تنحرف عن طريقها فجأة لتهوى فى الجرف وقد علا من حولها الدخان والتراب وتناثرت الشظايا والحجارة .
وكان حمزة ينظر مذهولا إلى عبد الحميد ويتساءل فى غضب :
— لماذا لم تنتظر الإشارة ؟
— أكنت تريدنى أن أنتظر حتى تتجاوز العربة العبوة .. وتمرق منها ؟
— ومن أدراك أنها وصلت ؟
— لقد مر الزمن الكافى لوصولها .
واستطرد بقول وهو يحاول أن يلتقط أنفاسه اللاهثة :

— ٣١٠ —

- غير معقول أن أتركها تمر .. إنها فرصة العمر ..
وقال حمزة وهو يهز رأسه في أسى :
— لقد أضعت فرصة العمر .
— لقد نسفت العبوة العربية .
— بل تفجرت قبل أن تصل .
— وهذا الصراخ .. والضجيج .
— لقد انحرفت العربية عن الطريق وهوت إلى الجرف .
— إن هذا كاف لأن يقضى على من فيها .
— ليعحدث ما يحدث .. المهم أن نقضى الآن على بقية العربات .
وكان الرفاق قد انقضوا من وسط الأحرار على العربتين الباقيتين .. بالقنابل
اليدوية والرشاشات ولحق بهم حمزة وعبد الحميد وبكر ..
ولم تطل المعركة .. دمرت العربتان وترك أفرادهما بين قتلى وجرحى .. وفي
دقائق كانت الجماعة قد انسحبت إلى مكان تجمعها .. وخلال العودة كان
الصمت يخيم على الرؤوس .
وتساءل أحدهم :
— ترى هل قضى على الرجل ؟
ورد آخر في تشكك :
— لقد هوت عربته في الجرف .
وقال ثالث :
— المفروض أن يكون قد قضى .
وعاد الأول يقول :
— لقد فجرت العبوة مبكرا عن موعدها .
ثم نظر إلى بكر لائما :
— أعطيت الإشارة مبكرا .. لست أدري لم ؟

— ٣١١ —

ورد آخر :

— كانت أعصابه متوترة .

وقال بكر وهو يطلق زفرة ضيق :

— لقد فجرت العبوة قبل أن أعطى الإشارة .

وأجاب عبد الحميد في عصبية :

— لقد تأخرت في إعطاء الإشارة .

— كنت أوشك أن أعطيها .. عندما سمعت العبوة تنفجر ورأيت العربية

تنحرف إلى الجرف محاولة تجنب الانفجار .

وقال حمزة ضاحكا :

— من أجل هذا أكره الديناميت .. والرصاص .. وكل هذه الأشياء غير

المضمونة .

ثم رفع كفيه وقد فرد أصابعه واستطرد يقول :

— لو كان الأمر بيدي لانتظرته بجوار الجرف وانقضضت عليه .. ولما تركته

يفلت .

وقال عبد الحميد في غيظ :

— ومن قال إنه أفلت .. لقد هوى بعربته في الجرف .

وتساءل حمزة :

— ومن يدريك أنه لم يفلت ؟

ورد أحد الرفاق :

— لنتنظر حتى نسمع نتيجة العملية من لسان العدو .

وأردف حمزة يقول :

— أجل إن مثل هذه العملية لا يمكن إخفاء أنبائها .

وكان حمزة على حق .

فلم تمض فترة .. حتى أذاعت المصادر الإسرائيلية أنباء العملية وكانت آخر

ما يمكن أن يخطر ببال الرفاق الذين قاموا بها .

قال حمزة وهو يردد مقهقهها بين الرفاق بعد أن عادوا إلى مواقعهم :

— تقول الرواية الإسرائيلية إن حائطا انهار على السيد ديان بينما كان يمارس هوايته في حفر الآثار .. وأنه بقي ساعتين تحت الحجارة والتراب إلى أن مرت امرأة اكتشفت الحادث . وأنقذت حياته وأنه يرقد الآن في مستشفى هاشومير . وهز بكر رأسه وقال في أسى :

— نفد الرجل .. لو لم يتعجل عبد الحميد التفجير ..
وتساءل أحد الرفاق :

— أى امرأة هذه التى اكتشفت جسده تحت الحجارة والتراب .. لا بد أنها امرأة .. بلدوزر .. كاسحة للتراب ..

— وكان ديان .. يتسلى بحفر الآثار .. في هذا الوقت الذى تحشد فيه القوات الإسرائيلية على الضفة الغربية .. من أجل القضاء على المقاومة ..
— ويجلس ليلعب تحت الجدران المنهارة .. وحيدا .. بلا أنيس .. ولا صديق .. ولا حارس .. ثم يرقد تحت الأتربة والحجارة .. حتى تمر به المرأة العجيبة .. فتكتشفه بين الأنقاض وتنقذه من الهلاك .

وهز حمزة رأسه وقال فى غيظ :

— خسارة .. أفلت المجرم من جدار الآثار .. ولا أظن الفرصة ستتاح له بعد ذلك .. أن يمارس هوايته المحببة .. لن يقترب من جدار منقض أو حائط منهار .. خسارة .. ألف خسارة ..

ورفع كفيه إلى أعلى قائلا :

— الله يجازيك يا عبد الحميد .. لو انتظرت برهة .. لأرحتنا منه .. ومن آثاره .

وفى نفس المساء الذى كان يرقد فيه القائد الإسرائيلى فى مستشفى هاشومير .. بعد أن أخرجته المرأة من بين حجارة الجدار المنقض الذى كان

يمارس أسفله هوايته للآثار .
نفس هذا المساء كان أحد أعوانه في وزارة الدفاع الإسرائيلية يقوم بالاتصال
بالصحفيين الأجانب يطلب منهم التجمع في الصباح المبكر في القدس المحتلة
حيث تنتظرهم مفاجأة كبرى .
وكانت القيادة العامة للمقاومة أدرى بهذه المفاجأة الكبرى وأعلم بكل ما
سبقها من حشود وتحركات .. أعلم حتى بساعة الصفر التي ستبدأ فيها هذه
المفاجأة .

وبالتالى .. لم يكن هناك فيها .. ما يدعو إلى المفاجأة .
وصدرت الأوامر لكل القيادات بأن تكون على استعداد تام للعمل ..
للحركة .. للضرب .. ووضعت الكمائن في كل مكان يمكن للعدو أن يسלט
عليه عدوانه ويتخذ مسرعا لاستعراض بربريته .
وفي نفس المساء بدأت مدفعية الهاون ٨١ ، ١٢٠ تقصف حشود العدو
ومواقعه .. واستمر الضرب حتى أوشك الفجر أن يطلع .. وبسرعة تحركت
القوات لتتخذ مواقع جديدة لمواجهة الهجوم الذى يوشك أن يبدأ .. مع أول
خيوط من خيوط الفجر .

وكانت على مجموعة عمار .. أن تكمن في مزارع الموز في البيرة الكائنة
غرب الطريق الرئيسى للكرامة ..
وكانت الأوامر تقضى بأن تترك قوات العدو تتوغل في الأرض .. ثم تفاجئها
قوات الكمائن بغارات سريعة ومفاجئة تدمر مدرعاتها وتقضى على قواتها .
وبدأت خيوط الفجر الأولى تتسلل من وراء الأفق الشرقى .
وكان عمار يقبع بمدفعه بين يديه وعدد من القنابل اليدوية في جيوبه ..
وبجواره جلس يحيى وحزمة .

وهبت نسمة رطبة حركت أوراق الموز العريضة .
وملأ عمار صدره بنسمة الفجر الندية .. وتتم قائلا :

— ٣١٤ —

— أول نسمة من نسمة الربيع .

وأردف يحيى بنبرة ساخرة :

— وأى ربيع !؟

وزقزق عصفور يتواثب بين الأوراق الخضراء .

ونظر إليه يحيى وهز رأسه قائلا :

— خدعتك النسمة .. والأوراق الندية .. فانطلقت تغنى .. يا أحمرق ..

وضحك حمزة وأجاب متسائلا :

— أحمرق من الإنسان ؟ .. كل إنسان !!؟ يغمض عينيه عن الربيع .. عن

زهوره .. وأربحه .. ونسائمه .. والحياة تتدفق في كل عرق من عروق

الكائنات .. وفي وجه الحياة يرفع السلاح .. ليدمر .. ويحطم .. الحمقى هم

نحن .. كلنا .. كل الناس تقف في وجه الحياة .. لتوقف تدفقها .. بالحق ..

والمرارة .. والكراهية ..

وجذب حمزة ورقة من أوراق الموز يمسح بها وجهه ثم أردف يقول :

— قال لك أبوك يا عمار .. إن القتال سخافة .. كل قتل سخافة يا عمار ..

حتى ما سماه أبوك بالدرء والردع .. القتل كله سخافة يا عمار .

وتسأله يحيى :

— ولماذا إذن تقتل يا حمزة ؟

— لأنى إنسان يا يحيى .. إنسان وسخيف — ولا أمتلك كإنسان سخيف

إلا أن أرد السخافة .. بالسخافة .. ماذا تظننى يا يحيى .. زهرة .. أو

عصفورة .. أنا إنسان .. وأفعل كل ما يفعله الإنسان من سخافات .. بما فيها

سخافة القتل .. وأرتكب كل ما يرتكبه الإنسان من خطايا .. بما فيها الغرور ..

والحق .. والكراهية ..

وكان عمار ينصت شاردا ..

وسأله حمزة قائلا :

— ٣١٥ —

— فيم تفكر يا عمار .. في المستقبل الوردى الذى يحمله الخاتم السحرى فى
جيبك ..

وهز عمار رأسه وهو يرهف السمع :
— هذا أزيز طائرات .

ورد حمزة وهو ينصت :
— لا أسمع شيئا ..

— ثم أردف وهو يربت ظهر عمار قائلا :
— استرح يا عمار .. لم يحن الوقت بعد .

وقال عمار وهو ينظر إلى ساعته :

— الساعة قد قاربت الخامسة .. المفروض أنهم سيعبرون الجسور فى أول
ضوء .. قد تكون دباباتهم بدأت عبور النهر الآن ..
وقال حمزة وهو يجذب سبابة موز خضراء :
— دعهم يعبروا ..

وقطع صباح موز وقضمه ثم ألقى به إلى الأرض قائلا :

— خسارة .. الموز لا يؤكل على شجره .. كان يمكن أن يجعل انتظار المعركة
أكثر متعة .. أحب الموز ..

وعاد عمار يقول وهو ينصت :

— وقد يبدأون الهبوط بالمظلات .

— دعهم يهبطوا .

— أو ينزلون قواتهم بالهليكوبتر .

— دعهم ينزلوا .. إلى أشعر بقرصة جوع .

وقال يحمى :

— فى جيبى بقايا باكو البلح العراقى الذى وزعه علينا عباس بالأمس .. أتأخذ

قضمة ؟

— ٣١٦ —

— هات أى شىء ..
وتناول حمزة قطعة البلح من يميني وأخذ يلوكها في فمه قائلا :
— كان يجب أن أحضر معى براد الشاى والواپور .
وتساءل عمار مستنكرا :
— هنا ؟
— ولم لا .. نتسلى حتى يصل الكلاب .
وفجأة سمع دوى ..
وقال يميني وهو يتلع قطعة البلح الباقية .
— وصلوا .
وجذب الرشاش في يده قائلا :
— استعنا على الشقا بالله .
وأخذت الانفجارات تتوالى .
كانت الدبابات قد بدأت تقدمها تحت ستار كثيف من نيران مدفعية العدو
الثقيلة .
وبدأت الجماعات المقاومة الرابضة في كائنها ترقب الانفجارات في صمت .
وقال عمار :
— إنهم يضربون المواقع الخالية ..
واستمرت الانفجارات تتزايد .
واستمر تدفق دبابات العدو ومشاته المحملة على العربات نصف الجنزير على
الضفة الشرقية بغير مقاومة .
وكان هدف العدو الذى أعلنه .. هو تطهير منطقة الأغوار من رجال
المقاومة .. وكان يقدر لحمته بضع ساعات ينهى بها مهمة ضرب المقاومة
وتأديب الأهالى .
وكان الحشد الذى تدفق من قواته يمارس العملية وكأنها نزهة في أرض سهلة

خضراء تمشطها قواته من المخربين والإرهابيين وتنزل بهم ضربة قاسية تضع بها نهاية لكل ما يسببونه لها من إزعاج .

وبكل مظاهر التبجح والغرور الصهيوني بدأت عملية إنزال القوات الإسرائيلية على المرتفعات شرق الكرامة .. لكى تقطع على المقاومة طريق الانسحاب .

وهبطت أول طائرة على المرتفع .. وهبطت منها أول دفعة من الجنود .. وهبط قائدهم .. فى ثقة وغرور .. كأنه فى رحلة سياحية .. أو كأنه يهبط فى حديقة بيت أبيه .

وبدت الأرض خالية .. تؤكد إحساس الغزاة بأنهم فى نزهة .. وفجأة انطلقت رصاصة من مدفع رجل عجوز قبع منكشاً فى جحره وراء إحدى المرتفعات .. ليردى قائد الغزاة قبل أن يواصل خطاه المتغترسة فوق الأرض الحرة الطيبة .

وتوالت الطلقات من كل صوب تحصد الجنود الهابطين .. وتصرعهم قبل أن تطأ أقدامهم الأرض ..

وأحدث الهجوم المفاجئ فزعاً بين القوات الهابطة .. ولم تعد المسألة تبدو لهم نزهة ممتعة أو رحلة سياحية .. وأسرعوا يحملون جثة قائدهم ويلمون قتلاهم وجرحاهم فى الطائرات الهابطة .. التى اندفعت إلى أعلا عائدة أدراجها تحمل خيبة الأمل المفاجئة .

وفى نفس الوقت بدأ إنزال المظليين فى مزارع الموز . وأخذت كائن المقاومة المتناثرة فى المزارع تصيدها بالرشاشات والقنابل اليدوية والسلاح الأبيض .

وبدأ عمار وجماعته الانطلاق فى المزارع الخضراء يفرغون رشاشاتهم فى أجساد المظليين الهابطين .

وأمسك حمزة بيد عمار وهو بهم باصطياد أحدهم وهو يوشك أن يهبط فوق

أشجار الموز وهتف به :

— دعه لى ..

ولكن عمار أفرغ فيه دفعة طلقات جعلته يهوى جثة هامة .

وقال حمزة :

— قلت لك دعه لى .

ورد عمار فى حزم :

— ليس هذا وقت عبث يا حمزة .

— كنت سأقتله بالمديّة ..

— قد يصيبك بمدفعه قبل أن تقضى عليه بمديتك ..

وقال حمزة فى إصرار :

— أتحدى ..

— ليس هذا وقت تحدى يا حمزة .. إنها معركة .. يتوقف عليها مصيرنا كلنا ..

ثم صوب مدفعه إلى جندي آخر فأرداه قاتلا :

— يجب أن نبيدهم جميعا .. لأنهم يريدون إبادتنا كلنا .. يجب أن نثبت لهم

أن إبادتنا لم تعد شيئا ميسورا .. لن تتكرر أبدا .. مذبحه دير ياسين .. أو كفر

قاسم .

وكان بعض الجنود الإسرائيليين قد هبط فى المزرعة المجاورة وبدأت تدور

معركة حامية الوطيس بينهم وبين الجماعة التى استقرت فى المزرعة .

واندفع الثلاثة يعبرون إلى المزرعة وقد أحسوا أن كفة الجنود الإسرائيليين قد

أخذت ترجح وأنهم يحاولون التجمع فى المزرعة مستترين فى أحد الأكواخ .

وقال حمزة وهو يندفع مع زميله بين الأشجار :

— هنا لن يتفح الرصاص .. لا بد أن نتسلل حولهم ونطبق عليهم بأيدينا .

وقال له يحى :

— أجل .. من العبث أن ندخل معهم معركة نيران .. فستفقد ذخيرتنا قبل

أن نقضى عليهم .
وكانت القوة الإسرائيلية قد أوشكت أن تقضى على قوة المقاومة .. صرعت
اثنين .. وجرحت الثالث .
وقال عمار وهو يتوقف عن السير :
— المواجهة غير ممكنة .
وقال يحيى :
— دعونا نلف من هذا الدرب .
وقال عمار :
— يجب أن نحاول أحدها لفت نظرهم بالنيران من الناحية الأخرى ويلف
الباقى للانقضاض عليهم من الخلف .
وقال يحيى :
— أنا سأبقى لأشغلهم بالنيران من هناك ..
وسار يحيى بين أشجار الموز فى دورة واسعة ثم بدأ يطلق الرشاش على القوة
الإسرائيلية محاولا بالوثب بين الأشجار أن يوهمها بأن قوة كبيرة توشك أن
تهاجمها .
وأخذت النيران تنهال حوله .. وهو يقفز من مكان إلى آخر مغيرا موقعه
بسرعة .
والتف عمار وحمزة حول القوة الإسرائيلية .
ولم يكادا يقتربان من موقعها حتى بدأ قذفها بالقنابل اليدوية ..
وفى لحظة الارتباك التى أحدثتها انفجار القنابل انقضض حمزة وعمار ..
وسكنت النيران .
وبدأت المواجهة فى الكوخ بالسلاح الأبيض .
وهجم حمزة وعمار ووراءهما يحيى .. بالمدى .
وأصاب الإسرائيليون ذعر شديد .. وهم يرون المدى تطبق عليهم لتشق

— ٣٢٠ —

البطون والصدور ..
وبدأت أصابع حمزة تطبق على الأعناق ..
لم يحاول أن يعذب أحدا .. فلم يكن الوقت يسمح .. وكان عليه أن يستغل
أسنانه إلى جانب أظافره .
وانتهت المعركة في دقائق .. بدت كأنها الساعات .
وهز عمار رأسه وهو يغادر الكوخ وقد تصبب العرق من جبينه وتمتم قائلا :
— لم يكن هناك سبيل سوى هذا .
وقال حمزة في استخفاف :
— أنا إنسان .. ولا مفر من ارتكاب خطايا الإنسان .. لقد رأيتم يشقون
بطن أمي وهي حامل .. كانت سخافة منهم .. ومن يومها أقسمت ألا أكون أقل
سخافة .
وانطلق الثلاثة من المزرعة .. ليواصلوا الانقضاض على القوات الإسرائيلية
المتغطرة .. ويحولوا رحلتها السياحية .. إلى نزعة دامية .. ويعلموها أن
المقاومة .. لم تعد صيبا يسهل تأديبه ..

الله أكبر ..

استمر تدفق الدبابات الإسرائيلية في أرض الأغوار ..
وبدأت الدبابات تحيط بالكرامة من الشمال والجنوب كفكى كماشة .. كما
أخذت تندفع من جسر الملك حسين إلى جنوب المدينة .. لتلتقاها مدفعية الجيش
الأردنى ودباباته .. بوابل من النيران ..
وفي أحد المواقع قرب مفترق الطرق استقرت بطارية عبد الكريم فوق الجبل
وقد وجهت فوهات مدافعها صوب النهر ..
وكانت القذائف قد أخذت تنال على حشود العدو وعلى مناطق تجمعها
وعندما بدأ التقدم انقضت المدفعية بنيرانها على الجسور فدمرتها .
وأنسك عبد الكريم بمنظاره وهتف بالملازم خليل قائد التروب :
— لقد بدأوا ينزلون الجسور في كل مكان .
وأكمل خليل وهو يرقب تقدم الدبابات .
— إن الدبابات تتدفق عبر النهر .
وبدأت قذائف طائرات العدو ومدفيعته تنال على المواقع وانطلقت قذائف
المدافع المضادة للطائرات لتصد الطائرات المغيرة .. محاولة أن تمنح الموقع الحماية
وتيسر لمدافعه حرية الضرب والاشتباك .
وسقطت قذيفة قرب المدفع المجاور لعبد الكريم وانطلقت صرخة مدوية ..
وصمت المدفع عن الدوى ..
وهتف عبد الكريم في مرارة :
— أصيب الطاقم ..
(ابتسامة على شففيه)

وقال خليل :

— سأذهب إليهم .

ورد عبد الكريم وهو يندفع نحو المدفع .. الذى استمرت القذائف تنهال حوله :

— يجب ألا تكف المواقع عن الضرب .. إن دباباتهم تتدفق حول الطريق ..
ووصل عبد الكريم و خليل إلى الموقع .

وأصابتهما رجفة وهما يريان جسد المدفعى مطبقا على المدفع .. بلا رأس .
وازدرد عبد الكريم ريقه وهو يقترب من الموقع ويرى بقية الطاقم قد تناثرت
أشلاؤه ..

وهتف خليل فى وجيعة :

— لا فائدة .. الموقع كله تدمر .

ورد عبد الكريم :

— ولكن المدفع ما زال سليما .

— لقد أصيب فى جانبه .

— ولكنه لم يعطل تماما ..

— دعنا نجربه .

— أسمع أننا حولى .

ونظر عبد الكريم فوجد جسدا ما زال يتحرك فى حفرة مجاورة واندفع إليه
يفحصه ثم هتف :

— عبد الله ..

وبدا الرقيب عبد الله وقد أصيبت ساقه بشظية مزقت عضلات الفخذ وهو
يحاول أن ينهض .

— القذائف فى الصندوق وراء المدفع إنها ما زالت سليمة .

ثم تتم قائلا :

— ٣٢٣ —

- الحمد لله إننا نستطيع أن نواصل الضرب .
وهتف به خليل :
- استرح يا عبد الله .. نحن سنشغل المدفع .
— ولكنى أستطيع أن أعمل ..
- ابقى أنت مكانك .. وسأضمد لك جرحك لأن دمك ينزف ..
وهز عبد الله رأسه :
- ليس هذا وقت تضמיד الجراح ..
ونفض عبد الله واقفا ..
- فأقبل عليه خليل يحاول أن يربط له جرحه النازف بمنديله .
واستمرت القذائف تنهال وأزيز جنائزير الدبابات يقترب . وصوت المدافع
في المواقع المجاورة يهدر على طول الخط .
- وصمت مدفع مجاور بعد أن دوت قذيفة وعلا عمود من الدخان ..
وهتف عبد الكريم :
- المدفع المجاور قد أصيب .
وصاح خليل :
- مصيبة .. لا بد أن نشغل هذا المدفع .
واندفع عبد الله بجرحه نحو المدفع .
وبدأ يحاول تشغيله .
- ومضت فترة شدت فيها أعصاب عبد الكريم وهو يرقب المدفع الرابض في
صمت وعبد الله ينكب عليه يحاول إصلاحه وتحليل ينقل الذخيرة إلى
جواره .
- وفجأة هتف عبد الله :
- الحمد لله :
- وناوله خليل إحدى القنابل ..

وبدأ الدوى ..
 وكان عبد الكريم يرقب ساق عبد الله وهي آخذة في النزيف ووجهه يزداد
 شحوبا بعد كل قذيفة تطلق .
 والدوى يزداد .. وأصوات الجنازير تقترب ..
 وأرهف عبد الكريم سمعه .. وكأنه ينصت إلى أوركسترا تعزف من
 حوله .. محاولا أن يكتشف نشازا في إحدى آلات العزف ..
 وفجأة هتف في مرارة :
 — دمر مدفع واحد وعشرين .. الذى يعمل عليه طاقم شفيق .
 سأل خليل في دهشة :
 — كيف عرفت ؟
 — لقد صمت .. إلى أرقب انطلاق القذائف من الموقع كله ..
 ومد خليل يده بالقذيفة إلى عبد الله ولكن عبد الله لم يتناولها ..
 لم يستطع أن يمد يده ..
 خار جسده من كثرة ما نرف .. واستند على المدفع ثم هوى ..
 واندفع عبد الكريم إلى المدفع .. بعد أن جذب جسد عبد الله وهو يهتف في
 وجيعة :
 — انتهى عبد الله .. سكب آخر نقطة من دمه .. مع آخر طلقة أطلقها ..
 وتناول عبد الكريم المدفع قائلا في حزم :
 — لا يجب أن يصمت هذا المدفع .
 ثم رفع عينيه إلى السماء وهتف داعيا :
 — لآخر قطرة من دمنا يارب .. ولكن ليس قبل أن نسكت عواء الكلاب
 على أرضنا .
 وواصل الضرب .
 وأصيبت بعض دبابات العدو .. وتقدم البعض الآخر .

— ٣٢٥ —

واستمر الدوى .. وأخذ عبد الكريم و خليل يتبادلان الضرب على المدفع .
وهز عبد الكريم رأسه وبدا كأنه قد فقد قدرته على تمييز أصوات الأوركسترا
من حوله وتمتم قائلا وهو يدفع القذيفة في جوف المدفع ..

— لست أدرى من الذى يضرب .. ومن الذى صمت .

وقال خليل وهو منهك في العمل :

— المهم ألا يصمت هذا المدفع ..

وأعطاه إحدى القذائف قائلا :

— صوب نحو هذا القول القادم من اليمين .

ورد عبد الكريم في أسي :

— يبدو أن مدفع عبد الجواد قد صمت أيضا ..

— لا يهم .. اضرب .

واستمر الضرب ..

واستمر انفجار الدبابات .. واستمر أيضا تدفقها ..

وقال عبد الكريم وهو يحاول التقاط أنفاسه :

— هذا السيل لا يتوقف .

وقال خليل وهو يعطيه القذيفة :

— اضرب ..

وأصيبت دبابة أخرى .

وقال عبد الكريم :

— واحدة أخرى تبدو وراء التبة .

وناوله خليل القذيفة صائحا :

— اضرب ..

وانحرفت الدبابة يمينا فلم تصبها القذيفة .

وهتف عبد الكريم :

— ٣٢٦ —

— خسارة ..
وأسرع خليل نحو موقع القذائف .
وتعالى صوته يهتف في مرارة :
— انتهت .. مصيبة .
وصاح عبد الكريم يستعجله :
— أسرع يا خليل .. إنها تتقدم ..
وعاد خليل وقد بدت علامات الجزع على وجهه :
— انتهت الذخيرة .
— غير معقول !
— الصندوق فارغ ..
— والذخيرة الاحتياطى .
— انتهت أيضا .
وتغم عبد الكريم فى حيرة وأسى :
— وليس هناك فرصة لكى نحضر ذخيرة من الصف الخلفى فالدبابات تتقدم
على الطريق .
وهتف عبد الكريم :
— لو أننا فقط نوقف الدبابة الأولى لوقف القول كله .
وأخذ خليل ينظر حوله ..
— أحضر بعض الطلقات من الموقع المجاور ..
— غير معقول .. إن القذائف تنهال من حولنا ولن نصل إلى أقرب موقع
إلا والدبابات قد اكتسحت الخط كله ..
ومضت فترة صمت .. بدا كل منهما عاجزا ..
والدبابات تقترب ..
وهز عبد الكريم رأسه وهو يتمتم :

— لا فائدة .. انتهينا .

وفجأة تناول بعض القنابل اليدوية ثم اندفع من وراء المدفع وهو يقول لخليل :
— تعال .. لم تعد أماننا سوى هذه الفرصة ..

اندفع في جنون .. وهو يصيح : « الله أكبر .. الله أكبر » مجذوب فقد عقله ، واندفع خليل وراءه في الطريق المكشوف .. والنيران تدوى من حولهما وهما منطلقان كأنهما يعدوان في سباق المائة ياردة ..

وفي ثوان .. كان الاثنان يواجهان الدبابة ..

لو وقفت هذه الدبابة .. لكف السيل كله عن التدفق ولكانت هناك فرصة .. لبقية المواقع .. في تدمير القول بأكمله ووقف التقدم ..

وكان مدفع الدبابة مصوباً نحو الموقع يصب عليها وابل من نيرانه ..
وقذف عبد الكريم بأول قنبلة فهبطت في البرج .

وتوقفت الدبابة فجأة عن السير .

وواصل الاثنان قذف القنابل .

وشل قول الدبابات .

وحاولت الدبابات الخلفية الدوران ولكن الطريق كان أشبه بعنق الزجاجة ..

وبدأت قذائف المدفعية تنهال على الدبابات .

واندفع عبد الكريم وخليل يحاولان العودة إلى الموقع واستدار مدفع الدبابة .
وسمع دوى .. وعلت صرخة .

ولم يبصر عبد الكريم من خليل .. سوى أشلاء متناثرة في الجو ..
لم يجد من جثته شيئاً يجره معه .. سوى ذراع .

فجذبه وانطلق ..

ووراء الموقع ..

استقر عبد الكريم .. مغشياً عليه .. تنزف جراحه .. ويضم إلى صدره ..

— ٣٢٨. —

ذراع خليل .

وتوقف سيل الدبابات .

أصيب منها ما أصيب .

وحاولت البقية العودة .. تطاردها قذائف المدافع .

وفي الشمال كانت الدبابات تندفق على طريق الكرامة .. من شمال البلدة

وجنوبها ..

وفي نفس الوقت كانت مجموعة الصحفيين الذين جمعهم القيادة الإسرائيلية

في القدس قد حملتهم إحدى عربات الأتوبيس إلى أريحا في رحلة مرحلة ضاحكة

راهن بعضهم البعض الآخر على نوع المفاجأة التي قد أعدها القيادة

الإسرائيلية ..

وقال أحدهم :

— لعلها وليمة على الطريقة العربية !

ورد آخر في سخرية :

— بل وليمة على ضحية عربية .

وقال صحفي ثالث :

— سيلتهمون الضفة الشرقية بحالها .

ورد الأول :

— هذه المرة في ٦ ساعات ، وليس في ٦ أيام .

واستمر الحوار الساخر بين الصحفيين :

— إنها مجرد كبراج على ظهر الإرهابيين حتى يكفوا عن شقاوتهم .

— بل إنها شيء أكبر من هذا .. هذه الحشود كلها لا يمكن أن تكون مجرد

التأديب .

— إننا لم ندع لجرد مشاهدة غارة تأديبية على المقاومة العربية .. فهي تحدث

كل يوم .

— ٣٢٩ —

— إذن فلا بد أن نذهب معهم إلى بغداد ثم نهبط على القاهرة .. ما دامت الحملة التأديبية لا تعجبك .

— والله .. يظهر أنهم سيأكلونها ساخنة .

— ممن !!؟

— من العرب .

— تظنهم يحملوننا كل هذا المشوار لنشاهدهم وهم يأكلونها ساخنة .. ومن

العرب !!

— ومعهم كل هذه الهیصة .. إن الدبابات تتدفق على الضفة الغربية منذ أسبوع .

وتوقفت العرببة أمام مبنى صغير .

وخرج منه ضابط إسرائيلي يحمي مجموع الصحفيين ببشاشة وهو يقول :

— تتناولون فنجانا من الشاي أو شيئا باردا ؟

وقال أحد الصحفيين :

— نفضل أن نرى المفاجأة الكبرى .

وقال الضابط :

— صبرا ..

— إلى متى ؟

— بعد برهة ستنقلون إلى الضفة الشرقية .. لمشاهدة عملية بسيطة تنهى

قواتنا فلول الإرهابيين ..

وصمت الضابط برهة ثم استطرد يقول ضاحكا :

— ما دمتم لا تريدون أن تتناولوا شيئا هنا .. إذن فلننتظر حتى نشرب القهوة

هذا المساء معا في عمان .

وضحك أحد الصحفيين قائلا :

— ألم أقل لكم !؟

— ٣٣٠ —

وهز صحفى آخر رأسه قائلا :

— سنرى ..

وفى نفس اللحظة أقبل جندى من الداخل يستدعى الضابط الإسرائيلى ..
ومضت فترة قبل أن يعود الضابط وقد بدا على وجهه التجهم وامحت من
قسماته البشاشة والمرح .

وصمت الضابط برهة ثم قال للسائق باقتضاب :

— سنعود إلى تل أبيب .

وهتف أحد الصحفيين متسائلا :

— ماذا حدث ؟

— لا شيء ..

— ألن نذهب إلى الضفة الشرقية ؟

— بل ستعودون إلى تل أبيب .

— لماذا ؟! ..

— ستحضرون هناك مؤتمرا صحفيا .

— ولكن لماذا لا نعدى إلى الضفة الشرقية ؟

— هذه هى الأوامر .

وهتف أحد الصحفيين فى سخرية :

— إذن فلن نشرب القهوة فى عمان .

ورد آخر :

— فى تل أبيب أفضل .

وقال ثالث فى صوت خافت :

— يظهر أنهم أكلوها ساخنة !

— غير معقول ..

وصاح الضابط للسائق :

— ٣٣١ —

— هيا .. ماذا تنتظر !!؟
وعادت العربية إلى تل أبيب .
وفي القدس كانت مى قد استيقظت مبكرة .. سقت شجرة الليمون ..
وتحسست القنبلتين المخبأتين فى أرض الحديقة ..
ولم تلبث أن سمعت الشيخ عبد السلام يهتف من الداخل :
— مى ..
وأقبلت عليه فإذا به يقف أمام الراديو مشدوها وهو يتمم :
— بدأ الكلاب هجومهم .
وصاحت فاطمة رافعة يديها إلى السماء :
— يا رب .. انصرنا .. يا رب أنت قادر على كل ظالم .
وتمت مى وقد بدا عليها الشرود :
— كيف هجموا ؟
ورد عبد السلام :
— بالدبابات والطائرات والمدافع .. لقد هجموا بكل قواتهم .. لأنه هجوم
كبير .

وعادت مى تتساءل مشدوهة :
— وكيف واجهناهم ؟
— مدفعية الجيش تضرب حشودهم .
— وقواتنا ؟ ..
— ليس هناك أنباء بعد .
وتساءلت مى فى ضيق وقلق هامسة :
— وهل سنبقى نحن ننتظر ؟ ..
وهز الشيخ عبد السلام رأسه فى عجز :
— وماذا نملك أن نفعل ؟ ..

— ٣٣٢ —

ثم رفع رأسه إلى السماء وهتف :
— يا رب .. إن إيماني بك لا يتزعزع .. اللهم إن تهلك هذه الفئة فلن تعبد في
الأرض .

واستمرت نظرات مى القلقة الشاردة .
وهست كأنما تحدث نفسها :
— ما أوجع إحساس العجز .. ما أوجع ألا يملك المرء سوى الدعاء .
ثم هتفت داعية :

— يا رب .. أعنا على أن نفعل شيئا .. أكثر من أن ندعوك يا رب ..
وفجأة انطلقت إلى الحديقة .
وهتف بها عبد السلام :

— إلى أين يا مى ؟

وردت مى قائلة :

— دعنى أفعل شيئا يا عمى .. إن إحساس العجز يقتلنى ..

ووصلت مى إلى الحديقة وخالد وراءها .

وبدأت تزيح الحطب والأعشاب ثم أخرجت القنابل من الحفرة التى دفنت
فيها .

وصاح خالد فرحا :

— هل ستضربين اليهود يا مى ؟

وقالت مى :

— عد أنت إلى البيت يا خالد .

— لماذا ؟

— عد أنت حتى تأخذ بالك من أبيك وأمك .

— وأنت ماذا ستفعلين ؟

— سأذهب فى مشوار صغير وأعود بسرعة .

— ٣٣٣ —

- ولماذا أخرجت القنابل ؟
— لأفحصها حتى لا تكون قد تلفت .
— يا مكاراة .. أنت ستضربين بها اليهود ..
— عد أنت يا خالد إلى البيت .
— ولماذا لا أذهب معك ؟
— قلت لك ابق مع أمك وأبيك .. إنك رجل يا خالد .. ويجب أن تبقى للدفاع عن البيت .
— وكيف أذافع وليس معي سلاح ؟
— سأحضر لك سلاحا ..
— متى ؟
— عندما يحضر عمار .. ألم يقل لك إنه سيعطيك مسدسه ؟
— أجل قال هذا .. ولكن متى سيحضر ؟
— غدا ..
— وسيعطيني المسدس ؟
— أجل .
— وسأضرب به ؟
— طبعا ..
وجذبه مى من يده إلى الداخل بعد أن أخفت القنبلتين في جيها واتجهت إلى الباب والشيخ عبد السلام يتمتم قائلا :
— خذى بالك من نفسك يا مى ..
— حاضر يا عمى ..
— كوني حريصة .. إننا في حاجة إليك .. كلنا في حاجة إليك ..
واندفعت مى إلى الطريق ..
وفي آخر الطريق كانت تقف دورية من عربيتين إسرائيليتين وعلى مقربة

كانت تقف عربة محملة بالخضروات . وحول البائع وقف بعض المشترين من الأهالى ..

واقتربت مئ من العربة وقالت للبائع :

— بكم رطل البندورة ؟

وقبل أن يرد البائع همست به :

— ابعد العربة عن الطريق

ورفع البائع نظره إليها ثم قال :

— صباح الخير يا ست مئ .

— صباح الخير ..

وأخذ المشترى حاجتهم من الرجل فى هدوء .. ثم تحركت العربة بعيدا عن موقف الدورية .

وسارت مئ بجوار الرصيف المقابل للدورية ثم دارت فى منحنى . واستقرت مخفية وراء سور مهديم لإحدى الحدائق وأخذت ترقب العربتين .

وبهدوء أزال طابة الأمان عن القنبلتين ثم قذفت بهما على العربتين واحدة بعد الأخرى .

وسمع دوى الانفجار .. وأخذت مدافع الدورية تطلق نيرانها فى هوس فى كل اتجاه .. فى الطريق ونحو البيوت .. فى الأرض وفى السماء .

واتجهت مئ بسرعة إلى الحديقة .. وخرجت من الباب الخلفى المفضى إلى الشارع الآخر .. ثم سارت فى هدوء عائدة إلى البيت .

وفى نفس اللحظة كانت الهجمات تتوالى من قوات الفدائيين فى الأرض المحتلة تهاجم الدوريات الإسرائيلية وتنسف مواقعها .

ووصلت مئ إلى البيت .

ودلفت من الباب وارتمت على أحد المقاعد تلتقط أنفاسها المتلاحقة .

وأقبل عليها خالد يتسائل :

— ٣٣٥ —

- عدت سريعا يا مى ا
— أجل ..
— أين القنابل ؟..
وهمست مى :
— حيث يجب أن تكون .
واستطردت تقول وأنفاسها تتلاحق :
— فى صدور المعتدين ..
وأقبل عليها الشيخ عبد السلام يربت ظهرها فى حنان ويتساءل :
— أنت بخير يا مى ؟
وردت مى :
— أفضل كثيرا .
— وأخبار القتال ؟
— الهجوم مستمر .
— وأنباؤنا ؟
— ليس هناك أنباء بعد .

إشرافه على الطريق ..

نيران المعركة تتأجج في أرض الأغوار وقوات نجدة العدو تتدفق نحو الشرق ، وقصف مدفعيته يتزايد على مدينة الكرامة ومقاتلاته تلهب ظهر الأرض بقذائفها تدمر البيوت وتحرق المزارع بالنابالم .. تضرب كل شيء حتى قواته نفسها. والمدفعية الأردنية تضرب إمدادات العدو تحاول وقف تقدم مدرعاته عبر الجسور وتقصف حشوده المتدفقة في الأغوار .. وفي المرتفعات الشرقية مجموعة من قوات المقاومة تصب نيرانها من مدفعية الهاون والقذائف الصاروخية والمضادة للدروع لتوقف السيل المتدفق من دبابات العدو وآلياته والذي انحرف من الطريق نحو الغرب ليقع في حقل الألغام المنبث غرب المدينة .

وفي مزارع الموز ما زالت طائرات الهليكوبتر تواصل إنزال قوات المظليين الذين تتلقاهم كائن الفدائيين المنبثة في المزارع بالرشاشات المتوسطة لتفتك بهم وتحصدهم فيتساقطون كأفواج الطير الدائع المتهافت . ويملأون مستشفى الميدان الذي نصبه العدو قريبا من أرض المعركة بحيث تتحول حركة الطائرات العمودية من صب المهاجمين على المزارع إلى محاولة إخراجها من مئات المصابين المكდسين فيها تعود بهم ثانية إلى القدس لتلقى بهم في مستشفى هداسا .

واندفعت مجموعات الفدائيين تتلقى بقاياهم التي أفلتت من نيران الرشاشات بالأيدى والمدى .. وتطبق عليهم بالأظافر والأسنان .. ترد عدوانهم بكل ما يتأجج في نفوسها من مرارة الظلم .

وسيل الدبابات يواصل تدفقه على المدينة عبر الطريق الرئيسى من الشمال والجنوب رغم نيران الهاون التي تنصب عليه من المرتفعات الشرقية .

— ٣٣٧ —

وفوق سطح أحد البيوت وقف عمار ويحيى وحمزة برشاشاتهم وقنابلهم وقد
بدا على وجوههم التوتر والإرهاق .
وقال يحيى وهو يصوب رشاشه نحو إحدى الدبابات المتقدمة عبر الطريق :
— ما كل هذه القوات التى حشدتها الكلاب فى هجومهم .. إنهم يريدون
إبادتنا .

ورد حمزة :

— لن يبيدونا قبل أن نبيدهم .. سنعلمهم أن الحمنا لم يعد طريا ..
وتتم عمار وهو يقذف بإحدى القنابل اليدوية :
— هذه معركة العمر بالنسبة لنا .. إما أن نكون .. أو لا نكون أبدا ..
إما البقاء .. وإما العدم .
وقال حمزة فى غيظ :
— الدبابات لا تريد أن تقف ..
وقال يحيى :
— لو أوقفنا الدبابات الأولى .. فسيعطل كل الطابور .. لأن الطريق ضيق .
ولن تستطيع بقية الدبابات التقدم .
وقذف عمار بقنبلة أخرى .
وتتم يحيى :
— لا فائدة .

وتوقف حمزة عن ضرب رشاشه .. ثم ألقاه جانبا وقد بدا عليه الشرود ، ثم
تتم يردد قول عمار :
— هذه معركة العمر يا عمار .. وإما أن نكون .. أو لا نكون أبدا .
ثم هتف فى إصرار :
— سنكون يا عمار .. سنكون أبدا .

ومن حقبة بجواره جذب حزاما ناسفا وشده حول وسطه وأمسك بقنبلتين

في كلتا يديه ثم صاح :

— سنكون أبدا ..

وهتف به عمار متسائلا :

— ماذا ستفعل يا حمزة ؟

ورد حمزة وهو يقفز بكل قواه على ظهر الدبابة التي وصلت بمحاذاة البيت الذي يرابطون على سطحه :

— معركة العمر يا عمار .. تستحق أن ندفع فيها عمرنا .

وسمع صوت دوى يصم الآذان .

انفجرت الدبابة بكل ما فيها ومن عليها ..

انفجر جسد حمزة .. الضاحك المرح .. ليفجر الدبابة .. وتوقف الطابور كله على الطريق .

دفع حمزة عمره ببساطة .. في محاولة لكسب معركة العمر .

حاولت بقية الدبابات أن تعبر الدبابة المتفجرة ولكن الطريق كان ضيقا كعنق الزجاجة .

وانهالت القذائف فوق الطابور ..

قذائف الهاون من المرتفعات الشرقية .. والرشاشات والقنابل من فوق الأسطح .

وفي جنون استدارت الدبابات الواقعة فوق الطريق تضرب الدور على جانبي الطريق تهدمها وتدكها ..

وانهارت جدر اللبن والقش واندفعت الدبابات في جنونها .. تحطم البيوت .. وتدوس الأنقاض .

وأخذت الدبابات تتدفق في الشوارع الفرعية للمدينة .

وحاول عمار أن يوقف طابورا يندفع في أحد الطرق القرعية .

ضرب الدبابة المتقدمة بإحدى القنابل ..

— ٣٣٩ —

توقفت برهة وأخذ مدفعها يضرب بجنون فى كل اتجاه مدمرا البيوت .
 وهمت بالتقدم .. وتعم عمار هامسا وهو يمسك برشاشه :
 — معركة العمر يا حمزة .. ماذا يساوى عمرنا .. إذا لم ندفعه لكسبها .
 ثم قفز من السطح ليهبط على ظهر الدبابة .
 وبرشاشه قضى على كل من فيها ..
 استمر رشاشه يضرب حتى .. صمت فجأة .
 أسكته طلقة صوبت من الخلف ..
 وتوالت القذائف .. وتوالى الدوى ..
 وهبط يحيى فوق الدبابة المدمرة .. وجذب جسد عمار الذى أخذ ينزف من
 فوق الدبابة .. وجره بسرعة إلى باب البيت المجاور .
 واستلقى عمار بين ذراعى يحيى ..
 وبدت الدموع تترقق فى عينى يحيى ..
 ونظر إليه عمار نظرة لوم وتتمم :
 — أتبكى يا يحيى ؟
 وازدرد يحيى دموعه وهتف :
 — أبدا يا عمار .. أنت بخير .
 — بخير دائما .. كلنا بخير ..
 وصمت عمار برهة يحاول التقاط أنفاسه ثم عاد يتمم :
 — كلنا بخير .. حمزة بخير .. وأنا بخير .. ما دام عمرنا لم يذهب سدى .
 وساد الصمت لحظة وبدا عمار كأنه يقاوم ألما فظيعا .
 وقال يحيى :
 — مالك يا عمار ؟
 ورد عمار :
 — أبدا .. شكة بسيطة فى جانبى ..

— ٣٤٠ —

وازدرد ريقه ثم تتم متسائلا :

— دمرت الدبابه ؟

— أجل يا عمار .

— وتوقف الطابور ؟

— وانسحب .

— الحمد لله .

وصمت برهة يحاول أن يتمالك قواه ثم همس :

— كسبتا المعركة ؟

— أجل يا عمار .

— معركة العمر يا يحيى ..

وهز يحيى رأسه وهو يحاول أن يسيطر على عضلات وجهه المشنجة وعلى الدموع التي توشك أن تنساب من مقلتيه .

واستطرد عمار بهمس :

— عمرنا نحن يا يحيى .. فما زالت هناك معارك كبيرة أمام الآخرين .. حتى نحقق وجودنا ..

— أجل يا عمار أجل .

— ونستعيد الأرض .. والحق .

وصمت عمار ووضع يده على جانبيه .. وضغط على ضروسه يحاول كبت صيحة توشك أن تفلت من بين شفتيه .

وما لبث أن استرخى وفتح عينيه وهمس قائلا ويمناه تتحسس جبيه :

— قبل أن أذهب يا يحيى لى عندك رجاء .

وبدت الحيرة والعجز على وجه يحيى وهو لا يعرف ماذا يفعل وهو يحس أن عمارا ينساب بين يديه .. كما تنساب حقنة ماء من أصابع اليد .

وهمس قائلا :

— ٣٤١ —

— أنت بخير يا عمار .. سأحاول أن أحضر ضمادا لجرحك .

وهز عمار رأسه وهمس :

— لا فائدة يا يحيى .

ووضع يده في جيبه ثم أخرجها ومدّها إلى يحيى قائلا :

— أعط هذا لى .. خاتم الخطبة الذى وعدتها به .

ثم حاول أن يضع الخاتم الآخر في أصبعه وهو يردد :

— اعتذر لها يا يحيى .. تمنيت أن أعود إليها لأضعه في يدها بنفسى .

وصمت عمار يلتقط أنفاسه وهز رأسه قائلا :

— تمنيت أن أعود لألبسها الخاتم .. ولأحدثها عن أشياء كثيرة حلوة ..

تمنيت أن أعود إليها لأجلس أمامها .. لترسم الصورة .. ولأعذر لها عن كل ما

قلت لها من سخافات .. ولأقول لها .. إني أحبها .. كما لم أحب أحدا في حياتى .

ورد يحيى قائلا :

— إنك بخير يا عمار .. وستعود إليها لتخبرها بكل شيء .

وصمت عمار ثم عاد يتمتم قائلا وهو يتناول مسدسه من حزامه قائلا :

— أعط هذا لخالد .. وخذه معك إلى معسكرات التدريب .. إنه يتوق إلى

القتال .. عدنى يا يحيى أن تفعل كل ما أوصيك به ..

— سأفعل يا عمار .. سأفعل .

— وقل لأبى .. ألا يجزع .. لأن حياتى لم تذهب سدى .. وقل لأُمى إني

راجع .. إياك أن تخبرها بشيء .. أكره أن أوجعها ..

وصمت عمار .. أرخى جفنيه .. واسترخى وشاعت في قسماته السكينة

والرضا وأخرج يحيى زفرة مكبوتة .

ثم أطلق العبرات الحبيسة من مقلتيه .

وانطلق .. يواصل القتال .. بالخاتم في جيبه .. والمسدس مشدود إلى

حزامه .

وقبيل الظهر بدأت طائرات الهليكوبتر الإسرائيلية تلقى منشوراتها تدعو أهل البلدة إلى الاستسلام وتقتنعهم بأن هدف الهجوم هو قوات العاصفة وليس المدنيين .

وأطلقت مكبرات الصوت نداءات تطلب منهم الكف عن القتال وتمنحهم الأمان ..

وسكت الدوى .. وساد السكون :
وبدت الكرامة أطلالا .. تتعالى من أنقاضها أعمدة اللهب .. وسحابات الدخان الأسود .

وأخذ الجنود الإسرائيليون ينفذون وعدهم بالأمان .
قتلوا الأطفال والنساء ومثلوا بجثث الشهداء ونهبوا البيوت والدكاكين ..
ونسفوا ما نجا من دك المدافع ودمار قذائف الطائرات حتى سويت المدينة بالأرض .. وقام الجنود بجمع المزارعين وشدهم بالسلاسل وحملهم بالعربات إلى الضفة الغربية بدعوى أنهم من الفدائيين ..

وقبيل العصر كانت قوات المقاومة قد أعيد تجمعها في المرتفعات الشرقية ..
وبدأت سلسلة من الهجمات المفاجئة على القوات الإسرائيلية لإجبارها على الانسحاب في الوقت الذي أخذت المدفعية الأردنية تصب نيرانها على مدرعات العدو وتضرب طائراته جنوب المدينة .

ومع انحدار الشمس في الأفق الغربي بدأت فلول الإسرائيليين في الانسحاب تلاحقها هجمات المقاومة ونيران المدفعية الأردنية .. حتى وصلت إلى الضفة الشرقية وبدأت في العبور بواسطة جسور مؤقتة أقامتها على النهر .

واندفعت قوات العاصفة من جنوب المدينة محاولة تطويق القوات الإسرائيلية المتقهقرة وقطع طريق الانسحاب عليها واحتدم وطيس المعركة شرق النهر ودار قتال مرير في الظلام انتهى بإخلاء المنطقة كلها من القوات الإسرائيلية واستمرت ملاحقة القوات المنحدرة بقذائف الهاون ١٢٠ مم الذي غنمته المقاومة من

العدو .

وأخيرا ساد السكون .. وأطبقت الظلمة .. وهبت نسمة باردة تمزج رائحة الدخان بعبير البرتقال .. وبين الأطلال تصاعد أنين جريح يختلط بصوصوة عصفور يبحث عن عشه الضائع تحت الأنقاض ..

وفي الضفة الأخرى من النهر .. والصمت مطبق .. والليل جائم على بيوت المدينة .. جلست مى ترهف السمع إلى الراديو .. تدبر المؤشر بأعصاب متوترة .. وتنصت إلى وقع أقدام تطرق أرض الطريق بين آونة وأخرى .. تقترب .. وتقترب .. ثم لا تلبث أن تتبدد متباعدة .

وتوقفت أصابعها بالمؤشر على صوت يتعالى من الراديو هاتفا :

— صرح ناطق رسمى فى حركة التحرير الوطنى الفلسطينى « فتح » بما يلى :

وأُنصت مى بكل مشاعرها المرفهة واسترسل الصوت يقول :

« كانت القيادة العامة لقوات العاصفة على علم مسبق بتحركات العدو خلال الخمسة أيام الماضية .. فقد استطاعت وحدات الرصد التابعة لقواتنا أن تحدد ساعة الصفر التى حددها العدو لبدء هجومه المدبر فصدرت الأوامر إلى جميع قيادات العمل داخل الأرض المحتلة أن تكون فى حالة استنفار كاملة وعلى استعداد تام للتحرك والضرب وقد بثت الكمائن فى كل مكان توقعنا أن يتخذه العدو مسرحا لعملياته » .

وكان الشيخ عبد السلام قد انتهى من الموضوع واتجه إلى حجرته وسمع صوت

الراديو فأقبل هاتفا :

— أنباء جديدة ..

وردت مى :

— أول بيان عن المعركة من فتح .

وجلس الشيخ عبد السلام بجوار مى منصتا .

واستطرد صوت المذيع يقول :

« وفي الساعة الخامسة والنصف من صباح هذا اليوم بدأ العدو هجومه المنتظر فأخذت طائراته الهليكوبتر تقذف بأفواج كبيرة من المظليين إلى منطقة الكرامة حيث كانت كائننا لها بالمرصاد فاستطاعت أن تبيد أعدادا كبيرة منها .. وعاد العدو فواصل قذف المظليين بأعداد هائلة مرة أخرى وقد التحمت قواتنا مع قوات العدو بالرشاشات والقنابل اليدوية وال سلاح الأبيض في الوقت الذي كانت فيه وحدات مدفعية الهاون والصواريخ وال R. B. J التابعة لقواتنا تدمر آليات العدو المتقدمة من ناحية البحر الميت وفي نفس الوقت قامت عدة مجموعات من قواتنا المتمركزة في الأرض المحتلة بمهاجمة مؤخرة العدو فوقع بين نارين وسقط في المصيدة التي أعدها القيادة بإتقان ، وقد أصيب العدو بارتباك شديد ففقد سيطرته على قواته الأمر الذي أتاح لقواتنا فرصة لإبادة هذه القوات المشتتة » .

وأطلقت مي زفرة راحة وتمتت قائلة :

— الحمد لله ..

وقال الشيخ عبد السلام داعيا :

— اللهم أتم نعمتك علينا .. اللهم انصرنا .

واستمر المذيع يواصل إتمام البيان .. ومي تنصت .. وقد شرد بها الذهن .

سيعود عمار .. بطلا كما كان دائما ..

ولكن هذه المرة .. سيحمل لها خاتما ..

كم كان رقيقا .. وهو يحدثها عن عودته .. وعن خاتم الزواج ..

وانتهى البيان .

وقام الشيخ عبد السلام للصلاة .

واستقلت مي في فراشها مفتوحة العينين .. يتأرجح ذهنها الشارد بين دوى

القذائف .. وتغريد البلابل .. بين أغصان الزيتون .. وشظايا القنابل .

وربما يغلبها النعاس برهة .. ولكن ذهنها لم يتوقف عن الانطلاق بين الهموم

— ٣٤٥ —

والآمال .. بين لهيب المعركة ونسمات الربيع ..
واستيقظت قبيل الفجر .. والضوء يتسلل باهتا من وراء النافذة ..
ولم تستطع الرقاد في الفراش ..
فأقبلت على الحديقة .. وكأنها تستل النهار من جوف الليل ..
وسمعت فاطمة وقع خطاها فهتفت بها :
— إلى أين يا مى ؟
— أتمشى في الحديقة ..
— في هذه الساعة من الليل !
— لقد طلعت الفجر يا خالتي .
— قد يؤذيك البرد يا ابنتي .. ادخلي .. ادخلي .
وعادت مى إلى حجرتها .. وسمعت تمتمة الشيخ عبد السلام بالصلاة ..
ووقفت ترقب صورة عمار وقد ارتسم العبوس على وجهه ..
وتمتت هامسة :
— اضحك يا عمار .. لقد انتصرنا .
وأرهفت السمع ..
بدا لها أن خطوات تطرق أرض الطريق ..
عابر سبيل .. لا بد سائر إلى حال سبيله .
ولكن الخطوات تقترب ..
طرقاتها على أرض الطريق تتعالى .
تقترب أكثر ..
تصعد الدرج ..
وتلاحقت أنفاسها .. وتعالَت دقات قلبها .
من !!؟
أيمكن أن يكون هو ؟

— ٣٤٦ —

لم لا ..
لقد تعود دائما أن يأتي في هذه الساعة .. يأتي مع .. ضوء الفجر .. مع
الشعاع .. مع النهار .
وطرق الباب ..
طرقات خفيفة مترددة .
لعله مرهق من معركة الليل ..
وسارت نحو الباب ..
وعادت تنصت .. تحاول أن تسمع الطرقات ثانية .. خشية أن تكون
واهمة .. وأن يكون الحنين قد جسد لها عودة الغائب ..
ومرة ثانية ..
عادت الطرقات .. خفيفة .. مترددة .
وهتفت مي متسائلة :
— من ؟
وساد الصمت برهة وعادت مي تسأل في قلق :
— من بالباب ؟
وسمعت صوت الطارق يقول :
— أنا .. أنا يحيى يا مي .
واندفعت مي إلى الباب هاتفة :
— يحيى ..
وفتحت الباب .. ووقف يحيى أمامها لاهث الأنفاس شاحب الوجه أشعث
الشعر مغبر الثياب ممزقها .
وتقدم إلى الداخل ..
وأمسكت مي بذراعيه متسائلة في لهفة :
— مالك يا يحيى ..

— ٣٤٧ —

وهز يحيى رأسه دون أن ينطق بكلمة ..

وعادت مى تتساءل فى جزع :

— أين عمار ؟

وارتمى يحيى منهارا على أقرب مقعد ووضع رأسه بين كفيه ..

وكان عبد السلام قد أقبل ونظر إلى يحيى وهو منهار على المقعد وأحس أن يدا

تعتصر قلبه فى صدره ..

وتساءل الشيخ فى صوت متحشرج :

— لم يعد عمار يا يحيى ..

وأطرق يحيى ولم يجب .

وعاد الرجل يتساءل والكلمات تكاد تقف فى حلقة :

— ولن يعود يا يحيى ..

وصمت يحيى .

وهبط الشيخ عبد السلام على المقعد المقابل .. وأطلق زفرة حارة .. وتمتم

قائلا :

— يا رب .. رحمتك يا رب .

وأقبلت مى تهز يحيى مشدوهة :

— عمار لن يعود .. لماذا ؟

ورفع يحيى رأسه وحاول جهده أن يتمالك وهمس بمى وهو يمد يده إليها

بالخاتم .

— قال لى أن أعطيك الخاتم .. وأن أقول لك أشياء كثيرة حلوة .. قال لى إنه

تمنى لو استطاع أن يعود إليك ليضعه فى أصبعك بنفسه ..

وأحست مى أنها تحتنق وهتفت بصوت مبحوح :

— لن يعود عمار ..

وقال يحيى :

— ٣٤٨ —

— طلب منى أن أعطى المسدس لخالد .. وأن أقول للشيخ عبد السلام
ألا يحزن .. لأن حياته لم تذهب سدى .. لقد عاش بطلا .. وراح بطلا .
وسمع صوت فاطمة يتساءل :

— من هناك ؟

وهتف يحيى قائلا :

— قال لى عمار .. لا تقل لأمى شيئا .. لأنه يكره أن يوجعها ..

وأطلق الأب زفرة حارة وتمتم بما يشبه الأنين :

— يا عمار .. قتلتنى يا عمار .

ثم رفع بصره إلى السماء وهتف :

— لا أستطيع أن أمنح أعز من هذا يا رب .. ما بقى لى أضال كثيرا

مما وهبت .. اللهم .. امنحنى الصبر .. بقدر ما منحت من نفسى .. من
قلبى .. من روحى .

وعادت فاطمة تهتف :

— من جاء يا عبد السلام ؟

ونهض عبد السلام يحاول التمسك وهو يقول :

— إنه يحيى يا فاطمة ..

— وعمار ؟

— بخير ..

— لماذا لم يعد ؟

وعاد الشيخ يلتقط أنفاسه ليقول ببساطة :

— يحتاجون إليه فى إحدى المهمات ..

— ومتى يعود ؟

— قريبا ..

— دائما .. يتأخر .. دائما يتعبنى ويعذب قلبى .. منك لله يا عمار ..

— ٣٤٩ —

وبذل الشيخ جهدا خارقا لكي يكتم رغبته في البكاء .. في الصراخ ..
وهبط على سجادة الصلاة .. يدفن فيها أحزانه .. ويردد :
— منه لله .. سينجزيه خير الجزاء .. كان دائما رجلا .. ما أعز الفداء ..
يارب ..

وكان يحبى يقبع في مقعده .. وقد تملكه إحساس ألقى به في هاوية من
العذاب .

وكانت مى ترمقه في صمت كالتمثال .
لم يكن يبدو عليها كأنما قد حدث شيء .. كانت قسماتها جامدة .. وعيناها
شاردتين .

وعادت تتمتع في صوت خافت :

— وماذا قال لك أيضا ؟

وهمس يحيى :

— قال لى إنه يحبك كما لم يحب شيئا في هذه الحياة .

وملأ وجه مى إحساس بالسكينة .

واستطردت تتساءل في حنان :

— وماذا أيضا ؟

— قال لى .. تمنيت أن أعود لأجلس أمامها وأبتسم لها .. كى ترسم

الصورة .. ولأعتذر لها عما قلت من سخافات .

وهزت مى رأسها وتمتمت :

— عمار لم يفعل إلا كل ما هو صواب .. ولم يقل إلا كل ما هو حقيقة ..

عمار .. رائع .. في حياته .. وفي رجيله .

وسارت في صمت نحو غرفتها .

وردت الباب في سكون .

وأمام الصورة وقفت فيما يشبه الصلاة وهمست :

— ٣٥٠ —

— كنت رائعا يا عمار ..
ورفعت عينها إلى الصورة .
فإذا بعبوس الوجه يزول .
وإذا بابتسامة رقيقة ترسم على الشفتين ..
وهمست مى :
— ابتسم يا عمار .. ابتسم يا حبيبى .
إن ابتسامتك إشراقة على طريق النصر ..
واستقر خاتم عمار فى أصبع مى .. تتحسسه فى تعبد .
واستقر مسدسه فى كف خالد يرفع المقبض ويعمر الساقية بالذخيرة ..
ويسير مع يحيى إلى معسكر تدريب الأشبال .
وينتمع إلى همسة فى أذنيه :
— المعركة طويلة يا خالد ..
معركة .. أرض .. وحق .. إذا نحن لم نستعده .. فأنتم من بعدنا .. وأولادنا
من بعدكم .. كل شيء يمكن أن يهون مع الزمن إلا الأرض .. والوطن .

« تمت بحمد الله »

صفحة

٧ مقدمة
٩ صورة لا تبته
٢٤ كيف ؟ كيف ؟
٣٩ هل تحينه ؟
٥٤ طريق لا بديل له
٧١ البندقية والقضية
٨٦ آه في الفجر
١٠٤ حوار على المائدة
١٢١ هل حاربت ؟
١٣٦ لا يشرب القهوة
١٥١ ضرورات الحياة
١٦٩ درس في الرسم
١٨٨ بعيدا عن صدورنا !
٢٠٦ لن يهجره ..
٢٢٢ واجب خاص
٢٤١ شاي بلا سكر
٢٥٨ بخير يا مئى

— ٣٥٢ —

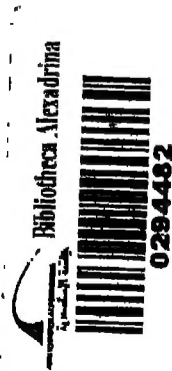
صفحة

٢٧٥ من أجل الحياة
٢٩١ زفة في كهف
٣٠٦ نزهة دامية
٣٢١ الله أكبر
٣٣٦ إشراف على الطريق

رقم الإيداع : ٧٧٥٢ / ٨٦

الترقيم الدولي : X — ٠٢٧٧ — ١١ — ٩٧٧

الناشئ
مكتبة مصر
سعيدة مؤودة السمار زركاة
٢ شارع كامل صدق - الفجالة
ت: ٥٩٠٨٩٢٠



الشن ٨٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيدة مؤودة السمار زركاة